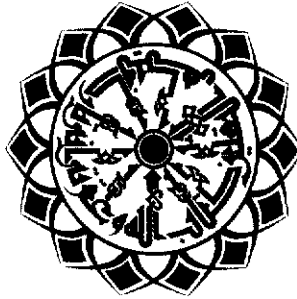


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ إِسْلَامِيَّةٍ جَامِعَةٍ

العدد الثالث والخمسون • السنة الرابعة عشرة • شعبان - شوال ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٢١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الإنترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

سَبَابُ الثَّقَلَيْنِ

مَجْلَدُ رِسَالَتِهِ جَامِعَةٍ

محتويات العدد

□ كلمة التدرير

* عام النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ، الأسباب والدلالات

..... أسرة التحرير ٤

□ ملف العدد : (رسول البشرية محمد ﷺ)

* زيارة النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ في المصادر والمذاهب الإسلامية

..... مصطفى جعفر بيته فرد ١٦

* البشارة بخاتم النَّبِيِّينَ في التَّوْرَةِ والإنجيل

..... علي الشيخ ٣٩

* النبي الْأَعْظَمُ ﷺ في نصوص نهج البلاغة

..... عصري الباني وعلي محسن ٦٠

* قيادة النبي محمد ﷺ قراءة في الأسلوب والمنهج الإداري والقيادي

..... علي العلي ٨٥

* إطلالة على آخر غزوات النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ

..... حميد البغدادي ١٢٢

* رسول البشرية في حوار مع العلامة القرشي

..... إعداد: قسم العلاقات ١٤٤

• تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصبُّ في خاتمة الدِّفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتائج العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:

١- أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجية ومضموناً.

٢- أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.

٣- أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بدَّ أنْ تحتوي على شيءٍ من التجديد والحداثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.

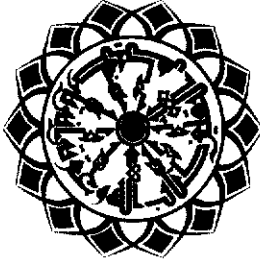
٤- أن لا تنقص عن عشرة صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصِّفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.

٥- أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تُنشر.



المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

الإخراج الفني
سيد كمال البطاط

العدد الثالث والخمسون

السنة الرابعة عشرة

شعبان - شوال

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

المطبعة: ليلي

❑ دراسات

* وظائف الأقليات المسلمة على ضوء قاعدتي وجوب
الهجرة وحرمة التعرُّب

..... أحمد المِلَّفي ١٤٩

* حقوق المرأة في الإسلام مقارنة بالإعلان العالمي
لحقوق الإنسان

..... فوزية العشماوي ١٦٤

* التبليغ المقومات والمعوقات

..... محمد الطَّاعلي ١٨٠

* فكرة المهدوية تحت المجهر دراسة في نظرية أحمد
أمين

..... معين حسن دقيق العاملي ١٩٦

❑ شبهة ورد

* إشكالية السُّجود على التربة والجواب عنها

..... محمد صنفور ٢٢١

❑ تعريف بكتاب

* عرضٌ مقارن وموجز لتفسير العلامة رحمته الله الميزان
والبيان

..... إعداد: قسم المنشورات في هيئة التحرير ٢٣٤

❑ تقرير

* ردود فعل العالم الإسلامي تجاه تصريحات البابا
الأخيرة

..... إعداد: علي أحمد الحسن ٢٤٦

❑ من منشورات المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

* تعريفٌ ببعض منشورات المجمع العالمي لأهل
البيت عليه السلام

..... إعداد: قسم المنشورات في هيئة التحرير ٢٥٢

عام النبي الأعظم ﷺ الأسباب والدلالات

شعاعٌ من ضياء القائد

ما الذي يَعْنِيهِ أَنْ نقوم بتسمية الأوقات والأزمان والتواريخ بأسماء الشَّخْصِيَّات؟ ما هي أهميَّة مثل هذا الفعل، وما هو دوره وأين هو مكانه في الحياة العمليَّة واليوميَّة للشُّعوب؟



لا شكَّ أنَّه عندما يكون الكلام عن الرِّبْط بين تاريخ ما غابِرٍ وبين إحدى الشَّخْصِيَّات التي احتلَّت صفحةً من صفحات التاريخ، فإنَّ الرِّبْط بين الشَّخْصِيَّة صاحبة الأحداث والوقائع التاريخيَّة، وبين العام الذي جرت فيه تلك الأحداث، وسُجِّلَتْ فيه تلك الوقائع، هو في داخل السِّياق والإطار الطَّبيعيِّ لتاريخ الأمم والشُّعوب، المرتبط بالعامل الإنسانيَّ أكثر ممَّا هو مُرتبطٌ بالعامل الزَّمانيِّ، ولا عجب!! فإنَّ الإنسان دوره دورَ الفاعل والمؤثِّر والمسبَّب، وأمَّا الزَّمان، فما هو إلَّا الوعاء الذي يتَّسع - لا باختيارٍ منه، بل رغماً عنه - لجميع ما يريده الفاعل ويختاره ويسبِّبه ويقوم به؛ وعلى هذا الأساس: فليس الرِّبْط بين تاريخٍ ماضٍ وبين الإنسان الذي صَنَعَ لذلك التاريخ قيمةً ومكانةً فخلَّده ومدَّد في أمدِّه، إلَّا واحداً من تجلِّيات هذا الارتباط الوثيق بين القوَّة البشريَّة وبين

العامل الزماني، وواحدًا من تجليات التفاوت في المكانة وفي الأهمية والفعالية بينهما.

ولكن عندما يقوم أحدٌ ما بالحديث عن الرّبط بين تاريخنا الحاضر وأعواننا الحالية وأيامنا الجارية، وبين شخصية تاريخية قديمة، هي قبل عصر الحداثة بأعوام وسنين متتالية ومتطاولة، وقبل عصر ما بعد الحداثة بعصور ودهور، عندما ينهض أحدٌ ليعلن أحد أعوام الألفية الثالثة عامًا لشخصية لا تبعد عن الميلاد، الذي هو مبدأ لحساب التاريخ الأكثر تداولاً، إلا بقرون قليلة لا تتجاوز في كثرتها عدد أصابع اليد الواحدة، بل لشخصية هي قبل مبدأ تاريخنا الهجري والإسلامي، عندما ينبعث صوتٌ كهذا ويتصاعد، رغم هدير وصخب الأصوات الداعية للحداثة، والعولمة، والعلمنة، والتّجديد، ونفص الموروث، ورفض القديم، و.. عندما يقرع سمعنا صوتٌ كهذا.. فمن المؤكّد أنّه سوف يكون له وقعٌ خاصٌّ جدًّا، ونعمةٌ مغايرةٌ للنعمات المألوفة، ومغردةٌ خارج سربها.

فما الذي يدعو ذلك الشّخص إلى القيام بفعلٍ كهذا؟

وما الذي يحدونا إلى القبول بتسميته هذه والتّفاعل معها؟ وهل نحن اليوم في حاجةٍ إلى استذكار القديم وإعادة حَمْل أعبائه التي أثقلت كاهل مَنْ مضى قبل رحيلها معه، أكثر من حاجتنا إلى استشراف المستقبل، والتّخطيط له، والتّفرُّغ لمواجهة مشاكله؟!

إنّ قراءةً فاحصةً وعميقةً، لدلالات قيام وليّ أمر المسلمين الإمام القائد الخميني عليه السلام بتسمية هذا العام باسم أعظم الأنبياء، وخاتم النبيّين عليه السلام محمد بن عبد الله عليه السلام، لا يُمكن لها أن تتمّ في إطارها السّليم دون ملاحظة الطُّروف الموضوعية التي دعّت قائد الأُمّة الإسلامية في زماننا الحاليّ إلى العودة بذاكرة المسلمين إلى ذلك الماضي السّحيق.

ولعلّ من جُملة هذه الظُروف:

أ- الشَّخصيّة العظيمة والقدسيّة والمباركة للنَّبِيِّ الأعظم ﷺ، والتي تتخطى بسماتها، وصفاتها، وملاحمها الإلهيّة والغيبية كلّ حدود الزّمان والمكان، والتي تتصاغر أمام عظمتها القرون المتتالية، والسّنين المتطاولة، والتي يَبْدُو معها كلّ حديث عن الأعراق، والأجناس، والألوان، واللّغات، والمناطق، والأماكن، والأوقات، والطوائف والمذاهب، والأحزاب والسياسات، ضئيلاً وسخيفاً. فمُحَمَّدٌ ﷺ الإنسان، بكلّ ما تحمله كلمة الإنسانية من المعاني السّامية، ومُحَمَّدٌ ﷺ عبدُ الله، بكلّ ما تحمله العبوديّة من حقيقة، وهي جوهره كُنْهها الرّبوبيّة، كما جاء في الخبر^(١)، ومُحَمَّدٌ ﷺ القائد المُلهم، والصادق الأمين على الوحي، الذي هو الرّسالة السّامويّة التي تحتوي على التكاليف والإرشادات التي شَرَفنا الله تعالى بتوجيهها إلينا، ومخاطبة عقولنا بها. إنّ شخصيّة كهذه الشَّخصيّة المباركة، لا تستطيع الكلمات، كلّ الكلمات، أن توفّيها شيئاً من حقوقها الجسيمة، ولا أن تردّها شيئاً من النعم والأيادي البيضاء التي قدّمتها للبشريّة جمعاء، من خلال السّلوكة والتّعاليم، والتّضحيات والخدمات، والأقوال والأفعال. نعم، لا تستطيع البشريّة أن تكافئها على أقلّ القليل ممّا بذلت، ولو كان بَعْضُهم لبعضٍ ظهيراً. إنّ شخصيّة كهذه الشَّخصيّة الجامعة، لا يُمكن وصفها إلّا مَنْ يَعْرِف قَدْرَها وحقيقتها وكُنْهها، إلّا من خالقها الذي جبلها وكوّنها، وهو القائل عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)؛ ولذلك: فلا غرو إنْ خُصِّصَ لها التّاريخ كاملاً، ولا عجب إنْ خُلِقَتْ لأجلها الأفلak والأكوان.

ب - ما شهدناه ونشهده في الآونة الحاليّة، وبالأخصّ الأعوام القليلة المنصرمة، من إساءاتٍ وقحة، وافتراءاتٍ دينيّة، يُوجّهاها الكُفْر والاستكبار العالميّ إلى ديننا ومقدّساتنا وعظماؤنا وتاريخنا، بل إلى كلّ وجودنا وكياننا كأمةٍ

عُظْمى عريقة، لها مكانتها الهامة، ولها حجمها الثقافي والاجتماعي والديموغرافي والاقتصادي والسياسي والجغرافي و...، ولها إمكاناتها البشرية والثقافية الفعالة وثرواتها الاقتصادية الهائلة.. كل ذلك يُرتكّب، وتُنتهك الحُرّمات، باسم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ودفاعاً عنها، وتحت الشعارات البراقة والعناوين المزيّنة والحادعة، والتي أخيرها، وليس آخرها، شعار (محاربة الإرهاب)، فضلاً عن محاولات الإلغاء المتكررة التي يُمارسونها على الشعوب المُستضعفة والمُضطهدة عامةً والإسلامية خاصةً، والتّهويل الإعلامي الذي يُمارَس بشكلٍ منقطع النظير، والذي تُحشد له الجهود والإمكانات الضخمة، في سبيل نحو الشخصية الإسلامية، وتكريس الاستعمار، ونهب الثروات، وإخماد أصوات الضمائر الحية النابضة بالرفض والمقاومة والنهوض والقيام والثورة في وجه الخمول والجهل والفقر والطغيان...

وفي هذا الإطار، وبإزاء هذه الهجمات الشرسة التي تُستهدف وجودنا وعزّتنا ومقدّساتنا في الصّميم، كان لا بدّ أن نعرف، أننا اليوم نعيش في زمنٍ قيل فيه: بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما كان؛ وفي هذا المجال أيضاً، كان لا بدّ للذاكرة أن تعود إلى أيام العزة الإسلامية، كان لا بدّ أن ننظر نظرةً إلى الوراء لنستمدّ من الأيام المجيدة للمُسلمين، من الأيام التي أخرجتنا يوماً من ظلمات الجاهلية المرة، إلى أنوار الحضارة، والعلم، والرقي، والتّمذّن، والإنسانية، والحرية بأروع تجلياتها، كان لا بدّ أن نستحضر ذلك العظيم الذي أخرج الناس، كلّ الناس، وفي وقتٍ قياسيٍّ، من ثياب الجهل والكُفر والفقر القميّة، ليُلبسهم ثوب العلم والإيمان والأخوة والتكافل والعزة والغنى والحضارة والقوة والكرامة.. كان لا بدّ أن نستحضر ذلك العظيم، في محنا ومشاكلنا وأمراضنا التي تُشبه إلى حدٍّ بعيد محن الجاهلية ومشاكلها وأمراضها.

نعم، كان لا بدّ لنا أن نُدرك أنّ الذي سيُخرجنا ممّا نحن فيه، أنّ الذي سيُرفعنا إلى المقام العلويّ الذي يريده لنا الإسلام، ما هو إلّا نفس تلك الرّوح المحمّديّة العالية، التي رفعتنا يوماً وأعزّتنا، وأعلّت ذكرنا، وقوّت دولتنا، بكلّ تعاليمها السّماوية، بوحيها الإلهيّ، بتأثيرها الرّبانيّ، بمسيرتها العلويّة، وأخيراً، بدمائها الحُسينيّة ومفاهيمها الكربلائيّة..

يقول الإمام الخامنّي (عليه السلام):

«نعم، كان إلى جانب هذه الإنجازات الكُبرى أحداثاً مريرةً ومؤسفةً، وجفاءً وظلماً مؤلماً، تمثّل بالإساءة إلى شخصيّة النّبيّ الأكرم، أو انتهاك حرمة المرقد الطّاهر للإمامين العسكريّين، أو المساس بذكرى شهدائنا الأعرّاء، وكرامة شعبنا، إلّا أنّ الإرادة الثّوريّة عازمةٌ - من خلال الاستعانة بالله تعالى - على جعل هذه الأحداث المريرة سلماً للوصول إلى الأهداف الجميلة، والسّعي الحثيث من أجل تذليل الصّعاب وهذا هو الدّرس الذي تعلّمناه من الإسلام ونبيّه الأكرم (عليه السلام)» (٣).

ج - اقران بداية هذا العام مع ذكرى أربعين الإمام الحسين (عليه السلام)، أبي الشّهداء، وإمام الأحرار، الحسين الذي هو بضعةٌ من رسول الله (عليه السلام)، الحُسين الذي أكمل توضّيات جدّه (عليه السلام) في سبيل تبليغ الرّسالة، وإعلاء كلمتها. الحُسين الذي ضحّى بكلّ غالٍ ونفيس، بكلّ قريبٍ وصديق، لكي يَبقى للأمة شرفها وعزّها وكيانها، فكان ثورةً هادرةً في بطن التّاريخ، تطفو على السّطح في كلّ يومٍ وساعةٍ، وفي كلّ أرضٍ ومكان، ليكون كلّ يومٍ عاشوراء، ولتكون كلّ أرضٍ كربلاء، هو نبضٌ حيٌّ دافئٌ مُفعمٌ بالإرادة والحياة، يُحقّق في كلّ قلبٍ، لتكون حرارة دفته مُلهبةً مشاعر الملايين، وعصيّةً على البرودة في قلب كلّ مؤمنٍ، بل في كلّ قلبٍ شريفٍ وإنسان، فكان للإسلام بركة هذه الدّماء أن يُولّد الولادة الثّانية، ولادة البقاء والخلود والعزّة، فكان الإسلام محمّديّ الوجود حُسينيّ

البقاء، وكان الحُسَيْن من مُحَمَّد، ومُحَمَّد من الحُسَيْن... وفي هذا الإطار، يقول الإمام القائد:

«إن إقتران أوّل فروردين مع أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، هو في الحقيقة تقارن بين ربيعين، فالأربعين ربيع الإسلام الذي تفتّحت فيه البراعم العاشورائية، وأوّل رشحات النّبع المتدفّق للمحبّة الحسينيّة؛ وأوّل فروردين هو بداية ربيع الطّبيعة...»^(٤).

د- الحاجة الماسّة الأكيدة الملحة والمتجدّدة، لللممة أوصال الأمة وأعضائها وإعادة جَمع بُنيانها المرصوص، والتي ما فتى أعداؤها في سعيٍّ دائمٍ ومُستمرٍّ نحو تفتيتها وشرذمتها والإمعان في تمزيقها وتشتيتها، بإثارة الحساسيات المذهبية، وافتعال التّعرات والفتن الطّائفية والفئوية، والحروب إن أمكّن، وهي سياسة أموية وصهيونية بامتياز، كلّ ذلك لغرض أن لا تقوم لتلك الأمة قائمة، وكلّ ذلك، خوفاً وحسداً وبُغْضاً وانتقاماً، لما رآه أجداد هؤلاء وأسلافهم من البأس الشديد، والمكانة المرموقة الذي يُمكن للأمة أن تبْلغه لو سارت على التّهج الذي رسمه لها القرآن الكريم، وخطّته لها السّنة النبوية الشّريفة وتعاليم أهل البيت المعصومين عليهم السلام؛ الأمر الذي يَسْتدعي منا المزيد والمزيد من التّأكيد على الوحدة الإسلاميّة، وتطبيع العلاقات بين مُختلف طوائفها وفئاتها وقواها وفعاليّاتها، وهو ما تَنحصر الطّريق إليه بالتركيز على العناصر المُشتركة، على عناصر القوّة، على الملامح الإسلاميّة العامّة، وبإغلاق كلّ مكان من الضّعف التي يُمكن للمغرضين أن يندسّوا من خلالها؛ هي حاجةٌ يُعبّر عنها تماماً قول قائلهم: أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثَّورَ الْأَبْيَضَ^(٥). ولم يكن لهذا الهدف السّامي ليتحقّق إلّا بالشّخصيّة الأولى التي تُجسّد كلّ معاني الوحدة، وإلغاء الفروقات والعصبيّات، ونبذ الخلافات والتّعرات، وهو خاتم النّبيين مُحَمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، رائد الوحدة الإسلاميّة، بل الإنسانيّة، ومُلهمها والمدافع الأوّل عنها على الإطلاق.

وفي هذا الإطار يقول السيّد القائد عليه السلام: «إن تسمية العام بعام الرسول الأكرم عليه السلام، يمثل مجرّة ناصعة بالنسبة للشعب والحكومة، فضلاً عن كونه وجود اسم الرسول الأكرم عليه السلام على السّاحة الدّولية، يمثل نقطة التقاء لعقائد وعواطف جميع الشعوب المسلمة، بمختلف قومياتها ومذاهبها، ولهذا تقع على عاتقنا مسؤولية كبيرة، لكوننا نعيش في مثل هذا العام الذي يحمل هذا الاسم المبارك»^(٦).

وإذا نرى في هذا القدر الذي ذكرناه من الظروف والعوامل كفاية، تنتقل إلى ما هو أهمّ منها، وهو البحث عن دلالات مثل هذا الفعل، تسمية العام الحالي بالاسم المبارك للنبي الأعظم عليه السلام، ونتائجها، والطريقة المثلى في استغلال منافعه والاستفادة منه فيما هو خير هذه الأمة وصلاحها.

والدّلالات والأهداف حدّدها لنا الإمام الخامني عليه السلام في غير واحد من خطابه وبياناته، والتي لا تزال مناراً ومشعلاً يُنير دروب عاشقين والأحرار في ظلّمة هذه الطريق الموحشة.. ونذكر منها:

(١) هذه التسمية تندرج في ضمن إحياء شعائر الله؛ لأنّها دافع لإبراز الحب وإظهار الولاء للنبي عليه السلام، وإعلان التمسك بنهجه وخطّه وتعاليمه وقيمه، وكلّ ما ضحّى من أجله.

(٢) هي تأكيد، بعد التأكيد، على أنّ الشيعة والسنة، كلّهم يضعون النبي الأعظم عليه السلام في المكانة الإسلامية الأولى، أي: أنّه عليه السلام هو الشّخصيّة الأولى في الإسلام، التي يكون الجميع، بلا استثناء، تبعاً لها، وظلاً لها، وفي ركايبها، وعلى نهجها، وفي مدرستها.. هذه التّهمة التي ألصقت بالشيعة الإمامية منذ قديم الزّمان، في مؤامرة دنيئة مفضوحة لتكفيرهم، وعزّهم، وتبرير محاربتهم، رغم تأكيدات أعلامهم الواضحة والشفافة والمتكرّرة، على أنّهم لا كتاب لهم إلاّ

القرآن الكريم، ولا نبيّ لهم إلا شخص النبيّ العظيم، ولا دين لهم إلا الدين القويم..

٣) هذه الخطوة تأتي في إطار السعي لتحويل حياتنا حياةً مُحمّديةً، ولجعل برنامجنا برنامجاً قرآنيّاً وإسلاميّاً؛ وأول ما يَحْتَلّ قائمة الوظائف في هذا البرنامج، وفي هذه الخطّة الحياتيّة العمليّة واليوميّة، التي هي خطّة الأنبياء وهدفهم الأقصى على مرّ العصور وكرّ الأيام، هو: مكارم الأخلاق، الأخلاق الإنسانيّة الحميدة، التي جَعَلها النبيّ ﷺ غرضاً من بعثته المباركة، إذ قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٧).

ف «إِنَّ الْفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِيَّةَ إِذَا كَانَتْ فِي الْمَجْتَمَعِ حَاكِمَةً عَلَى قُلُوبِ وَأَرْوَاحِ الْأَفْرَادِ، وَتَعَاطَفَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَتَحَلَّوْا بِرُوحِ الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالتَّسَامُحِ، وَلَمْ يَخْرُصُوا عَلَى مَالِ الدُّنْيَا، أَوْ يَبْتَغُوا بِهَا يَمْلُكُونَ، وَلَمْ يَتَحَاسَدُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعْ بَعْضُهُمْ عَثْرَاتِ بَعْضٍ، وَتَحَمَّلُوا بِالصَّبْرِ وَالسَّامِحَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَشْعُرَ أَفْرَادُهُ بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَقَدِّمًا تَقَدِّمًا كَبِيرًا عَلَى الصَّعِيدِ الْمَادِّي؛ هَذِهِ هِيَ النَتِيجَةُ الْمُتَوَخَّاةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَهَذَا مَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ؛ لَذَا عَلَيْنَا أَنْ نَنْمِيَ الْأَخْلَاقَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي قُلُوبِنَا يَوْمًا بَعْدَ الْآخَرِ، فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ قَانُونَ الْإِسْلَامِ الشَّخْصِيَّ وَالاجْتِمَاعِيَّ هُوَ وَسِيلَةٌ لِسَعَادَةِ الْبَشَرِ، إِذَا مَا طُبِّقَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي خُصَّصَ لَهُ، إِلَّا أَنْ تُطَبِّقَ هَذِهِ الْقَوَانِينُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ أَيْضًا»^(٨).

ثمَّ بَيَّنَّ ﷺ: أَنَّنَا، وَإِنْ لَمْ نَسْتَطِعْ الْإِقْتِرَابَ مِنْ تَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ النَّبَوِيَّةِ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنْ لَمْ تَتِمَّ كُنْ مِنْ أَنْ نُحَقِّقَ هَذِهِ الْعَنَاوِينَ وَالْأَهْدَافَ السَّامِيَّةَ فِي عَامٍ وَاحِدٍ، بَلْ رَبَّمَا فِي عُمُرٍ وَاحِدٍ، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ، فَعَلَيْنَا أَنْ لَا نَيَاسَ، وَأَنْ نَرْتَقِيَ هَذَا السَّلَمَ خُطْوَةً خُطْوَةً، فَنَسْتَطِيعُ - مَثَلًا - أَنْ نَجْعَلَ بَعْضَ هَذِهِ الْعَنَاوِينَ وَالْأَهْدَافِ قُدْوَةً وَغَرَضًا لِحَيَاتِنَا فِي غُضُونِ سَنَةٍ أَوْ عَقْدٍ أَوْ عَلَى مَدَى سَنِي الْعُمُرِ.

(٤) الاستقامة والثبات، هما أيضاً، من العناوين البارزة التي يصح أن تُعدَّ شعاراً للنهضة المحمّدية، التي ارتقت بالمسلمين في وقتٍ قياسيٍّ إلى القمم الشّاخحة؛ والاستقامة والثبات، نحتاج إليها في مقامين: داخليٍّ وخارجيٍّ، وذلك لأنّ الضُّغوط التي تواجهها، والعقبات التي تقف أمام تقدّمنا وازدهارنا ورقينّا، هي أيضاً تتنوّع إلى ضغوطٍ وعقباتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ.

ف«نحن - أيضاً - مُبتلون بتعلّق قلوبنا وأهوائنا بجاذبية الحياة ذات الألوان المختلفة. فما أكثر الأشخاص الذين رأيناهم في عهد الثورة، وقد كانوا يمتلكون قلوباً صالحة، وعقائد صحيحة، إلا أنّهم لم يَصمدوا بعد ذلك في مواجهة الخلود للدّعة والشّهوات، وحبّ التسلّط والرئاسة، والمذح من قبل هذا وذاك، أو تهديد العدو، فمالوا الى هذه الجهة أو تلك، وأصبحوا معارضين، وأحياناً معاندين للخط الإلهي»^(٩).

(٥) إنّ تشریف هذا العام باسم النّبيّ الأعظم ﷺ، يتطلّب من المسلمین كافةً، أن ينهضوا وينفروا جميعاً، للجهاد المقدّس، الجهاد بكلّ أشكاله، بدءاً من القتال العسكريّ لأعداء الله الظّالمين والمستكبرين والغاصبين، إلى القتال السّلمي، بالعلم والتقنيّات الحديثة والإمكانيّات والثروات والتنمية الاقتصادية المقرّونة بالرّشد الاجتماعيّ. يقول ﷺ:

«إنّ نهضتنا لم تبدأ من اليوم، بل كانت قد بدأت سابقاً، ولا يُمكن أن تنتهي في عامٍ واحد، إلّا أنّنا عندما نقول: إنّ هذا العام هو عام النّبيّ الأكرم ﷺ، فهذا يعني: أنّ علينا أن نقفز قفزةً نوعيّةً جماعيّةً من أجل تحقيق التقدّم، ويجب على كل مواطنٍ في أي نقطة من نقاط البلد الإسلاميّ، أن يخطو خطوة كبيرة نحو الأمام»^(١٠).

ثمّ إنّّه لم يعد يخفى على ذي مسكّة ما لهذه الحملات الوقحة التي حاولت

النَّيل من المقام الشَّامخ لرسول الإسلام ﷺ، بل لرسول البشرية الذي كان وما زال رحمةً للإنسانية كلّها، من أهداف وأبعاد، تصبّ في خانة المخطط الاستكباري الَّذِي يقوده الشَّيْطان الأكبر أمريكا، على أساس مشروع الشَّرق الأوسط الكبير تارةً، والجديد أُخرى، والذي ليس هو في الواقع إلَّا صياغة منافقة للمشروع الَّذِي زلَّت فيه ألسنتهم، أعني: الفوضى المنظمة، الَّذِي يريدون إغراق متطقتنا فيه، كي ينطلقوا من ذلك للسيطرة على قدراتنا، ومنابعنا المختلفة.

وهذه الإهانات التي وجهوها بشتى الوسائل لن تؤثر في البنيان الشَّامخ لخاتم الأنبياء ﷺ، بل سوف تعود بالخزي والعار عليهم في الدُّنيا، وغضب الجبار في الآخرة، وكما قال الشَّاعر:

يَا نَاطِحَ الْجَبَلِ الْعَالَى لِيَكَلِمَهُ أَشْفَقُ عَلَى الرَّأْسِ لَا تُشْفِقُ عَلَى الْجَبَلِ
وإنَّا نزداد المسؤولية الملقاة على عاتقنا في الدِّفاع عن ديننا ونبينا، وكرامتنا وعزَّتنا، من خلال مشروع مدرّوس، وورقة عمل مبرجة، من خلالها نستطيع أن نفوِّت على الأعداء مشاريعهم الشَّيطانية.

وسوف لن يكون بوجهٍ من الوجوه العمل الهمجي غير المدرّوس من أولويات هذه الورقة، وفي قائمة هذا المشروع؛ لأنَّه لن يخدم إلَّا أهداف الأعداء؛ إذ أنَّه من جملة النتائج التي يتوقعون أن يقتطفوها من برنامج الفوضى المنظمة هو الاستفادة من ردَّات الفعل غير المدرّوسة، لكي تكون منطلقاً لهم للتَّشجيع بالإسلام والمسلمين، بعد أن لاحظوا الإقبال الواسع لمواطنيهم للإغتراف من رحيق الإسلام المحمدي الأصيل.

ولما كان من أبرز أنواع المبارزة والجهاد والمقاومة ما اقترن بالفكر والقلم، ومن هذا المنطلق كان مداد العلماء أفضل من دماء الشَّهداء، خصَّصت (رسالة

الثقلين) ملفّها الخاص في هذا العدد حول شخصيّة النبي الأعظم ﷺ؛ لتبدع فيه الأقلام استلهاماً من شخصيّته وتعاليمه، وترتشف الأفهام من نمير أخلاقه وأفعاله.

وليس ذلك إلاّ إيماناً منّا بأنّ المواجهة الحقيقيّة لتلك الوقاحة المبررة التي حاولت النّيل من شخصيّته عليه أفضل الصّلاة والسّلام، ليس هي عن طريق ردّات الفعل الهمجيّة، والتّصريحات غير المدروسة، بل بتسليط الضّوء على أبعاد هذه الشّخصيّة المترامية الأطراف علوّاً وعظمتاً، علّنا بذلك نكون قد قمنا بأقلّ الواجب علينا.

وأخيراً وليس آخراً.. فإنّ هذه الخطوة العظيمة والجبّارة بمضامينها وأهدافها السّامية، من شأنها، لو أحسنّا استغلالها وتطبيقها واستخراج مكنونات لآئتها، وقراءة عظيم دروسها، من شأنها أن تكون سبباً لارتقائنا ونهوضنا وتوحدنا في جبهة واحدة، بنياناً واحداً متراصّاً، لا ثغرة فيه لمتواطئ، ولا موطنٍ قدّم لعدوّ، ولا مطمعاً لمُسْتَكْبِر، ولا عزّاً لمنافق.

إنّنا، ومن منبر الثقلين، ندعو المسلمين جميعاً، بكافة طوائفهم وأحزابهم وأطيافهم وألوانهم ومذاهبهم، بل ندعو الأحرار والمستضعفين في هذا العالم كافةً، إلى العَضّ على الجراح، والسّعي إلى نبذ الخلافات الصّغيرة، ووَادِ الفتن التي تبثّها أبواق السّوء ووسائل الإعلام المُغرِضة المُفرّقة، وإلى التّكاتف والالتفاف حَوْلَ قيادة الإسلام الواحدة.. قيادة النبي ﷺ.. الذي يَحْتَصِر في شخصيّته كلّ الأنبياء العظام، وفي دينه كلّ الأديان..

إنّ ما يجب علينا جميعاً أن نفهمه: أنّ أعداء هذه الأمّة، لا يُفَرِّقون بين دينٍ ودين، ولا بين مذهبٍ وآخر، ولا بين طائفةٍ وأختها.. فهم ساعون فقط نحو مصالحهم، التي هي خيراتنا وأموالنا وثقافتنا وكياننا وحاضرنا وماضينا،

وملكٌ وحقٌ لنا ولأجبالنا الآتية .. فهلّموا لأخذ العبر من حياة رسولنا الكريم ﷺ، وتعاليمه وكلماته ومواقفه وسيرته.. هلمّوا لقراءة جديدة عميقة واقعية عملية لحياة هذه الشخصية التي لا نظير لها في كل تاريخ البشر... وكلّ عامٍ محمديٍّ وأمّتنا الإسلامية بخير، وألف خير، إنشاء الله.

* * *

الهوامش:

- (١) مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام / ٧، نشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤٠٠، بيروت، لبنان.
- (٢) القلم: ٤.
- (٣) نداء السيد القائد رحمه الله إلى الأمة الإسلامية والشعب الإيراني بطهران بمناسبة العام الهجري الشمسي الجديد ١٣٨٥ هـ، بتاريخ: ١/١/١٣٨٥ هـ، ش، الموافق لـ ٢٠/٣/٢٠٠٦ م.
- (٤) المصدر السابق، بتصرف يسير.
- (٥) انظر: كنز العمال، المتقي الهندي: ١٣: ٩٨، ٩٠ / ط ١٤٠٩ هـ نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان؛ وهو مروي عن علي عليه السلام، وفيه عنه عليه السلام: ألا إني وهنتُ يوم قُتل عثمان.
- (٦) الكلمة التي ألقاها رحمه الله في جمعٍ من أهالي مشهد المقدسة، في الصحن الرضوي الشريف، بمناسبة أربعينية الإمام الحسين عليه السلام وبداية العام الهجري الشمسي، بتاريخ ١/١/١٣٨٥ هـ ش.
- (٧) كنز العمال، المتقي الهندي: ٣: ١٦، ط ١٤٠٩ هـ نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (٨) من خطاب له رحمه الله بطهران في ثلثة من السّبابات التعبويّين (بسيج)، بتاريخ: ٦/١/١٣٥٨ هـ، الموافق لـ ٢٦/٣/٢٠٠٣ هـ.
- (٩) المصدر السابق.
- (١٠) من كلمته التي ألقاها رحمه الله في أهالي مشهد المقدسة، مصدر سابق.

ملف العدد
(رسول البشرية محمد ﷺ)



زيارة النبي الأعظم ﷺ
في المصادر والمذاهب الإسلامية

□ مصطفى جعفر بيته فرد (*)

تقديم

زيارة قبر النبي الأعظم ﷺ، ما هو حكمها؟ وما هي منزلتها؟ وأين هو موقعها في المصادر الإسلامية، وعند المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي؟؟

إن الحصول على إجابة علمية للسؤال أعلاه يُشكّل الهدف الأصليّ لتحرير هذه المقالة، فإنّ الجواب عنه إنّ كان متّسماً بالإنصاف، يُمكن له أن يُشكّل أحد المحاور الفعّالة في تحقيق مفهوم الوحدة بين المسلمين، مع ما يتحكم على العلاقة فيما بينهم من هامشٍ واسعٍ من التباين والاختلافات، والتي قد تنشأ من اختلاف لغاتهم أو ألوانهم أو أصولهم أو أنسابهم أو جنسيّاتهم أو قوميّاتهم أو عقائدهم ومذاهبهم، أو أدبيّات ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، أو غير ذلك؛ ولا سيّما في هذا العصر الذي يشهد، شيئاً فشيئاً، إحياءً مجدداً للإسلام بقيمه

(*) أستاذ في الحوزة العلمية، وعضو الهيئة العلمية في المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

وحضارته، ورجوعاً للمسلمين إلى ذاتهم وهويتهم الإسلامية.

نعم، إنَّ زيارة رسول الرَّحمة ﷺ، هذه الحقيقة التَّورانيَّة الخالصة، يُمكن لها أن تُوحِّد المسلمين وتُجمعهم حول نبيِّهم ﷺ، ممَّا يَضمُن، لا إيصالهم إلى الأهداف الدِّينيَّة والأخرويَّة السَّامقة فحسب، بل وهدايتهم إلى سبيل سعادتهم الدُّنيويَّة.

إنَّ زيارة النَّبيِّ الأعظم ﷺ يُمكن لنا أن ندرسها ونبحثها من زوايا وأبعادٍ مُختلفة، والذي سيَتَمَّ التركيز عليه في هذه المقالة، هو التحقيق بشأن هذا الموضوع من الزَّاوية الفقهيَّة، وبالطريقة المألوفة والمتداولة في الأبحاث الفقهيَّة؛ وسيَتَمَّ تقديم مفصل هذا البحث ضَمَّن محاور ثلاثة:

نتعرَّض في أوَّلها لمدارك القول باستحباب زيارة النَّبيِّ ﷺ.

ونُشير في المحور الثاني إلى نظريَّة ابن تيميَّة وأتباعه الذين قالوا بحُرمة السَّفر لزيارته ﷺ.

بينما نبحث في المحور الثالث حول الأبعاد الفقهيَّة السِّياسيَّة لزيارة النَّبيِّ ﷺ، وعن وظيفة الحكومة الإسلاميَّة فيما يتعلَّق بهذا الشأن.

المحور الأوَّل: مدارك استحباب زيارة النَّبيِّ ﷺ وفضيلتها

(١) القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١).

بحُكم هذه الآية الشَّريفة: فإنَّ كلَّ مُسلمٍ قام بظلم نفسه وارتكاب المعاصي، فله أن يأتي، وفي أيِّ وقتٍ، إلى النَّبيِّ ﷺ ليُطلب، في محضره المبارك، المغفرة والعفو من الحقِّ تعالى، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ، في كلِّ وقتٍ، لو قام هو ﷺ - أيضاً - بطلب المغفرة له، فإنَّه سيجد الله تَوَّاباً رَحِيماً.

والسؤال الهام فيما يتعلق بهذه الآية الكريمة، يدور حول عبارة: ﴿جَاؤُوكَ﴾، فهل للحضور لدى رسول الله ﷺ اختصاصٌ بحياته الظاهرية والمادية؟؟ أم أن الآية بصدد بيان حُكْمٍ كليٍّ عامٍّ لجميع الأزمنة والأوقات، ولا اختصاص له بحياته المادية ﷺ؟؟

وفي مقام الجواب، يجب أن يُقال:

بعد الالتفات إلى ما ثبت في محله^(٢)، ببركة الأدلة الثقلية المسلمة، من أن للأنبياء والأولياء والشهداء بعد موتهم الجسماني المادي حياةً أخرى، وبعد الالتفات - أيضاً - إلى ما حُقق في العلوم الثقلية والعقلية^(٣)، من ثبوت الحياة البرزخية، وعدم فناء النفس الإنسانية بعد الموت، بعد الالتفات إلى كل هذا، فإنَّ الحضور إلى النبي ﷺ، لا اختصاص له بحياته الدنيوية، بل يتحقق - أيضاً - بالحضور إليه حتى بعد موته الظاهري، وليس المُشار إليه في الآية الشريفة صرف قضية خارجية، لتكون مختصةً بسنوات معدودة من عمره الدنيوي ﷺ، بل هي متكفلةٌ ببيان قضية حقيقية وحكم كليٍّ وعامٍّ لجميع الأعصار والأزمان، بل ومستمرٌّ إلى يوم القيامة.

ولهذا أيضاً، يُقال في إذن الدخول إلى المقامات المشرفة: «واغلم أنَّ رسولك وخلفاءك ﷺ أحياءٌ عندك يُرزقون، يَرَوْنَ مقامي، وَيَسْمَعُونَ كلامي...»^(٤)، ولذا، وعلى طبق الروايات التي نُقِلَتْ إلينا، حتى في صحاح أهل السنة، قال النبي ﷺ: «ما من أحدٍ يُسَلِّم عليّ، إلَّا ردَّ الله عليّ رُوحِي حتى أَرَدَ عليه السلام»^(٥).

والشاهد على أنَّ الحضور إلى النبي ﷺ أمرٌ عامٌّ ممتدُّ ما امتدَّت العصور وتطاولت الأيام، أنَّ المسلمين، وعلى امتداد التاريخ، قد تلقوا هذا الأمر كحقيقة مسلمة، فكانوا يذهبون إلى قبره ﷺ بقصد زيارته، مبادرين إلى تلاوة هذه الآية الشريفة عنده، والاستغفار بالقرب من مضجعه المبارك^(٦).

وأيضاً، يشهد لذلك: أن جميع الفرق الإسلامية وأتباع المذاهب المختلفة، كلما كان يجلبون في جوار قبره الشريف، كانوا يُسلمون عليه، ويذرونه ﷺ كما لو أنه كان لا يزال حياً بالحياة المادية؛ كما أن جميع المذاهب والفرق الإسلامية، أعم من الشيعة والحنابلة والحنفية والمالكية والشافعية، كلهم، يوجبون في التسليم عند نهاية كل صلاة أن يُقال: «السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(٧)، فهم يتوجهون إليه ﷺ ويَجْعَلُونَهُ طرفاً في الخطاب؛ ومن الواضح: أن الذي يُخاطَبُ بالتحيّة والسلام، لا يكون إلا حاضراً لدى المُخاطَب، ومُشافهاً له، على وجهٍ يسمع كلامه، ولذا نجد أن الآية المتقدمة تُقرأ في زيارة النبي الأعظم ﷺ الواردة من طرق السنّة والشيعة معاً، ووفقاً لها، فهو ﷺ يكون المُخاطَب، والذي يُطلَبُ منه الشّفاة.

وكما جاء في روايات ومصادر أهل البيت ﷺ، نرى الجزيري مثلاً، في الزيارة التي ينقلها، يُورد هذه الآية المباركة، وبعد ذكره لأعمال زيارة النبي ﷺ والتوجه للذهاب إلى الرّوضة الشريفة، وصلاة ركعتين قرب أسطوانة التوبة، يقول: «ثم يأتي المنبر، فيضع يده على الرّمانة التي كان ﷺ يضع يده عليها إذا خطب، لتناله بركة الرسول..»^(٨).

هذا كلّه، مع صرّف النظر عن الأدلة العامّة والقطعية التي تحدّث عن زيارة القبور واستحبابها وفضيلتها^(٩)، والتي وقعت مورداً للاتفاق بين جميع المذاهب الإسلامية، وإلاّ، فإنّ هذه الأدلة العامّة هي أيضاً تُشكّل دليلاً آخر على أن حياة الإنسان لا تنتهي بموته الدنيوي، بل لها استمرارية وبقاء، وليست زوالاً للإنسان ولا فناء.

وخلاصة القول: أن الآية المتقدمة مسوقة لبيان قضية حقيقيّة وحُكْمٍ كليّ عام، وهي تكفّل بيان ما لزيارة النبي الأعظم ﷺ في جميع العصور والأزمنة من استحبابٍ وفضيلةٍ وأهميّة.

وفي آخر المطاف نقول: بحسب ما جاء في تفسير آل البيت عليه السلام للآيات القرآنية المباركة، فكما أن القرآن الكريم قد جعل طاعة النبي صلى الله عليه وآله والانقياد لأوامره طاعة لله تعالى، وكما أنه قد عدّ البيعة له صلى الله عليه وآله بيعة لله تعالى، فإن زيارته صلى الله عليه وآله، هي في حُكم زيارة الله تعالى نفسه.

فقد نقل الصدوق عليه السلام في كتاب التوحيد بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: «قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، مَا تَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يُرْوَاهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الصَّلْتِ، إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةَ اللَّهِ، وَمَتَابَعَتَهُ وَزِيَارَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ زِيَارَتَهُ، فَقَالَ: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَقَالَ: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي فَقَدْ زَارَ اللَّهَ، وَدَرَجَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، فَمَنْ زَارَهُ إِلَى دَرَجَتِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» الحديث ^(١).

٢) الروايات من مصادر الفريقين

من الجيد أن يكون واضحاً وجلياً لمن ليس له اطلاع واسع على روايات وأحاديث الفريقين، أن الروايات المرتبطة بزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وفضيلتها وأهميتها، كثيرة جداً، بل تبلغ حدّ التواتر، فإذا أردنا استقصاء هذه الروايات في المجامع الحديثية والروائية الشيعية فقط، فإنها من الكثرة والوفرة بمكان، لدرجة أن استقصاءها وتتبعها، لو حده، من شأنه أن يتسع لينتج كتاباً.

فابن قولويه رحمه الله مثلاً، في كتابه القيم والنفيس: كامل الزيارات، يُخصّص أكثر من بابٍ واحدٍ منه، لينقل العشرات من هذه الروايات ^(١١)، وهي في عددٍ كبيرٍ منها متقاربة المضامين، وفيها: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ: «مَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي كَانَ فِي جَوَارِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وَأَنَّ زِيَارَتَهُ صلى الله عليه وآله هِيَ مِنْ مَوْجِبَاتِ نَيْلِ شَفَاعَتِهِ وَشَهَادَتِهِ وَجَوَارِهِ صلى الله عليه وآله، وَأَنَّ فَضِيلَةَ زِيَارَتِهِ تُعَادِلُ فَضِيلَةَ أَدَاءِ الْحَجِّ مَعَ رَسُولِ

الله ﷺ، وأنّ زيارته ﷺ هي بمنزلة زيارة الله في عرشه.

وكذا الحرّ العامليّ، فإنه نقل في ستة أبواب من أبواب المزار العشرات من الروايات التي تتحدّث عن فضل زيارة النبيّ ﷺ وكيفيّتها، وخاصّة بعد أداء مناسك الحجّ. وهو عنّون الباب الثالث من أبواب المزار بهذا العنوان: «باب تأكّد استحباب زيارة قبر رسول الله ﷺ، وإجبار الواليّ للناس عليها، ووجوبها كفاية كلّ سنة»^(١٢). وعلى الرّغم من أنّ الروايات التي أوردها في هذا الباب لا تتعرّض صراحة لإجبار الواليّ للناس على زيارته ﷺ، إلّا أنّه في الباب الخامس من أبواب وجوب الحجّ، نقل رواية جاء فيها: أنّ لإمام المسلمين إجبارهم على الحجّ وزيارة النبيّ ﷺ، وعُلِّل ذلك في بعض الروايات، بأنّ ترك زيارته ﷺ يُعدّ جفاءً له؛ وهو ما أكّد عليه جملة من الفقهاء، كالشهيد الأوّل، الذي يقول - ما مضمونه -: لو ترك النّاس زيارة النبيّ الأعظم ﷺ، فيجب على إمام المسلمين إجبارهم على الذهاب إليه بقصد الزيارة، لأنّ تركها موجبٌ لمجاфاته ﷺ، وهي محرّمة^(١٣).

والروايات المنقولة في المجمع الروائيّة الشيعيّة في فضيلة زيارة النبيّ ﷺ واستحبابها، هي بهذا المضمون، أو قريبة منه، وكذا الكثير من الروايات المنقولة من طريق أهل السنّة؛ ولأنّها كثيرة جدّاً، بحيث تبلغ حدّ الاستفاضة، بل التواتر، فلا حاجة إلى البحث فيها من الناحية السنّديّة، ولا إلى التدقيق في رجال أسانيدها.

وقد أحصى العلامة الأمينيّ أكثر من أربعين مصدراً من مصادر أهل السنّة نقلت هذه الروايات، نذكر هنا نبذة عنها:

أ. رواية: «مَنْ زار قبري وجبت له شفاعتي»، منقولة في واحدٍ وأربعين مصدراً.

ب. رواية: «مَنْ جاعني زائراً لا تعمله إلّا زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً

يوم القيامة»، منقولة في ستة عشر مصدراً.

ج. رواية: «مَنْ حَجَّ فزار قبري بعد وفاتي كان كَمَنْ زارني في حياتي»، منقولة في خمسة وعشرين مصدراً.

د. رواية: «مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي». في تسعة مصادر.

هـ. رواية: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي»، نقلها من ثلاثة عشر مصدراً.

و. رواية: «مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً»، نُقِلَتْ في واحدٍ وعشرين مصدراً، بألفاظٍ متقاربة.

ز. رواية: «مَنْ زَارَنِي مِتّاً فَكَأَنَّمَا زَارَنِي حَيّاً وَمَنْ زَارَ قَبْرِي وَجِبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي لَهُ سَعَةٌ ثُمَّ لَمْ يَزُرْنِي فَلَيْسَ لَهُ عَذْرٌ»، في ستة مصادر. ومُضافاً إلى هذه الروايات السبع، فقد نقل عليه السلام خمس عشرة رواية أخرى، ليكون مجموع ما ذكره من مصادر أهل السنة اثنتين وعشرين رواية.

وقد قام جماعة من علماء أهل السنة بجمع هذه الروايات وتحقيق أسانيدھا ووضعها في إطار الردّ على ابن تيمية وأمثاله، والذي - كما سيأتي - أفتى بحُرْمَةِ السّفر وشَدَّ الرّحال لزيارة النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله، ومن هؤلاء العلماء: تقيّ الدّين السّبكيّ الشّافعيّ (ت ٧٥١هـ) في كتاب: شفاء السّقام في زيارة خير الأنام، والسّمهوديّ (ت ٩١١هـ) في كتاب: وفاء الوفاء.

والنتيجة: أنّ زيارة النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله طُرِحَتْ في الروايات المتواترة، من طرق الشيعة والسّنة معاً، كأصلٍ مُسَلَّمٍ، وكواحد من مهمّات محاور الوحدة الإسلاميّة، وكمُنْبَعٍ نورانيٍّ أصيلٍ يُتَبَحُّ للمسلمين الاستفادة من تعاليم النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله، للوصول إلى السّعادة الدّنيويّة والأخرويّة، وكسب مكارم الأخلاق، وبناء مدينة الإسلام الفاضلة.

(٣) إجماع المذاهب الإسلاميّة

لا مجال للنقاش ولا التردد في الحُكم باستحباب زيارة النبي الأكرم ﷺ على مذهب الشيعة الإمامية؛ لأنّ هذا الحُكم موضع وفاق بينهم، وواحد من المسلّمات عندهم.

يقول المحقق الحليّ ﷺ في كتاب شرائع الإسلام: «يُسْتَحَبُّ زِيَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَاجِّ، مُسْتَحَبّاً مُؤَكَّداً» (١٤).

وقال العلامة ﷺ في التذكرة: «تُسْتَحَبُّ زِيَارَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَنْ زَارَ قَبْرِي بَعْدَ مَوْتِي كَانَ كَمَنْ هَاجَرَ إِلَيَّ فِي حَيَاتِي، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعُوا فَأَبْعَثُوا إِلَيَّ بِالسَّلَامِ، فَإِنَّهُ يُبَلِّغُنِي» (١٥).

وقال صاحب الجواهر ﷺ تعليقاً على كلام المحقق: «إجماعاً، وضرورة من الدين، ولذا يُجْبَرُ الْإِمَامُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَوْ تَرَكُوهَا» (١٦).

فباعتقاد صاحب الجواهر ﷺ، أنّ مسألة زيارة النبي ﷺ، ليست من المسائل الإجماعية فحسب، بل هي تدخل في الضروريات الدينية التي يترتب على مُنكرها حُكم مُنكر الضرورة، وهو الارتداد؛ فهي مسألة لها موقعٌ خطِرٌ ومقامٌ عالٍ، ولأجل ذلك كان وليّ المسلمين موظفاً ومكلفاً بإجبار الناس وإرغامهم على زيارته ﷺ.

وأما بنظر بقية المذاهب الإسلامية، فالحُكم باستحبابها وفضيلتها موضع وفاق بين الجميع.

وقد خصّص تقيّ الدين السبكي، بعد ذكره للروايات في المسألة، باباً، أحصى فيه نصوص علماء المذاهب الأربعة من أهل السنّة، وبعّد أن ذكر أنّ استحباب زيارته ﷺ حُكمٌ إجماعيٌّ، نراه يقول: «لا حاجة إلى تتبع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه، والخفية قالوا: إنّ زيارة قبر النبي ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبات، بل يُقَرَّبُ مِنْ دَرَجَةِ الْوَاجِبَاتِ» (١٧).

وقال الجزيري أيضاً: «لا ريب في أن زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام من أعظم القرب وأجلها شأنًا» (١٨).

وفي الكافي لابن قدامة الحنبلي: «وَيُسْتَحَبُّ زِيَارَةُ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ .. لِمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ زَارَنِي أَوْ زَارَ قَبْرِي كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً» (١٩).

وقد أحصى العلامة الأميني ﷺ أكثر من أربعين نصاً من كلام أعلام المذاهب الأربعة، كلها تؤكد على استحباب وأهمية زيارة النبي ﷺ، بل وبعضها ادعى الاتفاق على ذلك.

منها ما قاله القاضي عياض المالكي (ت ٥٤٤هـ) في كتاب الشفاء: «زيارة قبره ﷺ سُنَّةٌ مُجْمَعَةٌ عَلَيْهِ»، ومنها ما قاله ابن هبيرة (ت ٥٦٠هـ) في كتاب اتفاق الأئمة: «اتَّفَقَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ زِيَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَحَبَّةٌ» (٢٠).

ومما تقدّم، نستطيع، وبوضوح، أن نقول: إن استحباب زيارة النبي الأعظم ﷺ أَضَلُّ مُسَلَّمٌ ومقبولٌ لدى جميع المذاهب الإسلامية، وأن الأعظم من فقهاء المذاهب الإسلامية كافة تلقوها بالرضا والقبول، على أساس صحيح من المدارك الفقهية والأدلة المتخذة من الكتاب والسنة، وأنها مطلبٌ إجماعيٌّ يُمكن تلقيه وتقديمه كواحدٍ من ضروريات الدين الإسلامي الحنيف.

٤) حُكْمُ الْعَقْلِ بِالاسْتِحْبَابِ

يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نُثَبِّتَ أَهَمِّيَّةَ وَفَضِيلَةَ زِيَارَةِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، أَعَمٌّ مِنَ الْمُسْتَقْلَلَاتِ أَوْ غَيْرِ الْمُسْتَقْلَلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، بَعْدَ مَلاحِظَةِ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أ. أَنَّ زِيَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ تَشَكَّلُ إِحْدَى الصَّغَرِيَّاتِ لِكُبْرَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ، الَّتِي أُقِيمَتْ عَلَى إِثْبَاتِ اسْتِحْبَابِهَا الْأَدَلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ النَّاهِضَةُ، فَيَكُونُ الْاسْتِحْبَابُ ثَابِتاً

لها عقلاً، لأنَّ انطباق الكبرى الكلّية على صغرياتها ومصاديقها إنّما هو بحُكم من العقل لا الشرع.

ب. من الأمور الفطرية والغريزية لدى البشر، بل حتّى لدى الحيوانات أيضاً، وجوب الشكر والتعظيم والامتنان تجاه الشّخص الذي يقدّم لنا خدمةً، أو يُزاحم نفسه لأجلنا بمشقة، أو يبذل لأجلنا مجهوداً ما؛ ومن هذا المنطلق، نجد أنّ الفطرة الإنسانية تحكّم بلزوم رعاية حُرمة الوالدين والأستاذ والمربي؛ وعلى هذا الأساس أيضاً، فإنّ الخدمة أو اليد البيضاء التي يقوم بها شخصٌ ما لأجلنا، كلّما ازدادت أهميّةً وخطراً، كلّما صار وجوب الامتنان والشّكر عليها أشدّ وأكّد.

ومن ثمّ كانت قاعدة وجوب شكر المُنعم عُمدة الأدلّة التي ساقها علماء الكلام في مباحث التوحيد ومعرفة الله عزّ وجلّ. ومن هنا أيضاً، نجد في الروايات قولهم: «مَنْ عَلِمَنِي حُرْفًا صَرْتُ لَهُ عَبْدًا».

نعم، فالعقل يرى ترك شكر المُنعم وعدم مكافأته ومجازاته على صنائعه وجهوده وخدماته التي أداها لنا، يرى ذلك جفاءً وظلماً، بل يتلقاه على أنّه من المصاديق البارزة للظلم، بل ومن أقبح أنواعه. والإنسان الذي يُجافي والديه مثلاً، ولا يُحترم معلّمه، ولا يُعظّم حقّ مربيّه وحُرّمته، مُستحقٌّ للؤم والتوبيخ بحُكم العقل.

وطبقاً لهذه المقدّمة، نقول: في مجال التربية والتّعليم، أين يُمكننا أن نجد معلّماً ومربيّاً أعلى شأنًا وأرفع مقاماً من نبيّ الإسلام والرّحمة ﷺ؟! وهو الذي لم يتوانَ عن بذل الجُهد واستفراغ الوسع في سبيل التربية ونشر مكارم الأخلاق والشرعية الإلهية والعقائد الحقّة، إلى حدّ أن يقول فيه القرآن الكريم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢١).

أفلا يحكّم العقل بلزوم تعظيم وتكريم هذه الشخصية التّورانيّة وهذا الأب

العطوف وهذا المعلم الحريص على مصلحة البشرية جمعاء؟

لا شك في أنّ مجافاته وعدم احترامه ﷺ هي في نظر العقل خطيئة كبرى ومعصية لا تُغتفر، مما يعني: أنّ رعاية حقّه واحترامه ﷺ واجب وفريضة، لا على المسلمين فقط، بل على جميع أبناء البشر.

كما لا شك، في أنّ الذهاب لزيارته ﷺ وتبجيل مرقده المبارك وتكريمه - الموجب لإعادة إحياء آثاره إلى القلوب والحفاظ على وهج حياته مُشتعلاً وخفّاقاً - هو من المصاديق البارزة والواضحة لهذا التعظيم الواجب بحُكم العقل. وفي المقابل، لا شك في أنّ نسيانه وإغفال أمره وحياته وآثاره ﷺ وإخراج ذكره من القلوب، يُعدّ من المصاديق البارزة للجفاء وعدم تعظيمه واحترامه ﷺ.

ومن هذا المنطلق، جاء التعبير في بعض الروايات المتقدمة على لسان النبي ﷺ: بأنّ الشخص الذي يحجّ البيت ولا يزورني، فقد جافاني، أي: أنّ ترك زيارته ﷺ من مصاديق إهمال حقّه وحرمته، وهو جدير بأن يُعدّ من مظاهر توجيه الظلم إلى ساحته المقدسة ﷺ.

ج. إنّ زيارة الرسول الأكرم ﷺ ومشاهدة آثار النبوة والوحي، هي، دون شك، من أفضل مصاديق التذكّر والموعظة، كما أنّ زيارة الصريح الثوريّ لذلك العظيم ذي الهمّة العالية، تدعو الإنسان وتحثّه على أن لا يَبخل بأيّ عطاءٍ يُمكن له أن يُقدّمه في مسيرة قبول الحقّ وخلوده وصموده واستمراره، وأنّ يُكمل هذه المسيرة دونما تخوّفٍ أو خشية من لوم اللّائمين، بل يحتسب كلّ جهوده وتضحياته في هذا السبيل، ويشتري بها السعادة في الدنيا والآخرة، وينال البُعد عن الشيطان وهوى النّفس؛ ومن هنا، فإنّ زيارته ﷺ تُعدّ من أهمّ الطرق والوسائل المقرّبة من الحقّ تبارك وتعالى.

وفي هذا المضمون، يقول الجزيريّ ما لفظه:

«ومما لا خفاء فيه: أنَّ زيارة قبر المصطفى ﷺ تُفعل في نفوس أولي الألباب أكثر مما تفعله أيّ عبادةٍ أُخرى، فالذي يقف على قبر المصطفى، ذاكرًا ما لاقاه ﷺ في سبيل الدُّعوة إلى الله، وإخراج الناس من ظلمات الشُّرك إلى نور الهداية، وما بثّه من مكارم الأخلاق في العالم أجمع، وما محاه من فسادٍ عامٍّ شامل، وما جاء به من شريعةٍ مبنيةٍ على جلب المصالح للمجتمع الإنسانيّ وذرء المفساد عنه، لا بدّ أن يمتلئ قلبه حبًّا لذلك الرسول الذي جاهد في الله حقَّ جهاده، ولا بدّ أن يُحبب إليه العمل بكلّ ما جاء به، ولا بدّ أن يستحيي من معصية الله ورسوله، وذلك هو الفوز العظيم» (٢٢).

٥) زيارة النبي ﷺ وسيرة العقلاء

من السَّير العقلائية التي تواجدت دائماً على امتداد التاريخ الإنسانيّ، حتّى كأنّها التحمّص مع عمر البشر، السيرة القائمة على تأدية الاحترام والتبجيل والتكريم للأشخاص الذين قدّموا للبشرية خدمةً في آيةٍ ناحيةٍ من نواحي الحياة؛ فإنّ إهمال ونسيان الأفراد الذين قاموا بأعمالٍ مفيدةٍ ونافعةٍ للحياة الإنسانية، يُعدّ، في المنظور العقلائيّ، خطيئةً لا تُغتفر، ومعصيةً لا يُتجاوز عنها؛ ولذلك لا نكاد نجد أمةً لا يشعر أفرادها بالدين تجاه عظمائهم، والمبدعين منهم، وصانعي أمجادهم، في المجالات المختلفة، العلميّة أو الثقافيّة أو السياسيّة أو العسكريّة أو الرياضيّة أو الفنيّة، أو غير ذلك، ولا أن يُهمّلوا ذكر هؤلاء العظماء ولا أن يتناسوا ذكرهم.

وهذه النظرة العقلائية، نظرةٌ وُجِدَتْ دائماً في المجتمعات البشريّة، ولا نزال حتّى الآن شاهدين على وجودها وبقائها. فلذلك، لا نتردّد في القول: بأنّ هذه السيرة، وهذا الدّين، كان على مرأىٍ ومسمعٍ من الشارع المقدّس، وهذه الظاهرة لم تكن مواجهة الشارع المقدّس لها منحصرةً في عدم النهي والرّدع عنها فحسب، بل على العكس من ذلك، نجد منه الترغيب فيها، والتشويق إليها،

بالوسائل والمصاديق والأمثلة والأشكال المختلفة.

ومن هذه المصاديق، بل ومن أبرزها، تكريم الشهداء الذي سقطوا على طريق الحق، وتخليد أسمائهم وذكرهم، وكذا الأولياء والأنبياء الربّانيين، وعلى رأسهم وفي مقدّمتهم خاتم الأنبياء ﷺ.

ومن المصاديق البارزة لهذا التعظيم والتكريم والتخليد، والتي لها رواج بين العقلاء أيضاً، زيارة قبور هؤلاء العظماء لغرض تبجيلهم وإظهار الوفاء تجاه القليل من أنعابهم وزحماتهم والمشقات التي تحمّلوها من أجل هذه الأمة، بل البشرية كافة.

٦) زيارة النبي ﷺ في سيرة المسلمين

كما مرّ معنا عند الحديث عن آية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، فإنّ سيرة المسلمين قامت، ومنذ ارتحال رسول الله ﷺ، على الإقدام والإسراع، وبكلّ هفوة وشوق، إلى زيارته ﷺ والتسليم عليه وأداء مظاهر التبجيل والاحترام له ﷺ، وهي سيرة مستمرة وجارية، على امتداد تاريخ الحجيج ومعتري البيت العتيق، فإنّهم لا يكتفون بزيارة مكّة المكرمة (زادها الله شرفاً)، بل يروّون عليهم لزماً أن يُعَرّجوا على زيارة قبر نبيهم ﷺ في المدينة المنورة، وهم بهذه الوسيلة، مساهمون بإحياء آثار النبوّة والرّسالة.

وعلى الرّغم من قدّم هذه السيرة، ومعاصرتها للأئمّة من أهل البيت ﷺ، وكونها على مرأى منهم، ومن الصّحابة والتابعين وفقهاء المذاهب المختلفة، فإنّه لم يصلنا أبداً، ولو لمرة واحدة، أنّ واحداً منهم قد نهى عن القيام بهذا العمل، أو أنّه منع بعض المسلمين منه، بل على العكس من ذلك، فإنّنا نجد أنّ شغلة هذا العمل، كانت، كلّما أوغلنا في التاريخ أكثر، كلّما ازدادت وهجاً واشتعالاً ودفعاً وإشراقاً.

المحور الثاني: ابن تيميّة وتحريمه السّفر بقصد زيارته ﷺ

تمهيد:

على الرّغم من جميع الأدلة الكثيرة والمتواترة التي تقدّمت الإشارة إليها في المحور السابق، والتي تُثبت قطعياً بل ضرورة استحباب زيارة النبي الأعظم ﷺ إثباتاً يقينياً وأكيداً لا يُفسح معه مجالاً للشك في ثبوته، مُضافاً إلى انعقاد الإجماع من قِبَل أصحاب المذاهب الإسلامية كافة، على الرّغم من ذلك كله، فقد كان ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) هو الشخص الوحيد الذي أصرّ على مخالفة هذا الحكم، حيثُ أعلن أنّ السفر بقصد زيارة النبي الأكرم ﷺ محرّم، وأنّه من مصاديق سفر المعصية، الذي يجب على المسافر فيه إتمام صلاته ولا يجوز له أن يُقصر فيها.

ومع أنّ هذه الفتوى لابن تيمية، هي الفتوى الوحيدة والشاذة والمخالفة لإجماع المسلمين - كما هي الحال في كثير من أفكاره وعقائده -، ومع أنّ العلماء المعاصرين له قد تصدّوا، ومنذ ذلك الوقت، لإعلان مخالفتهم ورفضهم الشّديد لهذه الأفكار الحادة المتطرّفة والمنحرفة، حتّى أنّهم قاموا بتأليف الكتب الكثيرة التي حرّروا فيها أجوبتهم وردودهم على شبهاته وأفكاره الباطلة، إلّا أنّه مع ذلك، وبعد عدّة قرونٍ، أُعيدَ نفّض الغبار عن فتاوى ابن تيمية، على يد محمّد بن عبد الوهاب (ت ١١٥٥هـ)، وبالاقتراح مع قيام الفرقة المنسوبة إليه: (الوهابية)، بالسيطرة على بعض البُلدان والمناطق الإسلامية، فكان من جرّاء ذلك أنّ عادت هذه الفتوى، إلى الرّواج والشيوع والانتشار فيما بين علماء هذه الفرقة وأتباعها^(٢٣).

وفي هذا المحور، ستعرّض أولاً لنقل قسمٍ من كلمات ابن تيمية وأتباعه، وفيما بعد، ننتقل لنرى مُستندهم وأدلتهم، وفي المقام الثالث نشير إلى ما يمكن أن يتوجّه إلى هذه الأدلة من انتقادات وردود.

(١) فتوى ابن تيمية وأتباعه

يَعْتَقِدُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَأْنِ فَضِيلَةِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ ﷺ ضَعِيفَةٌ، بَلْ مُوَضَّوعَةٌ، وَهِيَ، بِنَظَرِهِ، لَمْ تُسَلِّمْ مِنْ عَيْثُ يَدُ الْجَعْلِ وَمَسَاسِهَا بِهَا (٢٤).

وَيَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَيْضًا: «تُسَنُّ زِيَارَةُ النَّبِيِّ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُشَدُّ الرَّحْلُ إِلَّا لَزِيَارَةِ الْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ» (٢٥)، وَبَيَانٌ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْمَضْمُونِ يَرَى عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ بَازٍ أَنَّ «الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، فَكُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، بَلْ قِيلَ: إِنَّهَا مُوَضَّوعَةٌ... يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِلصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، بَلْ يُسْتَحَبُّ... وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ قُبُورٍ أُخْرَى» (٢٦).

٢) مُسْتَنْدَ هَذِهِ الْفَتْوَى

لَمْ يَكْتَفِ الْوَهَّابِيَّةُ بِجَعْلِ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِي بَابِ زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ ضَعِيفَةً مَجْعُولَةً، بَلْ إِنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِالْإثْبَاتِ حُرْمَةِ السَّفَرِ بِقَصْدِ زِيَارَتِهِ ﷺ بِرِوَايَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفِي هَذَا الْمَجَالِ، يَقُولُ ابْنُ بَازٍ:

«لَا يَجُوزُ لَهُ [أَي: لِلْمُسْلِمِ] أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ قُبُورٍ أُخْرَى، لِمَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ» (٢٧).

٣) تَمْحِصُ هَذَا الْمُسْتَنْدَ

إِنَّ الْقَوْلَ بِضَعْفِ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ أَوْ مَجْعُولِيَّتِهَا، هُوَ، دُونَ شَكٍّ، كَلَامٌ غَيْرُ صَحِيحٍ وَغَيْرُ مَقْبُولٍ، وَذَلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ فِي الْمَحُورِ الْأَوَّلِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فِي أَدَلَّةِ اسْتِحْبَابِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ ﷺ، مِنْ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ هِيَ:

أَوَّلًا: مَنْقُولَةٌ فِي الْجَوَامِعِ الْحَدِيثِيَّةِ وَالرِّوَايَةِ، الشَّيْعِيَّةِ وَالسُّنِّيَّةِ، بِنَسْبَةٍ كَبِيرَةٍ

جداً بالغية حدّ التواتر.

وثانياً: أننا لو تتبعنا كلمات بعض أعلام أهل السنة، وبنينا على مبانيهم الرجالية، لوجدنا أن قسماً من هذه الروايات خالي من الإشكال السندي.
وثالثاً: أن استحباب زيارته ﷺ ثابت بإجماع علماء المسلمين، وهو ثابت أو مؤيدٌ بأدلة كثيرة أخرى، كالقرآن الكريم والسيرة.

وأما رواية: «لا تُشدّ الرحال»، فمع أنها منقولة في صحاح أهل السنة وسننهم المعتبرة، وبعد الإغماض عمّن هو راويها، وهو أبو هريرة، فإنّ المهم فيها، إنّما هو البحث في جانبها الدلالي لا السندي، وأنها هل تدلّ على حرمة السفر بقصد زيارة النبي ﷺ، كما تخيّل أبو تيمية وأتباعه، أم لا دلالة فيها على ذلك أصلاً؟؟

وفي مقام الجواب، نقول:

إنّ هذه الرواية قد اشتملت على جملة استثنائية، وهي: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد». وفهم هذه الجملة الاستثنائية يبتني على نقطتين: الأولى: تعيين وتشخيص المُستثنى منه، والثانية: معنى (لا) في عبارة: (لا تُشدّ).
أما بالنسبة للنقطة الأولى، ففيها احتمالان:
الاحتمال الأول:

أن يكون المُستثنى منه هو (مكان من الأمكنة)، فيُصبح معنى الجملة المتقدمة هكذا: لا تُشدّ الرحال إلى مكانٍ من الأمكنة إلا ثلاثة مساجد.
وهذا الاحتمال المبني على الأخذ بعموم الكلام وتوسيع دائرة المُستثنى منه، احتمالٌ خاطئٌ قطعاً، والحمل عليه غير ممكن؛ لأنّ لازم الأخذ به أن تحرم الأسفار جميعاً، إلّا ما كان منها باتجاه المساجد الثلاثة، وهذا ما لا يُمكن الالتزام به، كيف؟ والحال أن أكثر الأسفار محكومة بالإباحة، وكثيراً منها بالاستحباب، بل منها ما يكون واجباً، كالسفر لأجل الجهاد أو طلب العلوم والمعارف

الدَّيْنِيَّة، أو زيارة الوالدَيْن، أو غير ذلك.. ممَّا ليس غير محكوم بالحُرْمَة فحسب، بل يكون مأموراً به ومتّصفاً بالمحبوبية شرعاً في الكتاب والسنة.

وعلى هذا، فالسّفر إلى هذه المساجد الثلاثة ليس جائزاً وغير محرّم فحسب، بل قد تبيّن أنّه لا يُمكن حَمْلُ النَّهْي عنه على الكراهة أو على الإرشادية، ولا أن يُقال: إنّ السّفر إلى أمكنة أُخرى غير المساجد الثلاثة مكروه أو أنّ الأفضل تركه، وذلك لأنّ السّفر إلى العديد من الأمكنة قد يتّصف بالوجوب أو الاستحباب، أو على الأقلّ بالإباحة. فهذا الاحتمال إذن غير صحيح.

والاحتمال الثاني:

أن يكون المُسْتَنْبَى منه: (مسجد من المساجد)، أي: لا تُشَدّ الرّحال إلى مسجدٍ من المساجد إلّا إلى ثلاثة مساجد.

وبناءً على هذا الاحتمال، فإنّ شدّ الرّحال لزيارة قبر النَّبِيِّ ﷺ سوف لن يكون محرّماً، لأنّ قبره ﷺ ليس مسجداً، والمنهْي عنه إنّها هو شدّ الرّحال لزيارة مسجدٍ غير الثلاثة.

وبعد ثبوت بُطلان الاحتمال الأوّل، تعيّن الاحتمال الثاني قطعاً، إذ أولاً: لا احتمال ثالث في البين، فبطلان أحدهما موجبٌ لصحّة الآخر؛ وثانياً: لأنّ الاحتمال الثاني موافقٌ لما هو الظاهر من الاستثناء في الجملة المذكورة.

ولكن، حتّى على هذا الاحتمال، فإنّ النَّهْي في قوله: (لا تُشَدّ)، لا يُمكن حَمْلُه على النَّهْي التحريمي أيضاً، وأنّ شدّ الرّحال إلى غير هذه الثلاثة من المساجد يكون حراماً، لأنّ نفس النَّبِيِّ الأعظم ﷺ كان كثيراً ما يذهب إلى مسجد قبا. بل النَّهْي حينئذٍ من جهة أنّ شدّ الرّحال إلى غير هذه الثلاثة عناءٌ لا فائدة تُرجى منه، لأنّ ثواب المساجد واحدٌ، ولا تفاوت بينها من حيث الفضل، لكي يتكبّد الإنسان عناء السّفر ومشقّته؛ وعليه: فيكون النَّهْي نهياً إرشادياً.

وعلى آية حال، فبمقتضى الاحتمال الثاني، الذي هو الاحتمال الصّحيح

والمتعين في الرواية، فإن شدّ الرّحال إلى المساجد الأخرى وقع مؤزداً ومتعلّقاً
للنّهي، دون شدّ الرّحال لزيارة قبر النّبي ﷺ، فإنّه ليس مسجداً.

وكما يقول الغزالي - ما ترجمته -: «السفر العبادي مستحب، ومن مجملته: السفر
لزيارة قبور الأنبياء والصّحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء»، ثمّ يشير في سياق
حديثه هذا إلى رواية: «لا تُشدّ الرّحال»، فيقول: «هذا الحديث لا يتنافى ولا
يتعارض مع التّبويّ: «لا تُشدّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد»، لأنّ التّبويّ مرتبطٌ
بالمساجد، والمساجد كلّها لما كانت متساوية من حيث الفضيلة، فلا ترجيح للسفر إلى
إحداها على السفر إلى آخر، باستثناء هذه المساجد الثلاثة، التي لا إشكال في السفر
إليها لخصوصيّتها؛ وهذه المسألة أمرٌ والسفر لزيارة قبور أولياء الله أمرٌ آخر» (٢٨).

المحور الثالث: الأبعاد السّياسيّة لزيارة النّبي ﷺ

تقدّم أنّ زيارة النّبي ﷺ من العبادات والمستحبّات المؤكّدة، فيكون تحصيل
ثوابها ودرك فضيلتها رهناً بالإتيان بها بقصد القربة وبنية خالصة؛ هذا من
النّاحية الفرديّة والعباديّة لهذه العبادة العظيمة.

ولكنّ هذه العبادة، وكثير من العبادات الإسلاميّة، كالحجّ وصلاة الجمعة
والعيدين والجماعة، لها ارتباط وثيقّ بالأمر السّياسيّة والاجتماعيّة، وليست
مُنحصرة في الإطار الفرديّ الضيّق، وهو أمرٌ يُمكننا مشاهدته، وبوضوح، في
الروايات، كما في كلمات عددٍ كبير من الفقهاء، التي نستطيع من خلالها أن
نرسم خطوط أبعادها الفقهيّة السّياسيّة، ونستعين لذلك بالنّقاط التالية:

١) إجبار النّاس على زيارته ﷺ

ورد في رواية مُعتبرة، عن محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه عن حفص بن
البخري وهشام بن سالم ومعاوية بن عمّار وغيرهم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:
«لو أنّ النّاس تركوا الحجّ لكان على الوالي أن يُجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، ولو

تركوا زيارة النبي ﷺ لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين».

هذه الرواية نقلها، مضافاً إلى الشيخ الصدوق رحمه الله، كل من الشيخ والكليني رحمه الله، وهي من ناحية السند صحيحة أو موثقة، ولا مجال للخدشة فيها من هذه الجهة (٢٩).

وقد تكفلت هذه الرواية بتحديد ثلاث وظائف ومهام أساسية لإمام المسلمين ولدولة الإسلام ككل، هي:

أ. بعث الناس وإرسالهم وإجبارهم على التوجه لزيارته ﷺ فيما لو لم يكن عدد كاف من الزوار يؤدون هذا الحق فعلاً، أو يتطوعون للقيام به، أو لا يملكون الإمكانيات المادية اللازمة لذلك.

ب. لو خلت الأطراف المجاورة لمركده الشريف ﷺ من السكنى، وتخوف الحاكم من ملء الأعداء وأهل السوء لهذه الأطراف، وجب عليه وعلى الدولة الإسلامية أن تجبر عدداً من الناس على المكوث والسكن هناك، بشكل دائم، أو على سبيل البدل، وأن يقوموا بحراسة القبر الشريف، ويحافظوا على رونقه وتألقه.

ج. لو لم يكن للناس من أموالهم وثرواتهم ومدخراتهم ما يكفي لتحقيق هذا الهدف العظيم والمقدس، فإن هذا يعدّ واحداً من المصارف الجائرة والمشروعة من بيت المال ومن الأموال العامة للمسلمين، وعلى الدولة الإسلامية أيضاً أن تقوم بتأمين مصاريف ونفقات السفر لبعضهم للسفر إلى تلك الأمكنة المباركة. وهذا البحث واحد من المحاور السياسية المهمة لزيارة النبي الأكرم ﷺ، وهو يحتاج إلى تفصيل وإشباع أكثر، وخاصة من ناحية أبعاده الفقهية، وكيف يُفتي الفقهاء استناداً إلى هذه الرواية بوجوب إجبار الناس عليها، كصاحب الجواهر، الذي يقول: «يجبر الإمام الناس عليها لو تركوها» (٣٠)، وهذا البحث،

وإن لم يكن محلّه هنا، إلّا أنّنا، على وجه الإجمال، نستطيع أن نلاحظ، وبوضوح، الارتباط العميق والوثيق لزيارة النبي ﷺ بوصفها أمراً عبادياً مع سياسة الحكومة الإسلامية ووظائفها.

٢) أمير الحاج وزيارة النبي الأعظم ﷺ

من الأمور الأخرى التي تبيّن لنا الأبعاد السياسية لزيارة النبي ﷺ هي وظيفة أمير الحاج فيها يتعلّق بهذا الشأن - وأمير الحاج هو إمام المسلمين، وهو المعصوم عليه السلام أو الفقيه النائب عنه، أو من أمره أحدهما على الحاج -.

يقول الشهيد الأول عليه السلام عند شرحه للوظائف الخمس عشرة التي لأمر الحاج: «وأن يسير بهم إلى زيارة النبي والأئمة الطاهرين، ويُمهلهم بالمدينة بقدر أداء مناسك الزيارات والتوديع وقضاء حاجاتهم» (٣١).

وهذا الأمر ليس مُختصّاً بفقه أهل البيت عليه السلام، بل إنّ فقهاء أهل السنة أيضاً ذكروا هذه الفتوى وهذه الوظيفة عند تعدادهم لوظائف أمير الحاج والمتصدّي لولاية الحاج؛

يقول القاضي أبو يعلى الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ) في كتاب: الأحكام السلطانية، بعد ذكره عشر وظائف لأمر الحاج، وعند كلامه في الوظيفة الأخيرة: «فإنّ عاد بهم، سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ، رعايةً لحُرْمته، وقياماً بحقوق طاعته، وإن لم يكن ذلك من فروض الحج، فهو من مندوبات الشرع المُستحبّة، وعادات الحبيب المُستحسنة، روى عمر أنّ النبي ﷺ قال: مَنْ زار قبري وجبت له شفاعتي» (٣٢).

وقد أشار في عبارته القيمة هذه إلى استحباب زيارة النبي ﷺ استناداً إلى الرواية، منبهاً على فلسفتها والحكمة منها، وهي رعاية حُرْمَةِ رسول الله ﷺ والقيام بأداء حقوقه التي له ﷺ على رقاب الأمة الإسلامية كافّة.

نتائج البحث:

نما تقدّم في هذه المقالة، نستطيع أن نستنج الأمور التالية:

(١) أن زيارة قبر النبي ﷺ من المستحبات الأكيدة، وأن لها فضلاً كبيراً، ومدرّك هذا الحكم الفقهي هي الأدلة القطعية والجلية من الكتاب والسنة والإجماع والعقل والسيرة.

(٢) أن استحباب زيارة خاتم النبيين ﷺ ليس مختصاً باتباع مذهب أهل البيت عليه السلام، بل إجماع المذاهب الإسلامية وروايات الفريقين قائمان عليه، وهو لذلك يُعدّ من ضروريات الدين.

(٣) أن الفتوى المنحرفة التي أدلى بها ابن تيمية وأتباعه، والقاضية بتحريم شدّ الرحال بقصد زيارة قبر رسول الله الأعظم ﷺ، فتوى بلا دليل مُعتبر، ولذلك فليس لها قيمة علمية لدى علماء الفريقين كافة، بل هذه الفتوى عندهم، هي في بعض الموارد، من الفتوى بترك الواجب وإنكار ضروريّ الدين الموجب للارتداد.

(٤) أن زيارة النبي ﷺ في الحقيقة، نعمة وموهبة إلهية كبرى من شأنها أن تُضيء مسيرة المسلمين في مختلف الأقطار والبقاع، وعليهم أن يستلهموا منها للتمسك بوحدتهم والمحاربة لأجل التعاليم الإلهية التي جاء بها نبيّنا الأعظم ﷺ، إمام الرحمة والهداية، فإنه بهذا وحده، يستطيع المسلمون أن يضمّنوا الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، وأن يتغلّبوا على أعدائهم المحدثين بهم وبدينهم شراً.

(٥) أن زيارته ﷺ لها بُعد مهم من ناحية الفقه السياسي الإسلامي، ولذلك نجد أن على الحكومة الإسلامية أن تُحافظ على رونق مكان ضريحه ﷺ، ومن وظائفها أن تُلزم الناس وتُجبرهم على التوجّه لزيارته ﷺ، ولو اقتضى الأمر الصّرف من بيت المال لوجب، مضافاً إلى المهمات السياسية والمذهبية لأمر الحاج، الذي عليه أن يسير بالحجّاج إلى مدينته ﷺ ويُمهلهم لأداء مناسك

الزيارة والتسليم، كخطوة بسيطة في سبيل أداء القليل القليل من الديون التي
لنبيِّنا الأعظم ﷺ، معلّم البشرية، على الأمة والبشر أجمعين..

* * *

الهوامش :

- (١) النساء: ٦٤.
- (٢) الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ٣٤٩-٣٥٢.
- (٣) ... ج ١، ٣٥٢-٣٦٨؛ الأسفار الأربعة، صدر المتألفين: ٩: ٧٨-١١٩، الباب التاسع؛ المبدأ والمعاد، ابن سينا: ٩١، المقالة الثالثة.
- (٤) مفاتيح الجنان.
- (٥) سنن أبي داود: ١: ٤٧، ٤٨، كتاب الحج، باب زيارة القبور؛ آيين وهايت، جعفر سبحاني: ١١٦.
- (٦) وفاء الوفاء، سمهودي: ٤: ١٣٦١، آئين وهايت: ١٦٦، ١٦٧.
- (٧) الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرّحمن الجزيري: ١: ٢٠٥، ٢٠٦؛ العروة الوثقى، السيّد كاظم الطّباطبائيّ اليزدي: ١: ٦٨٩-٦٩٣.
- (٨) الفقه على المذاهب الأربعة: ١: ٦٠٠.
- (٩) المصدر المذكور: ٤٥٧، ٤٥٨.
- (١٠) التوحيد، الصّدوق: ١١٧، وسائل الشيعة: ١٤: ٣٢٥، الباب ٢ من أبواب المزار، ح ١١.
- (١١) كامل الزيارات: ٦-١٥.
- (١٢) وسائل الشيعة: ١٤: ٣٣٢.
- (١٣) مفاتيح الجنان، فضيلة زيارة الرّسول الأكرم ﷺ.
- (١٤) شرائع الإسلام: ٢: ٢٧٨.
- (١٥) تذكرة الفقهاء: ٨: ٤٤٩، ٤٥٠.
- (١٦) جواهر الكلام: ٢٠: ٧٩، ٨٠.

- (١٧) شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٤٤٨؛ والغدير في الكتاب والسنة والأدب: ٥: ١١٢، ١١٣.
- (١٨) الفقه على المذاهب الأربعة: ١: ٥٩٤.
- (١٩) المصادر الفقهية: ١١: ١٠٥٦، ١٠٥٧.
- (٢٠) الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ٥: ١٠٩ - ١٢٥.
- (٢١) الشعراء: ٣.
- (٢٢) الفقه على المذاهب الأربعة: ١: ٥٩٧، ٥٩٨.
- (٢٣) لمزيد من الاطلاع، راجع: الغدير: ٥: ٨٦ - ٩٣؛ آئين وهاييت: ٢٥ - ٣٥؛ شيعة شناسى وپاسخ به شبهات، علي أصغر رضواني: ٢: ٢٩٣ - ٣٠٠.
- (٢٤) منهاج السنة: ٢: ٤٤١؛ التوسل والوسيلة: ٧٢، ١٥٦؛ شيعة شناسى وپاسخ به شبهات: ٢: ٢٩٣، ٢٩٤.
- (٢٥) الهدية السننية، الرسالة الثانية، آئين وهاييت: ١٢٢.
- (٢٦) فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة: ١٨٢ - ١٨٥.
- (٢٧) فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة: ١٨٥، ١٨٦.
- (٢٨) البدعة، عبد الملك سعدى: ٦٠؛ آئين وهاييت: ١٢٢ - ١٢٦؛ شيعة شناسى وپاسخ به شبهات: ٢: ٣٠٦، ٣٠٧؛ إحياء علوم الدين: ٢: ٢٤٧، كتاب آداب السفر.
- (٢٩) وسائل الشيعة: ١١: ٢٤، الباب ٥ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، ح ٢.
- (٣٠) جواهر الكلام: ٢: ٧٩، ٨٠.
- (٣١) الدروس الشرعية: ١: ٤٩٥، ٤٩٦.
- (٣٢) الأحكام السلطانية: ١٠٨ - ١١١.

البشارة بخاتم النبیین

في التّوراة والإنجيل

□ الاستاذ علي الشيخ (*)

من الأمور المهمة التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تعتبر تحدياً كبيراً لأهل الكتاب، هي أنّ التّوراة والإنجيل كانت قد بشرت بالنبيّ الخاتم ﷺ، وهذا التّحدي جاء به النبيّ ﷺ في الكتاب الإلهي المنزل، واليهود والنصارى يعيشون بين ظهرائه، ومع ذلك فلم ينقل لنا التاريخ أنّ أحداً من علماء اليهود والنصارى احتجّ على النبيّ ﷺ بأنّه ليس هناك في التّوراة والإنجيل بشارة به، بل التزموا الصّمت حيال هذا التّحدي، ولو كانوا يعلمون بأنّ التّوراة والإنجيل بين أيديهم لم تبشّر به ﷺ لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ولرأيتهم في كل مجلسٍ ومحفليّ يطلون دعوى كون النبيّ الخاتم ﷺ قد بشّر به في التّوراة والإنجيل.

فالقرآن الكريم يشير إلى أنّ أهل الكتاب يعرفون النبيّ الخاتم ﷺ من خلال الأوصاف والعلامات الموجودة في كتبهم، وذلك في آيات عديدة منها:

١- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

(*) مسيحي كاثوليكي اعتنق الدين الإسلامي، من العراق.

يَا مُرْهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١﴾
 ٢- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

٣- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ (٣).

والباحث في التاريخ يجد أن الكثير من علماء أهل الكتاب - ولا سيما من النصارى - بعدما أدركوا النبي ﷺ، أو سمعوا بدعوته ورسالته آمنوا به، واعتنقوا الإسلام؛ معرفتهم بأنه النبي المنتظر في آخر الزمان، وقصة بحيرا الراهب، وسلمان الفارسي والمئات من بعدهم تؤيد هذا المدعى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْكَبُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين ﴿٤﴾.

وسنقسم البحث إلى قسمين:

الأول: البشارة بالنبي ﷺ في التوراة.

والثاني: البشارة به ﷺ في الإنجيل.

وقبل الشروع في البحث أرى لزاماً عليّ أن أقدم نبذة مختصرة عن الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ليتضح البحث بصورة أجلي، حيث إنه يتكون من قسمين: العهد القديم والعهد الجديد، ولسنا هنا بصدد البحث عن هذه الأسفار بشكل مفصل، ولكن نذكر عنها شيئاً على وجه الإجمال.

العهد القديم: هو العهد الذي قطعه الله مع إبراهيم، وبعده مع موسى ﷺ، ويتألف العهد القديم من (٣٩) سفرًا أو (٤٣ - ٤٤) سفرًا حسب الكنائس في المسيحية، وذلك بإضافة أسفار أو أجزاء أسفار وصفت (بالقانونية اللاحقة)، وهو ما يرفضه اليهود (٥).

ويقسمون أسفار العهد القديم إلى ثلاثة أقسام، وهي: التَّوراة أو الشريعة المنسوبة إلى موسى ﷺ، الأنبياء، وهم الأولون والمتأخرون، ثُمَّ الكتب^(٦).
العهد الجديد: هو العهد الذي بدأ مع ظهور المسيح ﷺ باعتباره الفادي والمخلص. وأَنَّهُ يتألف من (٢٧) سفرًا، هي: الأناجيل الأربعة المعروفة (متى، ومرقس ولوقا، ويوحنا)، وأعمال الرُّسل، والبقية رسائل بولس وبطرس ويعقوب ويهوذا ويحنا، ورؤيا يوحنا.
وبعد وضوح هذه المقدمة نرجع إلى صلب الموضوع.

الأول: البشارة بالنبي ﷺ في التَّوراة

وأما البشارات بالنبي الخاتم ﷺ في التَّوراة فإنها كثيرة، نكتفي بذكر بعض النصوص منها:

النص الأول: لقد ذكرت قصة النبي إبراهيم ﷺ في التَّوراة بشكل مفصل، فبعد ما بلغ إبراهيم من الكبر عتياً، وهو فاقدٌ للذرية جرى هذا الحوار بينه وبين الله تعالى، كما ينقل لنا ذلك سفر التكوين حيث يقول الله لإبراهيم ﷺ:

«لا تخف يا إبراهيم إِنَّا ترُسُّ لك، أَجرك كثير جداً، فقال إبراهيم أَيها السَّيِّد الرب! ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً، ومالك بيتي هو وارث لي، فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك، ثم أخرجته إلى الخارج، وقال: انظر إلى السماء، وعدِّ النجوم إِن استطعت أَنْ تعدّها، وقال: كذا يكون نسلك، فأمن بالرب، فحسبه له برّاً»^(٧).

وقد وهب له الله من هاجر - جارية زوجته سارة - إِسْمَاعِيل، وهو الابن البكر لإبراهيم حسب التَّوراة، وبعد ثلاثة عشر عاماً رزقه الله ابنه الثاني إِسْحَاق من زوجته الأولى سارة.

وتنقل التَّوراة قصة الاختبار الإلهي لإبراهيم ﷺ، وتضحيته بابنه، وبعد

نجاحه في هذا الامتحان وعده الله تبارك وتعالى، وقال له:

«بذاتي أقسمت، يقول الرب، إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك الوحيد، أباركك مباركة، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض»^(٨).

وبعد ما أنجبت سارة ابنها إسحاق، أرادت أن يستأثر بالبركة من أبيه إبراهيم دون إسماعيل؛ لأنه ابن هاجر الجارية. وقد وعد الله أن يبارك إسحاق، ويجعل من نسله ملوكاً ورؤساء وأنبياء، ولأنَّ إسماعيل هو الابن الأكبر طلب إبراهيم من الله أن يبارك إسماعيل أيضاً، فخطب الله قائلاً: «ليست إسماعيل يعيش أمامك»^(٩)، فاستجاب الله لإبراهيم وقال له: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يولد، وأجعله أمة كبيرة»^(١٠). فقد وعد الله لإبراهيم ^{عليه السلام} أنه سيبارك إسماعيل بركات ثلاث هي:

- أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً.

- يلد اثني عشر رئيساً.

- أجعله أمة كبيرة.

والظاهر من البركات الثلاث ولا سيما الأخيرة، أنَّ الأمة العظيمة التي وعد الله إبراهيم حينما قال الله مخاطباً لنبيه إبراهيم في التَّوراة:

«أذهب من أرضك، ومن عشيرتك... فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك... وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»^(١١).

هي من نسل ابنه إسماعيل، وهذا ما تؤكد التَّوراة التي بين أيدينا اليوم؛ إذ لم تذكر التَّوراة إطلاقاً بأنَّ الله سيجعل من إسحاق أمة عظيمة، بل قال سبحانه: «بإسحاق يدعى لك نسل»^(١٢). بينما تؤكد التَّوراة في ثلاثة مواضع بأنَّ الله تبارك وتعالى سيجعل من إسماعيل أمة عظيمة وهي:

- جاء في التوراة: «ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احمل الغلام، وشدي يدك به؛ لأني سأجعله أمة عظيمة»^(١٣).

- وجاء أيضاً: «وأما إسماعيل، فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه، وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة»^(١٤).

- وجاء أيضاً: «لأنه بإسحق يدعى لك نسل، وابن الجارية أيضاً، سأجعله أمة؛ لأنه نسلك»^(١٥).

وهذا يؤكد بدون أدنى شك بأن المراد من الأمة العظيمة هي الأمة الإسلامية؛ لأن النبي الخاتم ﷺ من نسل إسماعيل، في حين موسى وعيسى عليهما السلام من نسل إسحاق، لا إسماعيل^(١٦). وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم - أيضاً - كما في قوله تعالى:

﴿وَأَذِذْ فِرْعَوْنَ أَهْلِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ . . . * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ . . .﴾^(١٧).

فالبشارة بالنبي الخاتم ﷺ في هذا النص واضحة وجليّة، ولا تقبل التأويل إطلاقاً، فلم نسمع بأمة عظيمة من نسل إسماعيل عليه السلام إلا أمة النبي الخاتم ﷺ.

النص الثاني: جاء في سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام ما هذا نصه:

«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون»^(١٨).

ويكرّره بعد ذلك حيث يقول:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلمة ما أوصيه به، ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي، أنا أطالبه»^(١٩).

فهذه البشارة على لسان النبي موسى عليه السلام واضحة في أن الله تبارك وتعالى

يُبَشِّرُ بني إسرائيل بظهور نبيٍّ من إخوة بني إسرائيل، لا يتكلم إلا بما يوحي له، ويكون هذا النبي مثل موسى عليه السلام.

وقد فسّر علماء الكتاب المقدس من النصارى هذه البشارة بعيسى المسيح عليه السلام، وقالوا بأنّ المبشّر به في هذه الآية هو عيسى، لا نبيٍّ آخر، ولكن مع الدقّة في النصّ يتّضح بطلان ما ذهب إليه النصارى في تفسير هذه الآية، ويمكن الإشارة إلى بعض النقاط في هذه البشارة التي تؤيد بأنّ المبشّر به هو نبي آخر غير عيسى عليه السلام، وذلك من خلال مقطعين أساسيين:

الأول: «من وسط إخوتهم».

الثاني: «مثلك».

الأول: لقد بَشَّرَ موسى عليه السلام بهذا النبيّ عند مخاطبته الأسباط الإثني عشر الإسرائيليين، فالخطاب بالحقيقة موجّه إلى بني إسرائيل، فمن غير المعقول أن يُدعى بأنّ هذه العبارة «من وسط إخوتهم» تعني من قبائل بني إسرائيل؛ إذ أنّه لو كان كذلك لوجب أن يقول لهم: «من وسطهم»، ولذلك فإنّ النبيّ المبشّر به لن يكون أبداً من صلب إسرائيل، فـ«إخوتهم» هنا تعني بني إِسْمَاعِيل؛ لأنّ إِسْمَاعِيل هو أخٌ لإسحاق والد إسرائيل (يعقوب) (٢٠).

ولقائل أن يقول: إنّ المراد من «إخوتهم» هم بنو عيسو أخي يعقوب، وليس بني إِسْمَاعِيل أخي إسحاق، ولكن من المسلّم به لدى اليهود والنصارى أنّه ليس هناك أي نبي من ذرية عيسو، ولم يفسّر أحدٌ من علماء الكتاب المقدس هذا النصّ بأنّ المراد منه بنو عيسو.

ولذلك فإنّ ما ذهب إليه النصارى من تفسيرهم لهذا النصّ بأنّ المراد منه البشارة بعيسى غير صحيح إطلاقاً؛ لأنّ المسيح - كما يعترفون - ينسب من ناحية أمّه إلى بني إسرائيل، ومن ناحية أبيه - كما يدعون - فهو ابن الله - والعياذ بالله - فلا يبقى إلا القول بأنّ النبيّ المبشّر به في هذه الفقرة هو النبيّ الخاتم صلوات الله عليه.

الثاني: قوله: «مثلك»، وهذا الوصف - أيضاً - لا يمكن أن ينطبق على عيسى عليه السلام للأسباب التالية:

أ- عيسى عليه السلام حسب اعتقاد النصارى هو ابن الله، بل الله المتجسد، بينما موسى عليه السلام كان عبداً ورسولاً.

ب- عيسى عليه السلام كما يدّعي النصارى صُلب على خشبة، ومات ودفن ورفع إلى السماء، في حين موسى عليه السلام لم يصلب، ولم يرفع إلى السماء، بل مات موتاً طبيعياً، ودفن في أرض موآب، كما تنقل التّوراة.

ج - كانت فترة دعوة عيسى عليه السلام ثلاث سنوات فقط (٣٠ - ٣٣)، وهذا ما أجمعت عليه الكنائس المسيحية المختلفة، في حين أنّ بعثة موسى عليه السلام تجاوزت الأربعين سنة، ولهذا فإنّ عيسى لم يأت بشريعة جديدة أبداً، بل شريعته كما يدّعي المسيحيون اليوم اقتضرت على الوصايا الأدبية والأخلاقية، في حين شريعة موسى عليه السلام شريعة متكاملة من جميع الجوانب العبادية، وكذلك المعاملات والديّات والمحرمات وغيرها.

د- أنّ عيسى عليه السلام لم يتزوج قط، في حين أنّ موسى عليه السلام تزوّج، وله ذرية كما تصرّح بذلك التّوراة.

وهناك قرائن أخرى كثيرة كلّها تؤكد أنّ عيسى عليه السلام ليس مثل موسى عليه السلام، في حين نجد العكس من ذلك بالنسبة لخاتم الأنبياء عليه السلام، فهو يشبه موسى إلى حدّ كبير؛ إذ أنّه صاحب شريعة متكاملة، وهو عبد الله ورسوله، لا ابن الله، أو الله المتجسد، ورسول الله مات، ولم يصلب، ولم يرفع إلى السماء. وتزوّد له ذرية، ومولود من والدين كموسى^(٢١)، وغيرها من وجوه الشّبه الأخرى الكثيرة التي تؤيد أنّ النّبي الذي بشّر به موسى عليه السلام، والذي هو من ذرية إسماعيل هو النّبي الخاتم عليه السلام، وهناك آية قرآنية تؤيد ظاهراً هذه المثلية بين النّبي الخاتم عليه السلام وموسى عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا

أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿٢٢﴾.

النَّصُّ الثالث: وهو - أيضاً - بشارة من الكليم موسى ﷺ؛ حيث جاء في التَّوراة قوله ﷺ:

«جاء الرَّبُّ من سيناء، وأشرق عليهم من سعير، وتلألأ من جبال فاران، حيث خرج وسط عشرة آلاف قديس؛ لتشع من يمينه أنوار الشريعة... إِنَّه يجب - أيضاً - جميع الشعوب، جميع هؤلاء القديسين هم في يدك، وهم جالسون عند قدميك يتلقَّون أقوالك» (٢٣).

فهذا النص واضحٌ في أنَّ موسى ﷺ يتحدَّث عن ثلاثة أماكن مباركة، سيكون فيها نبيٌ ووحى إلهي، وهذه الأماكن هي:

أ- سيناء ب- سعير ج- جبل فاران.

فسيناء كنايةٌ عن الجبل الذي كلَّم الله موسى ﷺ فوقه وأنزل عليه التَّوراة، وسعير كنايةٌ عن الأرض المباركة التي ولد فيها عيسى ﷺ، وتلقَّى عليها الإنجيل، وفاران كنايةٌ عن الأرض التي سكنها جدُّ رسول الله ﷺ إسماعيل ﷺ، وأرسل منها النَّبيُّ الخاتم ﷺ وأنزل عليه القرآن (٢٤).

وهناك نصٌّ قرآنيٌّ يطابق تقريباً هذا النَّصَّ التوراتي، وهو قوله تعالى:

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٢٥).

إذ أقسم الله تعالى في سورة التين ببقاع مباركة ثلاث بشكل مجازي، فالتين والزيتون كنايةٌ عن أرض فلسطين المباركة التي أرسل منها عيسى، وطور سينين هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى ﷺ، والبلد الأمين مكة المكرمة، التي ولد وبعث فيها خاتم النَّبيِّين ﷺ (٢٦).

فهذه بشارةٌ واضحةٌ من موسى ﷺ بالنَّبيِّ الخاتم ﷺ، وفيها - أيضاً - أوصافٌ لهذا النَّبيِّ، فهو صاحب شريعة عالمية متكاملة، وهو يحب جميع الشعوب، فهو رحمةٌ لهذه الشعوب وبركة، وهذا ما أكَّد عليه القرآن الكريم في

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧).

النص الرابع: وهي البشارة التي جاءت على لسان النبي أشعيا، وكما يعتقد علماء الكتاب المقدس فإن أشعيا عاش في القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد^(٢٨)، وقد ذكر هذا النبي في سفره المسمى باسمه في الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا حالياً ما نصّه:

«هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرّرت به نفسي، وضعت روحي عليه، وسُيخرج الحق للأمم،... لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، فلتنتظر الجزائر شريعته، هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها، باسط الأرض وما يخرج منها، معطي نسمة للناس عليها، وروحاً للساكنين فيها. أنا الرب، دعوتك بالحق، سأخذ بيدك وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعب، ونوراً للأمم... لترفع الصحراء ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيذار، لتترنم سكان سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا... يخرى خزيّاً المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتنّ آلهتنا... أيكون الضالّ مثل عبدي، والأصم كرسولي الذي أرسله؟ أيكون الأعمى كالكمال، والضال كعبد الله؟!... الرب قد سرّ من أجل صدقه، يعظم الشريعة ويكرمها...» (٢٩).

وهذه البشارة للنبي أشعيا لا تنطبق إلّا على خاتم الأنبياء؛ وذلك لأمر عديده موجودة في هذه النص نشير إلى بعضها:

(أ) أنّ التاريخ لم يذكر لنا أنّ نبياً مرسلأ جاء بشريعة متكاملة إلى جميع الشعوب سوى النبي الخاتم ﷺ، وما يدعيه النصارى من أنّ هذه البشارة تنطبق على عيسى عليه السلام دعوى مجانبة للحق؛ إذ أنّ أوّل كلمة في البشارة هي: «هوذا عبدي»، فالنبي المبشّر به عبدٌ لله، فهل يرضى النصارى أن يكون عيسى عبد الله فقط؟ مضافاً إلى أنّ شريعة عيسى عليه السلام لم تكن إلى كلّ الأمم، بل اقتصرّت على خراف بني إسرائيل، كما صرّح هو نفسه بذلك حيث قال: «لم أرسل إلّا إلى

خراف بني إسرائيل الضالة» (٣٠)، بل أمر الحواريين والتلاميذ بأن لا يبلّغوا تعاليمه إلا لبني إسرائيل، حيث قال: «إلى طريق الامم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (٣١). في حين أن النبي الخاتم ﷺ - كما يؤكد القرآن الكريم في العديد من آياته -

كانت رسالته إلى جميع الأمم والبشر، ومن تلك الآيات الكريمة:
— قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

— قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٣٣).
— قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٤).

ب) من خلال النص القائل: «سأخذ بيدك وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعوب، ونوراً للأمم»، الذي أوردناه في بداية البشارة، يتضح أن هذا المبشر به سوف يؤيد وينصر من قبل الله تعالى، وسيحفظه من كيد الأعداء وخدعهم، وهذا لا ينطبق على عيسى عليه السلام أبداً؛ إذ أن الأنجيل التي بين أيدينا تصرّح بأن الله ترك (ابنه الوحيد) عيسى ليصلب على الخشبة، وقد عاتب المسيح عليه السلام الله على ذلك كما ينقل ذلك إنجيل متى، حيث خاطب المسيح الله تعالى معاتباً إياه: «إيلي، إيلي، لما شنتني؟! أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني» (٣٥). وهذا يدلّ بوضوح على أن الله تبارك وتعالى - والعاذ بالله - خذل المسيح ولم ينصره أبداً، بل سلّمه إلى أعداءه، فصلبوه. وعلى العكس من ذلك بالنسبة لخاتم النبيين ﷺ، فهو كان مؤيداً ومنصوراً من قبل الله تعالى، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في الكثير من آياته، ومنها:

— قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٦).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ (٣٧).

وغيرها من الآيات القرآنية الكثيرة التي تؤيد بأن الله تبارك وتعالى نصر نبيه الخاتم في مواطن كثيرة، وأنقذه من كيد أعدائه.

ج) وهناك تصريح آخر في النص لا يحتمل التأويل أبداً، فالبشارة تحدد مهبط الوحي، ومكان بعثة هذا النبي المبشر به، فالبشارة تؤكد: «لترفع الصحراء وقرأها صوتهما، الديار التي سكنها قيدار» وقيدار هذا هو ابن إسماعيل عليه السلام، كما جاء ذلك في التوراة في سفر التكوين (٢٥: ١٣)، الديار التي سكنها هي بطحاء مكة (وادي مكة) وما حولها، حيث كان يسكن أبوه إسماعيل عليه السلام، فهذا أمر لا يقبل الشك والترديد. وأيضاً كلمة (سالع) التي وردت في البشارة، فجبل سالع أو (سلع) موجود حتى اليوم وبهذا الاسم قرب المدينة المنورة الذي قال فيه ذريح أحد أصحاب النبي ﷺ:

لعمرك إنني لأحب سلعاً لرؤيته ومن بجنوب سلع (٣٨)

وجاء في معجم البلدان تعليقاً عن هذه المفردة:

«سلع: سلع شقوق في الجبال... وسلع: جبل بسوق المدينة وقال الازهري: موضع بقرب المدينة» (٣٩).

وهذا يؤكد لنا - أيضاً - بأن البشارة التي جاء بها أشعياء كانت بالنبي الخاتم ﷺ؛ لما أوضحناه.

وأكتفي بهذا المقدار من البشارات التي جاءت في العهد القديم حول سيد المرسلين ﷺ اختصاراً للبحث، وسأتطرق إلى البشارة به في العهد الجديد، وهو القسم الثاني من الكتاب المقدس لدى النصارى.

الثاني: البشارة بالنبي ﷺ في الإنجيل

إن القرآن الكريم أكد على أن المسيح عليه السلام قد بشر بالنبي محمد ﷺ، ويمكن

إثبات هذه الحقيقة حتى في الأناجيل (العهد الجديد) المتداولة بين أيدينا الآن، وبالخصوص من إنجيل يوحنا، وإليك عزيزي القارئ بعض النصوص من إنجيل يوحنا بهذا الخصوص:

(١) النص الأول: يقول يوحنا في إنجيله «إذا كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكُم معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد» (يوحنا: ١٤: ١٥ - ١٦).

(٢) النص الثاني: «وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم».

(٣) النص الثالث: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم - أيضاً -؛ لأنكم معي من الابتداء».

(٤) النص الرابع: «لكني أقول لكم الحق، إنه خيرٌ لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكني إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية، وعلى بر، وعلى دينونة».

(٥) النص الخامس: «وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية...».

وهذه النصوص كلها تشير إلى الاسم الصريح للنبي مُحَمَّد ﷺ، وقد استدلل على ذلك مؤلف كتاب (أنيس الأعلام في نصرة الإسلام) (٤٠) وأثبت أنَّ النصوص الآتفة الذكر من إنجيل يوحنا كلها تشير إليه، ولكن علماء الكتاب المقدس ومفسريه هم الذين حَرَّفوا معنى هذه الكلمة، ونذكر هنا استدلاله باختصار، فنقول:

وجه الاستدلال يتوقف على بيان نكته، وهي أنَّ المسيح ﷺ كان يتكلم

بالعبرية ويحسن الآرامية، وكانت العبرية هي اللغة السائدة في فلسطين، وكان يعظ تلاميذه بها؛ لأنه ولد وشب بين ظهرانهم هذا من جانب، ومن جانب آخر أن المؤرخين أجمعوا على أن الأناجيل الثلاثة (لوقا، مرقس، يوحنا) كتبت من أول يومها باللغة اليونانية، وأما إنجيل متى فكان عبرياً من أول إنشائه، وترجم بعد ذلك إلى اليونانية، ولا وجود للنسخة العبرية الآن.

وعلى هذا فالمسيح ﷺ بشر بالنبي ﷺ باللغة العبرية، أو الآرامية، وإنما نقله إلى اليونانية كاتب الإنجيل الرابع (يوحنا)، وكان عليه التحفظ على لفظ المسيح؛ لأن القاعدة الصحيحة تقتضي عدم تغيير الأعلام والإتيان بنصها الأصلي، لا ترجمة معناها. ولكن يوحنا لم يراع هذا الأصل، وترجمه إلى اليونانية فضاع لفظه الأصلي الذي تكلم به المسيح ﷺ، وفي أثر ذلك حصل الاختلاف في المراد منه، وأما اللفظ اليوناني الذي وضعه الكاتب يوحنا مكان اللفظ العبري فهو مررد بين كونه (پاراقليطوس، paracletos) الذي هو بمعنى المعزي والمسلي والمعين، أو (پريقليطوس، pericletos) الذي هو بمعنى المحمود، الذي يرادف أحمد.

ولأجل تقارب الكلمتين في الكتابة والتلفظ والسمع، حصل التردد في المبشر به، ومفسرو ومترجمو إنجيل يوحنا، يضررون على الأول، ولأجل ذلك ترجموه إلى العربية بالمعزي، وإلى اللغات الأخرى بما يعادله ويرادفه، وادّعوا أن المراد منه هو روح القدس، وأنه نزل على الحواريين في اليوم الخمسين بعد فقدان المسيح ﷺ، ويسمونه (يوم العنصرة) (٤١).

ولكن القرائن الكثيرة كلها تأبى هذا التفسير لهذه الكلمة بالمعزي، بل كون معناها المحمود أقرب إلى الظاهر، وإليك بعض القرائن على ذلك، كما ينقلها الأستاذ العلامة السبباني:

١ - أنه وصف المبشر به بلفظ (آخر) وأنا أطلب من الأب، فيعطيك معزياً

آخر، وهذا لا يناسب كون المبشّر به نظير روح القدس؛ لعدم تعدده، وانحصاره في واحد، بخلاف الأنبياء فإنهم يجيئون واحداً بعد الآخر.

٢ - أنه ينعت ذلك المبشّر به بقوله: «ليمكث معكم إلى الأبد»، وهذا يناسب نبوة النبي الخاتم التي لا تنسخ.

٣ - أنه يقول: «وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم»، وهذه الجملة تناسب أن يكون المبشّر به نبياً يأتي بعد فترة من رسالة النبي السابق، بعد أن تصير الشريعة السابقة على وشك الاضمحلال والاندثار، فيأتي النبي اللاحق يذكر بالمنسي، وأما لو كان المراد هو الروح القدس فقد نزل على الحواريين بعد خمسين يوماً من فقد المسيح عليه السلام، حسب ما ينص عليه كتاب أعمال الرسل (١: ٥، ٢: ١ - ٤)، أفيُظن أن الحواريين نسوا في هذه المدة اليسيرة معالم المسيح عليه السلام وتعاليمه حتى يكون النازل هو الموعود به؟!.

٤ - أنه يقول: «لأنه إن لم انطلق، لا يأتيكم المعزي، ولكن أن ذهبت أرسله إليكم»، وهذا يناسب أن يكون المبشّر به نبياً؛ حيث علّق مجيئه بذهابه؛ لأنه جاء بشريعة عالمية، ولا تصح سيادة شريعتين مختلفتين على أمة واحدة في وقت واحد، ولو كان المبشّر به هو روح القدس، لما كان لهذا التعليق معنى؛ لأنّ روح القدس - حسب تصريح إنجيلي متى ولوقا - نزل على الحواريين عندما بعثهم المسيح عليه السلام للتبشير والتبليغ (أنظر متى: ١٠ - ١١) (لو: ١٠ - ١١).

٥ - ويقول: «ومتى جاء ذاك يبكس العالم على خطية، وعلى بر، وعلى دينونة...»، وهذا يؤيد أن يكون المبشّر به نبياً؛ إذ لو كان المراد هو روح القدس، فهو نزل في يوم الدار على الحواريين حسب زعمهم، فما وبخ اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً؛ لعدم رؤيتهم إياه. ولم يوبخ الحواريين؛ لأنهم كانوا مؤمنين به.

٦ - ويقول: «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا

يتكلّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلّم به، ويخبركم بأمر آتية»، وهذا يتناسب مع كون المبشّر به نبياً خاتماً، صاحب شريعة متكاملة، لا يتكلّم إلا بما يوحى إليه، وهذه كلها صفات الرسول الأكرم مُحَمَّد ﷺ (٤٢).

وأكتفي بهذه القرائن على أَنَّ المحققين قد ذكروا قرائن أخرى كثيرة تثبت أَنَّ المراد من المبشّر به هو النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ، ومن أراد التوسع فليطالع كتبهم (٤٣).

وختاماً لهذا المختصر أنقل قصة ذكرها مؤلف كتاب أنيس الأعلام في نصرة الإسلام بهذا الخصوص تنمة للفائدة، يقول المؤلف:

«مؤلف هذا الكتاب أباً عن جدٍّ من أكابر القساوسة المسيحيين، وولادتي كانت في أرومية في إيران، وتعلّمت العلوم الدينية عند العلماء والمعلمين النَّصَارَى، ومن جهلتهم الأب يوحنا بكير، والقس يوحنا جان، وغيرهم من فرقة البروتستانت. ومن فرقة الكاثوليك الأب (تالو) والقس (كوركز)، وغيرهم من المعلمين التّاركين للدنيا.

وفي سن الثانية عشرة أكملت الدراسة الأولية، وتخرجت بدرجة قسيس، وبعد ذلك أحببت التّوسع في البحث عن العقائد والملل المختلفة، ولا سيما المذاهب المسيحية، وطفّت البلدان الكثيرة من أجل العلم إلى أن انتهى بي المطاف عند عظيم القساوسة، المطران صاحب المقام الرفيع في فرقة الكاثوليك، وكان صاحب منزلةٍ وشأنٍ عظيم، ومشهوراً في ذلك المذهب بعلمه وتقواه وزهده، بحيث أَنَّ الملوك والسلاطين والأشراف والرعية من فرقة الكاثوليك كانوا يلجئون إليه في سؤالاتهم الدينية، وينهلون منه معالم دينهم، ويبعثون إليه بالهدايا الكثيرة، ويتشرفون بالتبرك به.

وقد تعلّمت الأصول والعقائد للمذاهب المختلفة عند هذا العالم الجليل، وكان يحضر درس هذا الأستاذ - أيضاً - الكثير من التلاميذ، وكان يصل عدداً تقريباً إلى خمسمائة تلميذ، وبيننا الكثير من الأخوات التاركات للدنيا الراهبات.

وكانت لي مع العالم علاقة خاصة؛ إذ كان له أنس ومحبّة واهتمامٌ خاص بي، ولهذا فقد سلّمني مفاتيح المدرسة (المسكن والمخزن وغيرها) كلها باستثناء مفتاح غرفةٍ صغيرةٍ خاصة به، وكنت أظنّ أنّ فيها أمواله الشخصية، ولذا كنت أحدث نفسي وأقول إنّ هذا العالم الجليل الزاهد في الظاهر لعلّه من أهل الدنيا، وإنّه ترك الدنيا للدنيا.

وامتدت مدّة دراستي عنده إلى السنة الثامنة عشرة تقريباً، وفي أحد الأيام نزل بالمطران الكبير مرّضٌ أقعده عن الدرس في ذلك اليوم، وأمرني أن أبلّغ التلاميذ بأنّه لا يستطيع حضور الدرس؛ لأنّ مزاجه لا يساعد على التدريس، وفعلاً خرجت إلى التلاميذ لإبلاغهم أمر الأستاذ، فرأيت التلاميذ مجتمعين يتباحثون في مسألة علمية، وكان حديثهم يدور حول كلمة (فارقليطا) في السرياني، و (بيرقليطوس) باليوناني، الذي ذكرها (يوحنا) في إنجيله نقلاً عن المسيح عليه السلام. وكثر الجدل والنقاش حول هذه الكلمة، واختلفت الآراء في معنى هذه الكلمة، وانتهى النقاش، وانصرف التلاميذ دون الوصول إلى نتيجة.

وبعدها رجعت إلى غرفة المطران الأعظم فسألني: يا بني، عند غيابي اليوم بأي موضوع تباحثتم؟ فذكرت له أنّ التلاميذ اختلفوا في معنى كلمة (فارقليطا) وأوضحت له الآراء التي طرحها التلاميذ في هذه المسألة. فسألني: وما كان رأيك في هذه الكلمة؟ فأجبت بأنني قد اخترت قول المفسّر الفلاني. فقال لي: لست مقصراً، ولكن الحقّ خلاف هذه الأقوال جميعاً؛ لأنّه لا يعرف معنى تفسير هذا الاسم الشريف في زماننا إلا القليل من الراسخين في العلم، فدنوت منه وجلست عند قدميه، واستعطفته قائلاً: أيها الأب الأعظم، إنك تعلم شدة تعصبي للمسيحية، وأني قد صرفت عمري من أوله إلى الآن في طلب العلم وتحصيله، فماذا يحدث لو تفضل وتلطّف عليّ، وتوضّح لي معنى هذا الاسم الشريف.

فرأيت عينيه اغرورقتا بالدموع، وأجهش الشيخ بالبكاء، وقال : يا بني إنَّك والله أعزَّ الناس عندي، ولك منزلة خاصة، ومع أنَّ هذا الاسم الشريف له فائدة عظيمة، ولكن بمجرد انتشار هذا المعنى فإنَّ المسيحيين سوف يقتلوننا معاً، إلا أن تعاهدني الله على أنَّك لا تفشي هذا السر في حياتي، ولا تذكر اسمي بعد مماتي أيضاً؛ لأنَّ المسيحيين إن علموا أنَّ هذا التفسير أنا الذي كشفته فإنهم سيخرجونني من قبري ويحرقونني.

فأغلظت له الأيمان بالله العظيم القاهر الغالب، وبحقَّ عيسى ومريم عليهما السلام، وبحق كل الأنبياء والإنجيل، بأني سوف لن أبوح بهذا السر عنك أبداً، ولا أذكر اسمك في الحياة وبعد الممات. فاطمأن لي، وقال: يا بني، إنَّ هذا الاسم هو من الأسماء المباركة لنبي المسلمين صلى الله عليه وسلم، وهو بمعنى أحمد ومحمود، ومن ثمَّ ناولني مفتاح تلك الغرفة الصغيرة، وقال افتح الصندوق الفلاني ستجد الكتاب الفلاني والفلاني، فأتني بهما، فذهبت وجئته بالكتابين، وكانا باليوناني والسراني، ومكتوبان على جلدٍ قديم، وقد ترجم لفظ (فارقليطا) فيهما بمعنى أحمد ومحمد فقال لي: اعلم يا بني، أنَّ العلماء والمترجمين المسيحيين قبل ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم لم يكونوا مختلفين في معنى (أحمد ومحمد)، ولكن بعد ظهوره فإنَّ العلماء والقساوسة الكبار حرّفوا كل الكتب والتراجم التي تفسر هذه الكلمة إلى هذا المعنى، من أجل حفظ رئاستهم ومنافعهم الدنيوية، وأيضاً حسداً وعناداً وتكبّراً، وابتدعوا معنى جديداً لهذا الاسم الشريف، وهذا المعنى الجديد لم يكن أبداً المقصود لكاتب الإنجيل، ويمكن بسهولة ومن خلال ترتيب ونسق الآيات الموجودة حالياً في إنجيل يوحنا، معرفة المعنى الحقيقي لهذا الاسم، وأنَّ معنى المسلي والمعزي والروح القدس لم يكن المقصود لكاتب الإنجيل.

لأنَّ المسيح صلى الله عليه وسلم اشترط في مجيء (فارقليطا) ذهابه ورحيله؛ لأنَّه لا يجوز اجتماع نبيين مستقلين صاحبي شريعة عامة في زمانٍ واحد، بخلاف روح

القدس الذي نزل يوم العنصرة (يوم الخمسين) بعد المسيح ﷺ؛ لأنه مع وجود عيسى والحواريين نزل الروح القدس عليه، وهو واضح في إنجيل متى (١٦: ٣) - (١٧)؛ إذ يقول: إنَّ الروح القدس نزل على المسيح ﷺ بعد تعميده من قبل يوحنا المعمدان بصورة حمامة.

وفي ختام القصة يضيف المؤلف قائلاً: فسألت الخبر الأعظم، فما المانع من قبولك للإسلام، ومتابعة سيد الأنام، مع أنك تعلم فضيلة الإسلام، وأن متابعة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هو طريق النجاة، والصراط المستقيم المؤدي إلى الله؟ فأجاب: يا بني إنِّي قد اطلعت على هذه الحقيقة في أواخر عمري، وأنا شيخ كبير السن، وفي الحقيقة إنِّي لا أستطيع ترك هذه الرئاسة العظيمة، والعزة والشأن والمقام الرفيع بين النَّصارى، ولكني في الباطن مسلمٌ، وبحسب الظاهر نصراني، وإذا ما أعلنت إسلامي فإثمهم سوف يقتلونني....

فقلت له: إذن هل تأمرني أن أعتنق الإسلام؟ فقال إن أردت النجاة يجب عليك قبول دين الحق، ولأنك شاب في مقتبل العمر عسى أن يهين لك الله سبحانه أسباب الحياة الدنيوية أيضاً، وإنِّي سوف أكثر الدعاء لك، على أنِّي أشهدك يوم القيامة بأنِّي باطناً من المسلمين، والتابعين لسيد المرسلين مُحَمَّدٍ ﷺ. واعلم أنَّ أغلب العلماء والقساوسة الكبار في باطنهم لهم نفس حالتي، ولكنهم لا يستطيعون ترك الرئاسة الدنيوية، وإلا فليس هناك أي شك وشبهة في أنَّ الإسلام اليوم هو دين الله على الأرض» (٤٤).

وينقل مؤلف كتاب قصص الأنبياء المرحوم عبد الوهاب النجار حول هذه البشارة بخاتم الأنبياء ﷺ في إنجيل يوحنا:

«كنت في سنة ١٨٩٣ ميلادية طالباً بدار العلوم في السنة الأولى، وكان يجلس بجاني - في درس اللغة العربية - العلامة الكبير الدكتور كارلو نلنيو المستشرق الطلياني، وكان يحضر درس اللغة العربية بتوصية من الحكومة الإيطالية، فانعقدت أواصر الصلوة المتينة بيني وبينه، ... وفي ليلة السابع والعشرين من

شهر رجب سنة ١٣٦١ خرجنا بعد المحاضرة، وسرنا في درب الجمايز، فقال لي الدكتور نلنيو: هذه الليلة ليلة المعراج؟ قلت: نعم. فقال: وبعد ثلاث أيام عيد السيدة زينب؟ فقلت: نعم، ثم قلت له: ما رأيك يا دكتور في المعراج؟ فقال: هو ذهاب النبي ﷺ من قلة إلى بيت المقدس ليلاً وصعوده إلى السماء، وعوده إلى قلة في ليلة واحدة. فقلت: أنا أعلم أنك تفهم هذا، ولكن الذي أريد أن أعرفه هو رأيك في هذا القول؟ هل هو صحيح أو كاذب؟ وكان الرجل مؤدباً جداً، فقال: هذا شيء عجيب! فقلت: يوجد ما هو أعجب منه؟ قال: ما هو؟ قلت: إن المسيح يصلب ويقتل ويدفن، ثم يقوم من الأموات، ويصعد إلى السماء، ويجلس على يمين الله! قال: وهذا - أيضاً - شيء عجيب، ثم قلت له - وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة -: ما معنى (بيريكلتوس)؟ فأجابني بقوله: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها المعزي. فقلت: إنني أسأل الدكتور كارلو نلنيو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً. فقال: إن معناها الذي له حمد كثير. فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم. فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد). فقال: يا أخي! أنت تحفظ كثيراً، ثم افترقنا» (٤٥).

نعم، يا عزيزي القارئ إنها الحقيقة التي لا غبار عليها، وهي واضحة وجلية لكل باحث، ولا شك ولا ريب فيها، ولكنَّ التَّعصب وحب الدنيا هي التي تمنع الإنسان من الإذعان والخضوع للحق، واعتقد أنَّ هذه الحقيقة لوحدها كافية لكل عاقل ذي لبٍّ يروم الوصول إلى الحق، ولمن يستمع القول فيتبع أحسنه، فيؤمن بأنَّ النَّبيَّ الخاتم مُحَمَّدٌ ﷺ هو النَّبيُّ المبشر به في التَّوراة والإنجيل، وهو نبي آخر الزمان. وأنَّ الإسلام هو الدين الحق.

الهوامش:

- (١) الأعراف: ١٥٧.
- (٢) البقرة: ١٤٦.
- (٣) الصف: ٦.
- (٤) المائدة: ٨٢-٨٣.
- (٥) قاموس الكتاب المقدس: ص ٧٦٣.
- (٦) نفس المصدر.
- (٧) سفر التكوين: الإصحاح ١٥: ١-٦.
- (٨) تكوين: ٢٢: ١٦-١٨.
- (٩) سفر التكوين: الإصحاح ١٧: الآية ١٨.
- (١٠) تكوين: ١٧: ٢٠.
- (١١) تكوين ١٢: ١-٣.
- (١٢) تكوين ٢١: ١٢.
- (١٣) تكوين ٢١: ١٧-١٨.
- (١٤) تكوين ١٧: ٢٠.
- (١٥) تكوين ٢١: ١٢-١٣.
- (١٦) بشارات الأسفار بمحمد وآله الأطهار، تامر مير مصطفى، ص ٦٩.
- (١٧) البقرة: ١٢٧-١٢٩.
- (١٨) سفر التثنية ١٨: ١٥.
- (١٩) التثنية ١٨: ١٨-١٩.
- (٢٠) بشارات الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ٧٨.
- (٢١) المصدر السابق.
- (٢٢) المزمّل: ١٥.
- (٢٣) سفير التثنية الإصحاح ٣٣: ٢-٣.
- (٢٤) إبراهيم خليل احمد، القسيس المصري الذي أشهر إسلامه ودافع عنه عمره، في كتابه ((محمد في التّوّارة والإنجيل والقرآن)) ص ٦٦، نقلاً عن كتاب بشارات الأسفار.

- (٢٥) التين: ١ - ٣.
- (٢٦) بشارت الأسفار بمحمد وآله الأطهار ص ٩٢.
- (٢٧) الأنبياء: ١٠٧.
- (٢٨) بشارت الأسفار ص ١٥١.
- (٢٩) سفر أشعيا: الإصحاح ٤٢: ١ - ٢٠.
- (٣٠) إنجيل متى، ١٥: ٢٤.
- (٣١) إنجيل متى، ١٠: ٥ - ٦.
- (٣٢) سبأ: ٢٨.
- (٣٣) الفرقان: ١.
- (٣٤) الأعراف: ١٥٨.
- (٣٥) إنجيل متى: الإصحاح ٢٧: ٤٦.
- (٣٦) الأنفال: ٦٢.
- (٣٧) الفتح: ٣.
- (٣٨) بشارت الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ١٦٢.
- (٣٩) معجم البلدان ٣: ١١٧ مادة سلع، نقلاً عن بشارت الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ١٦٢.
- (٤٠) مؤلف هذا الكتاب هو أحد القسيسين، وينقل في مقدمة الكتاب أنه ولد في أرومية في إيران واشتغل بطلب العلوم الدينية وكان في فرقة البروتستانت، وقام بتأليف هذا الكتاب بعد إسلامه، ولقب بفخر الإسلام، واسمه محمد صادق، وهذا الكتاب في ستة أجزاء وطبع في إيران باللغة الفارسية.
- (٤١) الإلهيات ج ٣ ص ٤٤٩.
- (٤٢) الإلهيات ج ٣ ص ٤٥٠ - ٤٥٢.
- (٤٣) من أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب أنيس الأعلام في نصره الإسلام ج ٥ ص ١٣٩ - ١٧٢.
- (٤٤) كتاب (أنيس الأعلام في نصره الإسلام) ج ١ ص ٦ - ١٩.... والكتاب كما ذكرت طبع بالفارسية وقد ترجمت من الفارسية إلى العربية - الكاتب.
- (٤٥) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٣٩٨.

النبي الأعظم ﷺ في نصوص نهج البلاغة

□ الشيخ عصري الباني / الشيخ علي محسن

ليس لأحد الحق في الكتابة عن أي موضوع كان، ولا الخوض في تفاصيله وحيثياته، إلا بعد أن يكون له معرفة وإطلاع، إلى حد مقبول، على هذه التفاصيل والحيثيات، فهذا الإطلاع هو الذي يُحوّله ويؤهّله للحديث والكلام والنقاش والأخذ والرد؛ وفي غير هذه الحالة، فالكلام والنقاش كلّ ترهات لا تتجاوز حدّ الظنّ والجهل، وهو مدموم وقبيح ومنهني عنه عقلاً وشرعاً.

وهذا - أعني: الإطلاع والمعرفة قبل الكلام والنقاش والكتابة - مسؤولية عظمى وواجب مقدّس مُلقى على عاتق كلّ مَنْ أراد الولوج إلى أبواب العلم، أو شاء أن يكون له موطئ قدم في صرحه العالي.. وهو واجب إنساني، قبل أن يكون واجباً شرعياً..

وتشتدّ هذا المسؤولية ويتأكد وجوبها، كلّما ازداد الموضوع المبحوث عنه أهميّة وحساسيةً وخطورةً..

ولا شك أنّ من أخطر المواضيع وأدقّها وأعظمها أهميّة وحساسيةً، المواضيع التي يكون الحديث فيها عن تاريخ العظماء والشخصيات التي كان لها أثرها على التاريخ الإنسانيّ، وسيرتهم، وترجمة حياتهم، وذلك لما تحتاج إليه هذه المواضيع من بذل الجُهد في التتبّع والاستقصاء، في محاولة للوصول إلى إحاطة تامة أو تكاد، بأبعاد حياة المترجم له الشّخصيّة والاجتماعيّة، وللتعرّف على آرائه ومفاهيمه ومعتقداته، في شتى المجالات الفكرية والحياتية والدينيّة، وعلى أهدافه ورؤاه والطّموحات التي كانت لديه، والأساليب التي كان يتّبعها لتحقيق ونيل هذه الأهداف والطّموحات.

وفي هذا السياق أيضاً، فالمسؤوليّة تشتدّ وتزداد وتتضاعف، كلّما ارتقت شخصيّة المترجم له وعلّت مكانتها وازدادت عظمتها، ولا سيّما إذا كانت فاعلة ومؤثّرة في حضارة البشر بشكل عامّ، دون اختصاص بزمان أو مكان أو لغة أو عرق أو...

وهذا النوع من الاطلاع والمعرفة والتتبّع والفهم الدقيق، لئن كان متوفّراً في ترجمة أيّ عظيم من العظماء، إلّا أنّه مفقود البتّة عندما نحاول التحدّث أو الكتابة عن شخص النّبيّ الأعظم ﷺ، الذي هو النموذج الإنسانيّ الذي يريده الله تعالى على هذه الأرض، وأعظم شخصيّة عرفها الوجود على الإطلاق، الأسوة، والقدوة الحسنة، والقائد، وأكمل النّاس، وأعقلهم، وأشرف الأنبياء، وسيّد البشر..

ولما كانت العادة المتبعة لدى مؤلّفي السير والتراجم عند محاولتهم للتعرف على الشّخصيّة التي هم بصدد ترجمتها، والإحاطة بأبعادها، هي اللّجوء إلى الأشخاص الذين عاصروا هذه الشّخصيّة وعاشروها وعرفوها، أو العظماء والأعلام الذين تحدّثوا عنها، وفهموا أهدافها ومراميها، وعرفوا أسلوبها وطريقة معالجتها وفهمها للأمور، فقد كان لا بدّ لنا أن نفتش عمّن يعرف

النبي ﷺ، ويُذكر كُنْهه، ويُفهم حقيقة دينه وتعاليمه، ويُحيط بأبعاد شخصيته..
وعلى الرغم من أنه قد كُتِبَ وقيل الكثير الكثير عنه ﷺ، عن حياته وعظمته
وشخصيته المباركة ودينه وتعاليمه وقرآنه، إلّا أننا كنّا، ولا نزال، نجد أنفسنا
مُلزَمين ومُضْطَرِّين إلى التغافل عن كثيرٍ ممّا قيل، وإلى التمييز بين هذه الأقوال
والكلمات وغربلتها وتنقيتها، لانتقاء الأفضل والأدق، والأقرب إلى الصواب
منها؛ فلم نجد سبيلاً للتعرف عليه، ووفقاً للحديث القائل: «يا علي، ما عرف الله
إلّا أنا وأنت، ولا عرفني إلّا الله وأنت، ولا عرفك إلّا الله وأنا»^(١)، إلّا اللجوء، أولاً
وقبل أيّ كلامٍ آخر، إلى القرآن الكريم، خزانة الوحي، والكتاب الذي جاء به
النبي ﷺ، وحاوي شريعته، ودستور أمته، ومعجزته السماوية الخالدة، لنستنير
بآياته ونستنطقها، وهي مهمةٌ ليست بالسهلة، فإنّ القرآن الكريم، هو أيضاً،
كتابٌ عظيمٌ لا يمسّه إلّا العظماء المطهَّرون، فاحتجنا إلى مَنْ يَنْطِقُ بالقرآن،
ويُفقه معانيه، ويسبر أغواره، ولنْ نجد ناطقاً بالقرآن خيراً من القرآن الناطق،
من عليٍّ عليه السلام، وهو الملاصق للنبي ﷺ منذ طفولته، والتابع له كالفصيل يتبع أثر
أمّه..

فلذلك سنتعرّض هنا لمباحث من سيرة النبي الأعظم ﷺ التي جاءت في
كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، والتي جمعها عنه الشريف الرضي رحمه الله في نهج البلاغة.

المبحث الأول: نسبه الشريف ﷺ

ليست الأنساب والانتماءات العائلية والأُسرية، أساساً للعظمة، ولا معياراً
للتفاضل، ولا سبباً للتكامل، ولكنها دون شكٍّ إحدى العناصر الدخيلة في
تكوين شخصية الإنسان وملاحمها، كما ينصّ على ذلك علماء التربية والاجتماع،
فالإنسان ابن بيئته، والبيئة الأولى له، والأكثر التصاقاً به، هي أسرته التي
احتضنته وتولّد منها، وعاش بينها؛ مضافاً إلى النصوص الإسلامية التي دلّت

على مدى تأثير طهارة المولد، والعناصر الوراثية على الشخصية ومؤهلاتها، ومدى الدور الذي تلعبه في تحديد مصيرها..

والنبي ﷺ، لما كان أكمل الناس، وسيّد الخلق، فقد كان لا بدّ للعناية الإلهية أن تلعب دورها لتجعله يتتمي إلى أكرم نسب، وأشرف محدّد؛ قال ﷺ:

«حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مُنْبِتًا، وَأَعَزَّ الْأُرُومَاتِ^(٢) مَغْرَسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ^(٣) مِنْهَا أَنْبِيََاءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْهَا أَمْنَاءَهُ، عَتَرْتَهُ^(٤) خَيْرَ الْعَتَرِ، وَأُسْرَتَهُ^(٥) خَيْرَ الْأُسَرِ، وَشَجَرَتَهُ خَيْرَ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ^(٦) فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ، وَثَمَرَةٌ لَا تَنَالُ، فَهُوَ إِمَامٌ مَنْ اتَّقَى، وَبَصِيرَةٌ مَنْ اهْتَدَى، سِرَاجٌ^(٧) لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشَهَابٌ^(٨) سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ^(٩) بَرَقَ لَمْعُهُ»^(١٠).

فدَلَّ على أَنَّ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ هُوَ سِلْسِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ ﷺ، فَيَسْتَحَقُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى النَّبَوَّةِ، ذَلِكَ الْمَنْصَبُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُلْقَاهُ إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ، وَكُنِيَ عَنْهَا - أَيْ: النَّبَوَّةُ - بِكَرَامَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ ﷺ وَذُرِّيَّتُهُ ﷺ هُمُ آلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتُهُ، وَأَنَّ آبَاءَهُ كَانُوا مَتَمَسِّكِينَ بِالْحَنِيفِيَّةِ مُسْلِمِينَ لِلَّهِ، فَكَانُوا سَادَةً لِقَوْمِهِمْ، وَأَشْرَافَ الْأُمَمِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَكَرِّ الْأَيَّامِ وَالذَّهُورِ؛ فَإِزْنُهُ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ ﷺ مِنْ آبَائِهِ ﷺ لَيْسَ إِزْنًا مَادِّيًّا زَائِلًا وَفَانِيًّا، بَلْ إِنَّمَا هُوَ إِرْثُ النَّبَوَّةِ وَالْكَرَامَةِ، بِمَا تَتَضَمَّنُهُ النَّبَوَّةُ مِنْ مَعَانِي الْاِقْتِدَاءِ، وَالتَّأَسِّيِ، وَمُضَامِينِ الْعِلْمِ، وَالْأَخْلَاقِ السَّامِيَةِ الْكَرِيمَةِ، الَّتِي اسْتَعَارَ لَهَا لَفْظُ: الشَّجَرَةِ الَّتِي لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ تَارَةً، لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُمُومِ الْاِنتِفَاعِ بِهَا، وَلَفْظُ: ثَمَرَةٌ لَا تُنَالُ تَارَةً أُخْرَى، لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَظَمِ هَذَا الْإِرْثِ الْوَاصِلِ، وَتَنَاهِي قُدْرَةِ الْمُخْلُوقِينَ عَنِ الْبُلُوغِ إِلَيْهَا، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...

المبحث الثاني: صفاته الخلقية ﷺ

لَمَّا كَانَتِ النَّبَوَّةُ أَجْلَى مَظَاهِرِ الْقِيَادَةِ، وَأَرْقَى أَشْكَالِهَا، كَيْفَ لَا؟ وَهِيَ مِنْ

أعظم المناصب الإلهية التي وهبها الله تعالى للمخلوق كافة، لا لشخصٍ دون آخر، ولا لقومٍ دون قوم، ولا للغةٍ دون لغة، فهي لطف الله تعالى، الذي لم يسمح كرمه بأن يترك الناس بلا دليل يدهم، ولا مُرشد يَهْدِيهم ويأخذ بيدهم؛ ولما كان أبرز عنصر، وأهم ركنٍ تتقوم به النبوة هو ركنُ التأسّي والاقتداء الحسن، كان لا بدّ للنبي، أي نبيّ كان، أن يكون متوقفاً على شرائط الاقتداء وعوامله؛ وأهم عوامله هي الأخلاق الكريمة السمحة؛ ولما كان النبي ﷺ خاتم النبيين وأفضلهم وسيدهم، كان لا بدّ أن تكون أخلاقه أفضل الأخلاق، وسجاياه أكرم السجايا، وإلا لم يجز تقديمه على غيره عقلاً، لفتح تقديم المفضول على الفاضل، وترجيح المرجوح على الراجح. لذلك كلّه يقول فيه أمير المؤمنين وسيد المتقين عليّ عليه السلام:

«حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً»^(١١)، أظهر المطهرين شيمَةً^(١٢)، وأجود المستمطرين ديمَةً^(١٣)»^(١٤).

فبينَ أَنَّهُ ﷺ كان قُدوةً للنَّاس منذ طفولته ونعومة أظفاره، فهو ﷺ خير النَّاس وأفضلهم، وهو الإنسان الكامل الذي يُريده الله تعالى نموذجاً لأرقى المنازل التي يُمكن أن تطأها قدم بشرٍ، بل قدم مخلوقٍ في هذا الوجود، وهو ﷺ يُشكّل هذا النموذج في جميع مراحل العمر وسنَي الحياة، فهو بين الأطفال خير طفلٍ، وبين الكهول أنجب كهْلٍ، وأخصفهم رأياً، وأكثرهم هيبةً ووقاراً واحتراماً..

كيف لا؟ وهو ﷺ المشروع والمُخطَّط الإلهي الأعظم لبني البشر، والذي كان مُفترق طريقٍ للبشرية جمعاء، بعد فترةٍ من الرّسل وانقطاع، والدليل على أَنَّهُ ﷺ مخطَّط اللطيف الخبير لهداية البشر وقيادتهم نحو كمالهم وما فيه سعادتهم ونجاتهم، ما قاله عليّ عليه السلام في الخطبة التي حدّث فيها عن اتّباعه للنبي ﷺ،

والتصاقه به:

«ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله، مَنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً، أعظم مَلَكٍ مِنْ ملائكته، يَسْلُكُ به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»^(١٥).
فهو لشدة اعتناؤه بهذا المشروع، قَيَّضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أعظم مَلَكٍ مِنْ ملائكته؛ ليشهر على تعليمه، ويواظب على تزكيته وتربيته، ليكون عمله الأكمل، وخُلِّقَ الأحسن.

وعلى ضوء ذلك نقول: إِنَّ مَنْ نَسَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بعض الأفعال أو الأقوال غير اللائقة، فهو حتماً لم يُدرك عظمة مقام النبوة، ورفعة منزلتها، وشدة اعتناء الباري تعالى بها.

ومن جملة الخطوط العامة لسيرته الخُلُقِيَّة ﷺ:

(أ) العدل في الحكم والمعاملة:

وهو ما عبّر عنه في التهج الشريف بقوله:

«سيرته القصد، وستته الرشد، وكلامه الفضل، وحُكْمُه العدل»^(١٦).

نعم، فالعدل أساس الملك، وركن الدولة، الذي يُمَيِّز الدولة الإلهية عن الدولة الظالمة، والذي يُمَيِّز حُكْمَ الله عن حُكْمِ الطّاغوت وأهل الجور، وهذا ما يَدْخُلُ فِي الخُلُقِ والرّشْد الاجتماعيّ، مراعيّاً القصد وسالكاً طريق الوسطية بين خطي الانحراف، أعني: الإفراط والتفريط.

(ب) الزهد والتواضع:

فلقد كان ضرورياً لِمَنْ يريد أَنْ يتحمّل أعباء مقام النبوة والخلافة الإلهية، وَلِمَنْ أُرِيدَ لَهُ أَنْ يكون القدوة البشرية، والأُسوة الحسنة أَنْ يكون مترفعاً عن الدُّنْيَا وأقذارها، وَأَنْ يتجنّب أضرارها وسمومها، وَأَنْ لَا يَغْرُق فِي مُسْتَنْقَعَاتِهَا وأحوالها، أي: أَنْ لَا يَخْلُدَ إِلَى الأرض ويتبع هواه؛ فالإنسان الذي يريد أَنْ يكون شهيداً على النَّاسِ وأفعالهم، ومُنْذِراً النَّاسِ بالعقاب والعذاب والخزي المترتب

على نسيان ذكر الله، ومبشراً للمؤمنين بالثواب الجزيل الذي أعد لهم مكافأة على تضحياتهم وتديّنهم وتسليمهم لأمره تعالى، الإنسان الذي يُريد القيام بهذه المهام الثلاث: الشهادة والإنذار والبشارة، سوف لن يستطيع القيام بها على أكمل وجه، ما دام مُتغمساً في لذات الدُّنيا وشهواتها، ومنقاداً لرياح أهوائها.. وهذا ما عبّر عنه إمام الزّاهدين، تلميذ النّبيّ ﷺ، عليّ بن النّعمان بقوله:

«فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها ريشاً»^(١٧)، ولا يعتقدّها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النّفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر؛ وكذا من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه، وأن يُذكر عنده، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يدلّك على مساوئ الدُّنيا وعبوبها، إذ جاع فيها مع خاصّته، ورُويت^(١٨) عنه زخارفها، مع عظيم رُفّته؛ فليَنظر ناظرٌ بعقله: أكرّم الله محمداً بذلك أم أهانه؟ فإن قال أهانه: فقد كذب، والعظيم، وإن قال أكرّمه: فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدُّنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه، فتأسى متأسّ بنبيّه، واقتصّ أثره، وولج مولج»^(١٩).

نعم، فالدُّنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولذلك كثيراً ما افتقر المؤمن، بل جلّ أنبياء الله العظام وأوليائه الكرام، من الفقراء، فكأنّ الفقر والحرمان من الدُّنيا سرّ مكنون، وفي المقابل: كثيراً ما فتحت الدُّنيا مصاريع أبوابها للكافر والشقيّ.

ج) التذلل لله والتواضع للعبد:

والنّبيّ ﷺ كان يرى الدُّنيا بمنظرها الواقعي، وقد انكشفت أمام بصيرته الثّابتة صورتها الحقيقيّة، فتعامل معها معاملة كارهٍ مُبغضٍ لها، فكان يزويها من أمام ناظره، ويُقصيها عن فكره واهتماماته، فما بالي بغدّها وفجورها، ولا هاله ما رآه من ويلاتها ونكباتها، ولا أغراه ما يُغري الجاهل السّفية من ظواهرها ولذاتها الفانية؛ والتّيجة الحتميّة والتلقائيّة لهذه النّظرة المرفّعة عن الدُّنيا، أدّت

به إلى أن يكون تريباً، حسن العشرة، بين الفقراء أحدهم، وبين الأغنياء متكبراً عليهم، مصانعاً وجهاً واحداً، وجه الغني الذي لا يفتقر، فكان كلما تواضع وتنازل ازداد رفعةً وعلواً، فمن تواضع لله رفعه الله..

قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

«ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخضع بيده نعلَه، ويُرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويُردف خلفه، ويكون السر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول: يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيبه عني، فإني إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارفها» (٢٠).

(د) الشجاعة:

فليس النبي (صلى الله عليه وآله) بالقائد الذي يستتر خلف جنوده وقواته، ولا بالذي لا يتجاوز الخطوط الخلفية لجبهات القتال، وليس دوره في تحصين الثغور، وحفظ بيضة الإسلام بمنحصر في التخطيط والتنظير، بل هو في الحرب فارس الميدان، وحامي الذمار، وسيف الله، هو القائد الذي يَحتمي به الجنود، فيحميهم، ويُشجعهم، ويحرّضهم، ويقتحم بهم.. شجاعاً مغواراً لا يُشقّ له في الحرب غبار، ولا يقرّ له قرار..

وهذا سيّد الشجعان، ومجندل الأبطال يشهد له، ويقول فيه:

«كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يكن منا أقرب إلى العدو منه» (٢١).

المبحث الثالث: أدلة نبوته (صلى الله عليه وآله)

ليس كل مدّعٍ للنبوة صادقاً، فالنبوة منصبٌ عظيمٌ جليلٌ وخطير، ويرتّب عليه رفعةً وشرفٌ ومقامٌ وجاهٌ لصاحبه، فادعاء النبوة، هو كنفس النبوة، أمرٌ خطيرٌ جليل، ولذلك كان هذا المنصب محطّاً للأطماع، فكان لا بدّ من التمييز بين

الدَّعْوَى الكاذبة والنبوة الصّادقة، ولا يَنْفَع في ذلك، كما ذكر عُلَمَاءُ الكلام، إلّا المعجزة^(٢٢)، فيكون ظهورها على يدي المدّعي في مقام التحديّ دليلاً على نبوّته وحقّية دعواه، وعدم ظهورها في مقام التحديّ دليلاً على كذبه وعدم نبوّته.. وقد ادّعى محمّد بن عبد الله ﷺ، ذلك الفتى من قُرَيْش، النبوة^(٢٣)، داعياً النَّاسَ إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ومجاهداً في سبيل هذه الدَّعْوَى الحقّة، قال عليّ عليه السلام:

«وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، دعا إلى طاعته، وقاهر أعداءه جهاداً على دينه»^(٢٤).

فكان لا بدّ له من معجزة تكون شاهداً على صدّقه، ودليلاً على نبوّته؛ وبحسب كلمات الأمير عليه السلام في التّهج الشريف، يمكننا أن نُصنّف المعجزات التي ظهرت على يديه إلى صنفين:

١) المعجزة الخالدة

وهي القرآن الكريم، الكتاب العظيم، الذي رفع الهداية رايةً له ولوآء، وأخذ على عاتقه مهمّة محاربة الأويّة الخلقية والأمراض الاجتماعية التي إن تفشّت في المُجتمع، تطال الجميع، وتُهلك الجميع، وفي الدّنيا قبل الآخرة. ومنشأ الحاجة إلى مُعجزة خالدة، غير آنيّة، أنّ النّبي ﷺ بشر، وأنّه ﷺ واحدٌ من النَّاس، والبشر مخلوقٌ فانٍ، ومصيره إلى الموت والزّوال، فالنّبي ﷺ ميّت كما هم ميّتون، ولكنّ عقيدتنا: أنّ نبوّته ﷺ هي النّبوة الخاتمة، هي النّبوة التي تجمع فيها عُصارة نبوّات الأنبياء والرّسل، فهي النّبوة الخالدة، التي أريد لها أن تستمرّ وتبقى انعكاساً للرّسالة على خلقه إلى يوم القيامة، فكان لا بدّ لتعاليمها أن تبقى وتستمرّ إلى يوم القيامة.

وكان لا بدّ لشُعلتها أن تبقى وهاجّة متوقّدة، كان لا بدّ أن تبقى نابضةً

بالحياة، فجاء القرآن الكريم، ليُحَقِّقَ هذا الخلود، ليبقى بين ظهرائي الأمة، ليراه إنسان الأمس وإنسان اليوم وإنسان الغد.. وفي هذا المضمون يقول عليٌّ عليه السلام:
 «فقبضه إليه كريماً، صلى الله عليه وآله، وخلف فيكم ما خلقت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملًا»^(٢٥) بغير طريق واضح، ولا عِلْمٍ قائم، كتاب ربكم فيكم، مبيّنًا حلاله وحرامه، وفرائضه وفصائله، وناسخه ومنسوخه»^(٢٦).

والإعجاز في هذا الكتاب العظيم، لا يقتصر على جهة بقائه وخلوده، بل ثمة جهات كثيرة متعددة، لا يُدركها إلاّ العالم الخبير، وهنا نستمع إلى كلام عليٍّ عليه السلام، الناطق عن القرآن، والمُفصِّح عن وجوه إعجازه وكيفية الانتفاع به، يقول عليه السلام:
 «والله سبحانه يقول: (ما قرأنا في الكتاب من شيء)، فيه تبيان كل شيء، وذكر أن الكتاب يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا)، وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تُفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائب، ولا تُكشَفُ الظلمات إلاّ به»^(٢٧).

فقد بينَ عليه السلام: أن إعجازه خالدٌ متجدّد، وعجائبه لا تُفنى ولا تُنفد، فالقرآن مُواكبٌ لتطوُّر فهم البشر وإدراكهم، بل متقدِّمٌ عليهم دائماً، فكلّما ازداد البشر تقدُّماً وحضارةً وعِلْماً، كلّما اقتربوا من القرآن واكتشفوا بعضاً من أسرارهِ؛ فباطنه عميقٌ عميق، وعمُّقه هذا صيغٌ في قالبٍ فنيٍّ وبلاغيّ مُعْجَز.

روى ابن بابويه: أن رجلاً سأل الصادق عليه السلام: ما بال القرآن لا يزداد عند النّشر والدّرس إلاّ غضاضةً؟ فقال: إنّ الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمان، ولا لناسٍ دون ناس، فهو في كلّ زمانٍ جديد، وعند كلّ قومٍ غُضٌّ إلى يوم القيامة^(٢٨).

وحَتَّى أعداء القرآن الكريم وأعداء الإسلام ونبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يتمكنوا، رغم عتوهم وغيّهم وضلالهم، اعترفوا بإعجازه، فهذا الوليد بن المغيرة يقول - بعد أن سمع من النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿٢٩﴾ - : «والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أغلاه لمُشمر، وإنَّ أسفله لمُغْدق، وما يقول هذا بشر» (٣٠).

والقرآن الكريم يتبع أحسن السبل للهداية، ففيه أحسن الكلام، وأحسن القصص، وفي آياته الشفاء، ولها أثرٌ على القلوب، كأثر الربيع على الطبيعة؛ قال ﷺ:

«فإنَّه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنَّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنَّه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته، فإنَّه أحسن القصص» (٣١).

والقرآن الكريم هو الثقل الأكبر، والعروة الوثقى التي لا نجاة من الهلكة إلا بالتمسك به، مع عدله، الثقل الأصغر، كما جاء في حديث الثقلين (٣٢)، ولذلك كان بيتاً لا تُهدم أركانه، وعزاً لا تُهزم أعوانه، كما قال ﷺ:

«وكتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يغيى لسانه» (٣٣)، وبيت لا تُهدم أركانه (٣٤)، وعز لا تُهزم أعوانه» (٣٥).

ونكتفي هنا بهذا القدر مما جاء به ﷺ من علائم ووجوه إعجازه، وهي تحتاج إلى بحث مفصل مختص بها.

٢) المعاجز الأخرى (الآنية)

يُحدِّثنا أمير المؤمنين ﷺ، وهو نفسه ﷺ أيضاً أحد معجزات النبي ﷺ، ودلائل نبوته، يُحدِّث عن ظهور عددٍ من المعاجز على يديه المباركتين ﷺ، فيقول:

«ولقد كُنْتُ معه - صَلَّى الله عليه وآله - لما أتاه الملائكة (٣٦) من قريش، فقالوا له: يا محمد، إنَّكَ قد ادَّعَيْتَ عظيماً لم يدعه أبأوك، ولا أحدٌ من بيتك، ونحن نسألك أمراً، إنَّ أجبتنا إليه وأرئتناه، علمنا أنَّكَ نبيٌّ ورسول، وإنَّ لم تفعل، علمنا أنَّكَ ساحرٌ كذاب؛ فقال صَلَّى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال صَلَّى الله عليه وآله: إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، فإنَّ

فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَقْبَلُونَ^(٣٧) إِلَى خَيْرٍ، وَإِن فَيْكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ^(٣٨)، وَمَنْ يُحْزَبُ الْأَحْزَابِ؛ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرْوَتِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، لَأَنْقَلِعَتْ بِعُرْوَتِهَا وَجَاءَتْ، وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً، وَأَلْقَتْ بَغْضَافَهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبِغَضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مِنْكَبِي^(٣٩)، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا: عَلَوْاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرَّهَا: فَلَمَّا تَكَ نَصْفُهَا وَبَقِيَ نَصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّ دَوِيٍّ، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَالُوا: كُفْراً وَعَتْواً^(٤٠): فَمُرْ هَذَا النَّصْفَ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى نَصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَرَجَعَ: فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَمَرَ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ نَعَالِي، تَصْدِيقاً بِنَبْوَتِكَ وَإِجْلَالاً لِكَلِمَتِكَ؛ فَقَالَ الْقَوْمُ كُلَّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّخَرِ، خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ، إِلَّا مِثْلَ هَذَا، (يَعْنُونِي) ...»^(٤١).

وفي هذا المقطع إشارة إلى معجزاتٍ أربع:

أ. مجيء الشجرة إليه ﷺ.

ب. إخباره ﷺ قبل مجيء الشجرة بعدم تصديقهم إياه بعد رؤيتها تحيي إليه،

وقد حدث كما أخبر ﷺ.

ج. إخباره ﷺ بمن سيقتل منهم في بدر، ويُطرح في بثره، وهو ما حدث فعلاً

بعد ذلك^(٤٢).

د. إخباره ﷺ بأن فيهم من سيحزب الأحزاب عليه، وهو أيضاً أمرٌ تحقَّق

وحصل^(٤٣).

المبحث الرابع: سبب بعثته وإرساله ﷺ

النبؤات التي تقدّمت على نبوة نبيّنا الأعظم ﷺ، كانت رسالتها، على عظمتها ورفعة مقامها وعلو شأنها، رسالة ذا طابع مرحليّ وآنيّ، إذ كان الملحوظ في جملة من أحكامها وتعاليمها ظروفاً خاصّة كانت تعيشها البشرية، فكانت هذه الأحكام مؤطرةً بهذه الظروف الخاصّة، وعلاجاً لها، هو أشبه بالعلاج المؤمعيّ، وليس علاجاً جذريّاً وأساسياً، فلذلك لم تكن تلك الأحكام لتتمتع بصفة الخلود، إذ كان المخاطب بها نوعاً معيّناً من المكلفين، وفي زمانٍ خاصٍّ من بين الأزمنة، وفي مجتمعاتٍ تُوصف بأنّها بدائيّة وجاهليّة..

ولذلك، وبمرور الزمان، وتبدّل الأوضاع والظروف، ومع تحضّر البشر، ورقىّ المستوى الإنسانيّ شيئاً ما، بدأت الحاجة إلى تغيير هذه الأحكام، وإيجاد الحلول الجذريّة المناسبة، بالبروز والظهور، وذلك بعد أن بدأت مظاهر الفساد والظلم والضلال والفتن وضياح أحكام الدين بالتفشي والانتشار في المجتمعات إلى حدٍّ كبير.. فإنّ الأحكام التي تُسرّع لأجل مصالح وقتيّة وآنيّة، تتبدّل بتبدّل الأوقات والأزمان، وتختلف باختلاف المكلفين.. ولذا سجّل لنا التاريخ، أنّ بعض ما أُحلّ لنوح ﷺ كان قد حُرّم على مَنْ تقدّمه، وأوجبّ الختان على إبراهيم ﷺ بعد تأخيرهِ، وحَرّم الجمع بين الأختين، وغير ذلك (٤٤).. وفي هذا الإطار يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أرسله على حين فترة (٤٥) من الرّسل، وطول هَجْعة (٤٦) من الأمم، واعتزام (٤٧) من الفتن، وانتشار (٤٨) من الأمور، وتَلَطّ (٤٩) من الحروب، والدّنيا كاسفة (٥٠) النور، ظاهرة الغرور (٥١)، على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياسٍ من ثمرها، وأغوارٍ من مائها، قد دُرِسَتْ منار الهدى، وظهَرَتْ أعلام الرّدي (٥٢)، فهي متجهّمة (٥٣) لأهلها، عابسةٌ في وجه طالبها، ثَمَرُها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها (٥٤) السّيف» (٥٥).

المبحث الخامس: مَنْ المخاطب بشريعته ﷺ؟

تتميّز شريعة نبيِّنا الأعظم ﷺ عن سائر الشرائع والرسالات السابقة، لا في خلودها واستمرارها ما استمرت الدُّنيا، وإلى يوم القيامة فحسب، بل بطابعها الشموليّ، ولسانها المتحرّر من قيود اللُّغات أو الأعراق أو الشُّعوب أو الأمكنة؛ فالمُخاطَب بتكاليفها وأحكامها وفروعها ومسائلها هم النَّاسُ كافّةً، وأهل الأرض بل أهل الدُّنيا قاطبةً.. من دون اختصاصٍ ببني هاشم، ولا بقریش، ولا بالعرب، بل هو ﷺ بشيرٌ ونذيرٌ لكلِّ النَّاسِ.. ورسالته رسالة التوحيد والوحدة والألفة.. قال ﷺ:

«إلى أَنْ بَعَثَ اللهُ سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عِدته، ونِجْمه، وأخوذاً على النَّبِيِّينَ ميثاقه، مشهورةً بِسماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ مللٌ متفرقة، وأهواءٌ مُتَشَتِّرة، وطوائف متشتتة، بين مشيِّهٍ لله بخلقه أو مُلْحِدٍ في اسمه أو مُشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة» (٥٦).

فهو يُخاطب كلَّ أهل الأرض، وأصحاب الملل والأهواء، وجميع الطوائف، على تشبُّها..

وفي موضعٍ آخر، يقول ﷺ:

«وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أَرْسَلَهُ بِالَّذِينَ المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، واحتجاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وتحذيراً بِالآيَاتِ، وَتَحْوَيفاً بِالْمَثَلَاتِ، والنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَلَمَ (٥٧) فِيهَا جَبَلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي (٥٨) الْيَقِينِ، واختلف النَّجْر (٥٩)، وَتَشَتَّتَ الْأُمَرُ» (٦٠).

فبيَّن ﷺ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً مَدْعَوُونَ إِلَى نَبْذِ الْفِتَنِ وَالْخِلَافَاتِ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى نِدَاءِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، اللَّذَانِ يُلْهَجُ بِهِمَا الْخُطَابُ الْقُرْآنِي، وَالسَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ..

وفي مقام آخر، يُشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى أَنَّ المخاطَب هم أهل الدُّنيا قاطبةً، فيقول:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسْلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَطُّظٍ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفَرَارٍ مِنْ وَرْقِهَا، وَإِيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَاغْوَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دُرِسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجَيْفَةُ، وَشَعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدَنَارُهَا السَّيْفُ» (٦١).

المبحث السادس: مسؤولياته الرسالية صلى الله عليه وآله

يُحدِّد أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث مهماتٍ ومسؤولياتٍ جسامٍ مُلقاةٍ على عاتق النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله:

(أ) البلاغ

وهي المهمة التي عبَّرَ عنها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ (٦٢)، بل جَعَلَهَا مهمته الوحيدة والمنحصرة عندما قال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْمُنُونَ﴾ (٦٣)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«بَلَّغْ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمْ يَلَمْ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعُ» (٦٤)، وَرَتَّقْ بِهِ الْفَتْقُ» (٦٥)، وَأَلْفْ بِهِ ذَوَى الْأَرْحَامِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ» (٦٦) فِي الصَّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ» (٦٧) الْقَادِحَةِ» (٦٨) فِي الْقُلُوبِ» (٦٩).

وقال في موضعٍ آخر:

«أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ، وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ، فَبَلَّغْ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَاوٍ وَلَا مَقْصُرٍ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاوٍ وَلَا مَعْدَرٍ، إِمَامٌ مِّنْ أَتَقَى، وَبَصِيرٌ مِّنْ اهْتَدَى» (٧٠).

هذه المهمة الشَّاقَّةُ وَالْهَامَّةُ، وَظِيفَةُ إِلَهِيَّةٌ وَتَكْلِيفٌ مُّقَدَّسٌ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ الْمَكْلُوفِ بِهَا أَنْ يَأْتِيَ بِهَا انْطِلَاقًا مِنْ كَوْنِهَا وَاجِبًا إِلَهِيًّا بِصُرْفِ النَّظَرِ عَنْ مَدَى اسْتِجَابَةِ النَّاسِ لِلْبَلَاغِ وَامْتِثَالِهِمْ، فَلَا يَصَحُّ أَنْ يَلُومَ الْمُبَلِّغَ نَفْسَهُ وَيَقْرَعَهَا لِمَجْرَدِ

عدم أو بطل الاستجابة لبلاغه، ولا ينبغي له أن يقيس جسامة وخطورة وظيفة البلاغ ومسؤولية القيام به بالنتائج المادية الملموسة والمحسوسة..

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في قوله عز وجل: ﴿لَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٧١).. فقد جاءت الإشارة فيها إلى أن النبي ﷺ، لسعة رحمته، وشدة رأفته بأمتة، كأنه كان يتأذى عندما يرى إمعانهم في الغي والضلال.. ولكنه مع ذلك، كما في الفقرة السابقة، لم يتوان لحظة عن التضلع بمسؤوليته، والقيام بتكليفه ومهمته، فكان حجة الله على خلقه، الحجة التي ينقطع معها لجميع الخلق كل عذر..

وقد تأسى علي عليه السلام بالنبي الأعظم ﷺ، في تحمل أعباء البلاغ والإرشاد، وفي الوقوف بوجه المحن كافة، على شدتها وصعوبتها، وفي الإضرار على إتمام نور الله في أرضه، ورفض كل محاولات الإجهاض والإفساد والفتن.. فقاتل في سبيل ذلك الناكثين والقاسطين والمارقين.. فقتاله عليه السلام كقتال النبي ﷺ، دونما فرّق أو اختلاف، إلا في مسألة واحدة، وهي: أن قتال النبي ﷺ كان قتالاً على التنزيل، وأما علي عليه السلام فقتاله قتال على التأويل.. فالاسم هو المختلف، وإلا، فالغاية واحدة منحصرة لا ثاني لها، وهي: حفظ الدين، ونشر الرسالة، وهداية الأمة.. قال عليه السلام:

«حاوَلَ القَوْمُ إطفاء نور الله من مصباحه، وسدَّ فواره^(٧٢) من ينبوعه، وجَدَحُوا^(٧٣) بيني وبينهم شرباً وبيئاً، فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى، أُخْلِمْ مِنْ الحق على مخضه، وإن تكن الأخرى، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون)»^(٧٤).

ففي النهاية: إن النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام إنما يعمل لما فيه مصلحة الناس، ومنفعتهم، وسعادتهم، فإن أطاعوهما وعملوا بإرشاداتهما، فذاك هو الحق المحض، والخير المحض؛ وإن عصوا وتولوا، فإن الله عليم بصنعهم، وإثمهم لا

يَسْتَحِقُّونَ أَنْ تَذْهَبَ الْأَنْفُسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ.

ومع ذلك، فنحن نجد الأنبياء العظام ﷺ يتحملون من الأذى من قومهم وعشيرتهم ما لا يتحمّله غيرهم، ويتعرّضون للسخرية والاستهزاء والتكذيب تارة، والأذى الجسديّ والنفسيّ تارة أخرى، وهذا رسول الله الأعظم ﷺ يقول: «مَا أُودِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُودِيتُ»^(٧٥). وعلى الرّغم من ذلك كلّ، فإنّه تجده ﷺ يُؤدّي واجبه على أكمل وأحسن ما يكون، ولا تجد له مظهراً واحداً صغيراً من مظاهر اليأس والقنوط وفقدان الأمل؛ بل هو دائماً يتحرّى أفضل الوسائل والسبل لتحقيق الهداية، تارة باللين، وأخرى بالحزم، تحذيراً ووعيداً تارة، وبشارة وترغيباً أخرى، حرصاً على نجاتهم، وإن لم يحرصوا هم على أنفسهم، واهتماماً بسعادتهم، وإن هم راوغوا وأضلّوا سبيلها، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادق»^(٧٦)، إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات»^(٧٧).

ولعلّ في تعبيره بـ (العلم المأثور)، إشارة إلى أمرين:

أولهما: أنّ هذا الدين مُقدّمٌ بمنهجه وبخطّه الإلهيّ في الإبلاغ والإرشاد والهداية على سائر المناهج والأساليب التربويّة، فهو علمٌ منصوبٌ، ورايةٌ للحقّ، فيكون مقدّماً أمام المناهج الحقّة، بل وحتىّ أمام الأديان السماويّة الباقية، كما تُقدّم الرّاية في الحرب على الجنود، وتُبدّل دونها النفوس، في سبيل أن تبقى خفاقة ومرفرفة.

والثاني: أنّ تعاليم هذا الدين، تسير على وفق منهج عرفته البشريّة، وألفته في الأديان السّابقة، قبل وقوع التحريف فيها؛ لأنّها تكاليف تُراعي حال الفطرة الإنسانيّة، التي لا تبدّل فيها ولا تحوّل.

ب) إخراج الناس من النور إلى الظلمات

فمهمته ﷺ لا تنحصر بالبلاغ وإخبار الناس بالأديان وتعاليمها، ولا بإيصال الأحكام إليهم، بل تتمثل - أيضاً - بإخراجهم فعلاً من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، وبمرافقتهم والحرص على سلامتهم على طول الطريق، طريق عودة الإنسان إلى ربه، فإنه طريق ذات الشوكة، المحفوف بالمخاطر، والمليء بالحفر والمزالق، فالنبي ﷺ، لبشدة رحمته بالأمّة، لا تنحصر مهمته بإراءتهم الطريق، بل يسعى أيضاً إلى تجنبهم مخاطر هذه الطريق ومزالقه..

قال عليّ عليه السلام:

«اجعل شرائف صلواتك، ونوامي^(٧٨) بركاتك، على محمد عبّدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفتاح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدافع جيّشات^(٧٩) الأباطيل، والدماغ^(٨٠) صولات^(٨١) الأضاليل، كما حُمّل فاضطّلع^(٨٢)، قائماً بأمرك، مُستوفراً^(٨٣) في مرضاتك غير ناكل^(٨٤) عن قُدّم، ولا وإي^(٨٥) في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أوري قبس^(٨٦) القابس^(٨٧)، وأضاء الطريق للخابط^(٨٨)، وهديت به القلوب بعد خوضات^(٨٩) الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق»^(٩٠).

فالنبي ﷺ هو الفاتح لما انغلق من سبل الله تعالى بعد ضياع الشرائع الإلهية أو تحريفها، وذلك من خلال رسالته والشرع الذي جاء به.

وهو ﷺ قد أظهر دين الله تعالى، الدين الحقّ، بالوسائل الحقّة والشريفة، من المعجزات، إلى المناظرات، ودفع الشبهات، ودرء الفتن، وبيان الحقائق الإلهية، والأصول الدينية، إلى قتال أعداء الدين، إلى غير ذلك..

وهو الدّماغ لصولات الأضاليل، والمُهْلِك لجُنْد الضلال بالكلية، وقد كان ﷺ ماضي العزم في القيام بأمره تعالى، غير واثق ولا مقصّر فيه، مضيئاً

الطريق لكلّ خابطٍ وجاهلٍ.

ج) الشهادة على الناس

وهو ما أشار إليه ﷺ بقوله:

«وشهيدك يوم الدين وبعيذك بالحق» (٩١).

أي: فهو ﷺ شاهدٌ على الناس من أمته يوم القيامة، شاهدٌ عليهم بما علم منهم من خيرٍ وشرٍّ، ولا يكون الشاهد شاهداً حقيقةً إلا إذا كان مطلعاً على الأفعال، عالماً بالوقائع، ملماً بالأحداث الجارية، فالجاهل لا تكون شهادته إلا شهادةً بالزور، وشهادةً غير حقيقية.

وهذا المعنى لا يصحّ أن يُنسب إلى المؤمن العادي، فكيف إذن بأعظم نفسٍ وأقدس مخلوق ﷺ؟ وعليه: فإثبات الشهادة له ﷺ، يعني: أنه مطلعٌ على أفعال أمته، وما تقتضيه أيدي الناس، من خيرٍ أو شرٍّ إلى يوم القيامة، فيكون هو شاهداً عليهم..

وهذا ليس بعجيبٍ ولا بعيد، فإنّ نفسه القدسيّة المباركة ﷺ، لئن كانت مطلّعةً على كثيرٍ من الأمور الغيبية، وهو لا زال في سجن هذه الحياة الدنّيا، فكيف بها إذن، وقد تحرّرت من قيود الجسد وأسره، وحلّقت في فضائها الملكوتي، الذي عبّر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩٢).

وفي كونه ﷺ شاهداً فوائد تربويّة جمّة، تنعكس آثارها على جميع الأمة، وبتعبير بعض العلماء:

«وأما فائدتها، [أي: الشهادة]، فقد علمت أنّ أكثر أحكام الناس وهميّة، والوهم مُنكرٌ للإله على الوجه الذي هو إله، فبالخبري أن يُنكر كونه عالماً بجُرئيات أفعال عباده، ودقائق خطرات أوهامهم، وظاهر أنّ ذلك الإنكار، يستتبع عدم المبالاة بفعل القبيح والانهاك في الأمور الباطلة، التي نهى الله تعالى عنها، فإذا ذُكر لهم أنّ عليهم

شهداء ورقباء وكتاباً لما يفعلون، مع صدق كل ذلك بأحسن تأويل، كان ذلك مما يُعين على كسر النفس الأتارة بالسوء، وقهر الأوهام الكاذبة، ويزدع النفس عن متابعة الهوى...» (٩٣).

جعلنا الله من المهتدين والمقتدين بسيرة نبينا محمد ﷺ، والمتأسين بأفعاله وأقواله..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...



الهوامش:

(١) مدينة المعاجز: ١١٦؛ مستدرك البحار: ٧: ١٨١، ١٨٢؛ بحار الأنوار: ٣٩: ٨٤؛ مجموعة الرسائل: ٢: ١٥٠؛ مختصر بصائر الدرجات: ١٢٨، مناقب آل أبي طالب: ٣: ٢٦٧؛ مشارق أنوار اليقين: ١١٢؛ المختصر: ١٢٥؛ المحاضر: ١٣٨.

(٢) الأرومة أصل كل شجرة، وأصل الحسب: أرومته، والجمع: أروم وأرومات؛ أنظر: كتاب العين: ٨: ٢٩٦.

(٣) الصّدع: الشّق في الشيء الصّلب كالزجاج والخائض وغيرهما، وجمعه صدوع. لسان العرب: ٨: ١٩٤.

(٤) عترة الرجل: أصله، وأقرباؤه من ولده وولد ولده وبني عمّه دينياً، كتاب العين: ٢: ٦٦.

(٥) أسرة الرجل: رهنه، لأنه يتقوى بهم. الصحاح: ٢: ٥٧٩.

(٦) بسّقت النخلة بسوقاً: طالت وكملت. كتاب العين: ٥: ٨٥.

(٧) السراج: الزاهر الذي يزهر بالليل، والفعل منه: أشرجت السراج إشراجاً. كتاب العين: ٦: ٥٣.

(٨) الشّهاب: شُعلة من نار، والجمع: الشّهب والشّهبان، ويُقال للرجل الماضي في الحرب: شهابٌ حذب. كتاب العين: ٣: ٤٠٣.

(٩) العود الأعلى الذي يُندَح به النار. الصحاح: ٢: ٤٨١.

(١٠) نهج البلاغة، الخطبة ٩٤، بشرح محمد عبده: ١: ١٨٥.

- (١١) الكهل من الرجال: مَنْ زاد على ثلاثين سنة إلى أربعين. مجمع البحرين: ٧٩: ٤.
- (١٢) الشَّيْمَة: الخُلُق. الصَّحاح: ١٩٦٤: ٥.
- (١٣) الدَّيْمَة: المطر الذي يدوم دوماً يوماً وليلاً أو أكثر. كتاب العين: ٨٦: ٨.
- (١٤) الخطبة ١٠٥، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٠٠.
- (١٥) الخطبة ١٩٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ١٥٧.
- (١٦) الخطبة ٩٤، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ١٨٥.
- (١٧) الرياش: اللباس الحسن. كتاب العين: ٦: ٢٨٣.
- (١٨) زوى الشيء يزويه زياً وزوياً، نحاه، فانزوى. الصَّحاح: ٦: ٢٣٦٩.
- (١٩) الخطبة ١٦٠، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ٥٩، ٦٠.
- (٢٠) المصدر السابق.
- (٢١) الحكمة: ٩، نهج البلاغة، محمد عبده: ٤: ٦١.
- (٢٢) المعجزة: علامة الله لا يعطيها إلا أنبياءه ورسله وحججه ليُعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب. علل الشرائع: ١: ١٢٢.
- (٢٣) صعد النبي ﷺ في أول بعثته الصفا، وقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مضبحكم أو تمسيكم، ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. مناقب آل أبي طالب: ١: ٤٣، مُسنَد أحمد: ١: ٢٨١، صحيح البخاري: ٦: ٩٥، السنن الكبرى: ٦: ٢٤٤.
- (٢٤) الخطبة: ١٩٠، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ١٣٠.
- (٢٥) الحمل: السُدى، وما ترك الله الناس هملاً، أي: سُدى بلا ثواب وبلا عقاب، وإيل هوامل: مُسَيَّبة لا تُرعى، وأمر مُهمَل: أي: متروك. كتاب العين: ٤: ٥٦.
- (٢٦) الخطبة: ١، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٥.
- (٢٧) الخطبة: ١٨، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٥٥.
- (٢٨) عيون أخبار الرضا: ١: ٩٣، أمالي الطوسي: ٥٨٠.
- (٢٩) التخل: ٩٠.
- (٣٠) البداية والنهاية: ٣: ٧٨.
- (٣١) الخطبة: ١١٠، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢١٥.
- (٣٢) فضائل الصحابة: ١٥، مُسنَد أحمد: ٣: ١٧، سنن الترمذي: ٥: ٣٢٩، مجمع الزوائد: ٩: ١٣٤.

(٣٣) عني عن حجتة عتيّاً، وعييت بهذا الأمر وعنه، إذا لم أعتد لوجهه، وأعياني الأمر أن أضبطه، والداء العياء: الذي لا دواء له. كتاب العين: ٢: ٢٧٢.

(٣٤) الركن: ناحية قوية من جبل أو دار، والجمع: أركان. كتاب العين: ٥: ٣٥٤.

(٣٥) الخطبة: ١٣٣، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ١٦.

(٣٦) الملا: الجماعة. ترتيب إصلاح المنطق: ٣٤٠.

(٣٧) الفيء: الرجوع، سُمي هذا المال فيئاً، لأنه رجع إلى المسلمين من أموال الكفار عفواً بلا قتال، وكذلك قوله تعالى في قتال أهل البغي: (حتى نفى إلى أمر الله)، أي: ترجع إلى الطاعة. لسان العرب: ١: ١٢٧.

(٣٨) القلب: البئر قبل أن تُطوى. كتاب العين: ٥: ١٧١، وقد عني القلب بذر.

(٣٩) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف، وحبل العاتق من الإنسان والطائر ونحوه. كتاب العين: ٥: ٣٨٥.

(٤٠) العتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان. الفروق اللغوية: ٣٣٧.

(٤١) الخطبة: ١٩٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ١٥٨.

(٤٢) روث عائشة، قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتل أن يُطرحوا في القلب، طُرِحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في دزعه حتى ملأها، فذهبوا ليحزكوه، فتزاييل، فأقروه وألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة، فلما ألغاهم في القلب، وقف رسول الله ﷺ فقال: يا أهل القلب: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟ قال: لقد علموا أن ما وعدتهم حق. تاريخ الطبري: ٢: ١٥٥.

(٤٣) كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري وهودة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرجوا حتى قَدِمُوا على قُرَيْش بمكة فدَعَوْهم إلى حَرْب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نَسْتَأْصِلَهُ، فقالت هُثم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نَخْتَلِفُ فيه نحن ومحمد، أفديتُنا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه؛ قال: فهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجُبْنَ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) إلى قوله (وكفى بجهنم سعيراً)، فلما قالوا ذلك لقُرَيْش سرَّهم ما قالوا

- وَنَشِطُوا لِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَرْبٍ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَجْمَعُوا لَذَلِكَ وَاسْتَعَدُّوا لَهُ، ثُمَّ خَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ يَهُودٍ حَتَّى جَاؤُوا غَطَفَانَ مِنْ قَيْسِ عِيلَانَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنْ قُرَيْشًا تَابِعُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْمَعُوا فِيهِ، فَأَجَابُوهُمْ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ، وَقَانِدُهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ غَطَفَانُ، وَقَانِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حَصِينٍ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ بْنِ بَنِي فِزَارَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الْمُرِّيِّ فِي بَنِي مُرَّةَ، وَمَسْعُودُ بْنُ رُحَيْلَةَ بْنِ نُؤَيْرَةَ بْنِ طَرِيفٍ بْنِ سَحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَلَالٍ بْنِ خِلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعِ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ فَيَمَنْ تَابِعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أَشْجَعٍ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِأَجْمَعُوا لَهُ مِنَ الْأَمْرِ، صَرَبَ الْخَنْدَقُ عَلَى الْمَدِينَةِ. تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ: ٢: ٢٣٣.
- (٤٤) اللّوَامِعُ الْإِلَهِيَّةُ فِي الْمُبَاحَثِ الْكَلَامِيَّةِ: ٢٣١ - ٢٤٠، وَالْفَصْلُ فِي الْمَلَلِ: ١: ٢٠٥، أَنْوَارُ الْمَلَكُوتِ: ١٩٧، ١٩٨، الذَّخِيرَةُ: ٣٥٧، ٣٥٨.
- (٤٥) الْفَتْرُ: مِقْدَارُ مَا بَيْنَ طَرَفِ الْإِبْهَامِ وَطَرَفِ الْمَشِيرَةِ، وَفَتْرَتِ الشَّيْءِ فَتْرًا بَفْتَرِي، وَشَبْرَتُهُ شَبْرًا بَشْبَرِي، وَالْفَتْرَةُ مَا بَيْنَ كُلِّ رَسُولٍ إِلَى رَسُولٍ. كِتَابُ الْعَيْنِ: ٨: ١١٤.
- (٤٦) الْمَجْمَعُ وَالْمَجْمَعَةُ وَالْمَجْمِيعُ: طَائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْمُجْجُوعُ: النَّوْمُ لَيْلًا. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٥: ٢٤٧.
- (٤٧) الْإِعْتِزَامُ: لَزُومُ الْقَصْدِ فِي الْحُضُرِ وَالْمَشْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. كِتَابُ الْعَيْنِ: ١: ٣٦٤.
- (٤٨) الْإِنْتِشَارُ: الْإِنْتِفَاحُ فِي عَصَبِ الدَّابَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَبِ. الصَّحَاحُ: ٢: ٨٢٩.
- (٤٩) الْإِنْلَظَاطُ: لَزُومُ الشَّيْءِ وَالْمُتَابَرَةُ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: الْإِنْلَظَاطُ: الْإِلْحَاحُ، قَالَ بَشْرٌ: أَلْظَّ بِهِنَّ يَحْدُوهُنَّ حَتَّى، تَبَيَّنَتِ الْحَيَالُ مِنَ الْوَسَاقِ؛ وَمِنَ الْمَلَاظَةِ فِي الْحَرْبِ، يُقَالُ: رَجُلٌ مَلْظٌ، أَيْ: مُلَحٌّ، وَمُلْظَاطٌ، أَيْ: مُلْحَاحٌ. الصَّحَاحُ: ٣: ١١٧٩.
- (٥٠) كَسَفَ الْقَمَرُ يَكْسِفُ كَسُوفًا، وَالشَّمْسُ تَكْسِفُ كَذَلِكَ، وَانْكَسَفَ خَطًّا. وَرَجُلٌ كَاسَفُ الْوُجْهِ: عَابِسٌ مِنْ سُوءِ الْحَالِ، كَسَفَ فِي وَجْهِهِ وَعَبَسَ كَسُوفًا. كِتَابُ الْعَيْنِ: ٥: ٣١٤.
- (٥١) الْغَرَرُ كَالْخَطَرِ، وَغَرَرُ بِهِالَهُ: أَيْ: حَمَلَهُ عَلَى الْخَطَرِ. كِتَابُ الْعَيْنِ: ٤: ٣٤٦.
- (٥٢) الرَّدَى: الْهَلَاكُ. لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٤: ٣١٦.
- (٥٣) تَجَهَّمَهُ وَتَجَهَّمُ لَهُ كَجَهَّمَهُ، إِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِهِ كَرِيهًا. لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٢: ١١١.
- (٥٤) الذَّنَارُ: كُلُّ مَا كَانَ مِنَ الثِّيَابِ فَوْقَ الشَّعَارِ، وَقَدْ تَدَثَّرَ، أَيْ: تَلَفَّفَ فِي الذَّنَارِ. الصَّحَاحُ: ٢: ٦٥٥.
- (٥٥) الْخُطْبَةُ: ٨٩، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، مُحَمَّدُ عَبْدُهُ: ١: ١٥٦.

- (٥٦) الخطبة: ١، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٤.
- (٥٧) انجذم بالعير: أي: انقطع بها. لسان العرب: ١٢: ٨٨.
- (٥٨) السّواري: جمع سارية، وهي الأسطوانة. النهاية في غريب الحديث: ٢: ٣٦٥.
- (٥٩) النّجر: عمل النّجار ونخته. كتاب العين: ٦: ١٠٦.
- (٦٠) الخطبة: ٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٧.
- (٦١) الخطبة: ٨٩، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ١٥٦.
- (٦٢) الجمعة: ٢.
- (٦٣) المائة: ٩٩.
- (٦٤) الصّدع: شقٌّ في شيء له صلابة. كتاب العين: ١: ٢٩١.
- (٦٥) الفتق: انفتاق رتق كل شيء متّصل مُستور وهو رتق، فإذا انفصل، فهو فتق. كتاب العين: ٥: ١٣٠.
- (٦٦) الوغر: اجتراع الغيظ، وَغَر صدرِي عليه، يوغر، وهو أن يَحْتَرِق القلب من شدة الغيظ. كتاب العين: ٤: ٤٤٤.
- (٦٧) الضُّغن والضَّغينة: الحقد، ضغن عليه، أي: حَقَد، وسلَلْتُ ضغنيته وضغنه، أي: طلبْتُ مرضاته، قال: وأحل في ليلي لقوم ضغينة. كتاب العين: ٤: ٣٦٦.
- (٦٨) القادحة: الدّودة التي تأكل السّنّ والسّجر، تقول: قد أسرعت في أسنانه القوادح. تاج العروس: ٢: ٢٠٣.
- (٦٩) الخطبة: ٢٣١، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ٢٢٥.
- (٧٠) الخطبة: ١١٦، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٢٩.
- (٧١) فاطر: ٨.
- (٧٢) الفوّارة: العين تميش وتَقُور بِها. كتاب العين: ٨: ٢٧٩.
- (٧٣) الجَذح: حَوْض السّويق واللّبن ونحوه بالمجدح ليختلط. كتاب العين: ٣: ٧٣.
- (٧٤) الخطبة: ١٦٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ٢: ٦٤.
- (٧٥) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٤٢.
- (٧٦) الصّادع: القاضي بين القوم. تاج العروس: ٥: ٤١١.
- (٧٧) الخطبة: ٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٨.
- (٧٨) التّوامي: الأغصان، واحدها نامية. لسان العرب: ١٥: ١٣٠.

(٧٩) جيشات: مأخوذٌ من: جاش الشيء، إذا ارتفع، وجاش الماء، إذا طما، وجاشت النفس. غريب الحديث: ١: ٣٧٥.

(٨٠) الدماغ: المَهْلِك، من دَمَعَه دَمْعاً، أي: شَجَّهَ بحيث يَبْلُغ الدِّماغُ فَيَهْلِكُه. مجمع البحرين: ٢: ٥٥.
(٨١) صال عليه، إذا استطال، وصال عليه: وثب صولاً وصولاً، يُقال: رَبُّ قَوْلٍ أَشَدَّ مِنْ صَوْلٍ. الصَّحاح: ٥: ١٧٤٦.

(٨٢) اضطلع بالحمل والأمر، احتملته أضلاعه. لسان العرب: ٨: ٢٢٥.

(٨٣) استوفز في قعدته، إذا قعد قعوداً مُنتصباً غير مطمئن. الصَّحاح: ٣: ٩٠١.

(٨٤) النُّكْل: ضَرْبٌ مِنَ اللَّجْمِ والقيود. كتاب العين: ٥: ٣١٧.

(٨٥) وهى الشيء والسقاء وهى يبي فيها جميعاً وهياً، فهو واو: ضَعُف. لسان العرب: ١٥: ٤١٧.

(٨٦) القبس: شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ تَقْبِسُهَا وتَقْتَسِمُهَا، أي: تَأْخُذُ مِنْ مُعْظَمِ النَّارِ. كتاب العين: ٥: ٨٦.

(٨٧) القابس: طَالِبُ النَّارِ، وهو فاعِلٌ مِنْ قَبَسَ. النهاية في غريب الحديث: ٤: ٤.

(٨٨) الخابط: النَّائِم. لسان العرب: ٧: ٤٠١.

(٨٩) خُضَّتْ الماء خَوْضاً وخياضاً، واختَضَّتْ، وخَوْضْتُ تخويضاً، أي: مَشَيْتُ فِيهِ. كتاب العين: ٤: ٢٨٢.

(٩٠) الخطبة: ٧٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ١٢٠.

(٩١) الخطبة: ٧٢، نهج البلاغة، محمد عبده: ١: ٢٠٤.

(٩٢) النَّجْم: ٨، ٩.

(٩٣) رياض السالكين: ١: ٤٥١. (في الهامش).

قيادة النبي محمد ﷺ

قراءة في الأسلوب والمنهج الإداري والقيادي

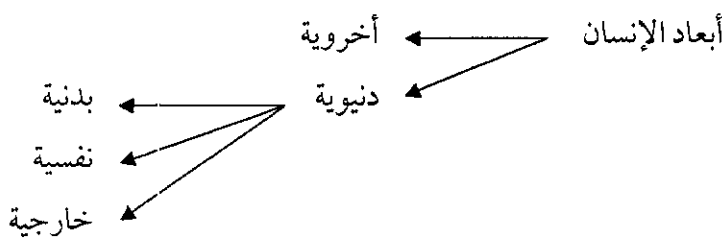
□ ا. د. علي العلي (*)

لعل مفهوم الإدارة والقيادة الإدارية وفق المفهوم الإسلامي نجدها قد تجذرت في حركة الفكر الإسلامي منذ نشأته، حيث جال عبر عدة معطيات لنا عند البحث عنها أن نسبها على وفق المعطيات المعاصرة، ليس من باب تحميل النصوص بما لا تطيق، وإنما على وفق دائرة طبيعة العرض، والآليات، والنتائج، وأسلوب الوصول إلى الغايات، وتحقيق الأهداف المرحلية أو العليا. وهذا بطبيعته لا ينحصر وفق دائرة المصطلح، وإنما يسبك وفق الرؤى والمفاهيم التي صاغتها منابع الحضارة الإسلامية، وحركة مؤسستها، والداعي إلى هذه النهضة الإنسانية النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله. فعندما نقف عند المفاهيم الإدارية المعاصرة، ونحاكي من خلالها الواقع العملي والميداني، والأبعاد والنتائج المتحصلة، نجد أننا أمام رؤية شاملة وواسعة لهذه المفاهيم وفق المعطيات والأسس المبنية على القواعد التي أرساها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في منهجه وأسلوبه الإداري والقيادي، ولعل هذا يفتح أمام

(*) دكتوراه في فلسفة القانون والشرعية، مستشار وخبير في القانون العام والنظم الإدارية.

الباحث طبيعة هذه المفاهيم، وطبيعة القوالب التي سبكت من خلالها، خصوصاً أننا نعيش في وقتنا الحاضر نوعاً من الإغراق بالمفاهيم الإدارية، وتربية القيادات الإدارية على وفق معطيات قد نجد في بعضها أسساً لا تتماشى وفق ثقافتنا الإسلامية ومعطياتنا التربوية، وهذا قد يوصلنا للتنافي والتضاد في طبيعة العرض والآلية، وبالتالي الخلل في المنهج المنعكس على النتائج والأهداف. ومن باب التذكير نجد أننا نعيش اليوم التناح الإداري الواسع للفكر الإداري المبني على أسس تدعم المذهب الفردي Doctrine individualiste أكثر منها دعماً للمذهب الجماعي Doctrine socialiste أو العكس، إضافة لما قد يصاحب ذلك من اختلال في المفاهيم والقيم التربوية على المستوى الإداري والقيادي.

أولاً: أننا لابد أن نسبك النتاج الفكري البشري من الجانب الإداري والقيادة الإدارية على وفق نظم تتماشى مع أبعاد الإنسان الدنيوية والأخروية، والتي ينبثق عليها حركته وأسلوبه في التعاطي الخارجي والنفسي والبدني المنعكس بنتائجه على نتاجه الأخروي.



وهذا محور أساسي بُنى عليه النظرية الإدارية على المستوى الإداري، أو على مستوى القيادة الإدارية.

ثانياً: إن ما نعيشه اليوم يتجاذب في معطياته ما بين نتاج الفكر الإداري الأمريكي أو الأوربي بالدرجة الأولى، وهناك من يتعاطي مع الفكر الإداري

الياباني، وهذا بحد ذاته لا يعني أننا نود حصر دائرة التلقي بجهة معينة، وإنما هي دعوة للتعاطي بوعي مع معطيات العقل البشري بما يتناسب مع المعطيات العقلانية والعقلانية الواعية لمتطلبات الإنسان وقيمه الإنسانية، المؤكد عليها والداعي إليها خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، والمطبق بدقة لمعاييرها في كافة مجالات الحياة، مما يعني أننا أمام معادلة تتمحور عبر المحاور التالية :

أ : التلقي الواعي.

ب : الفرز والانتقاء المدعم بالأسس والمعطيات الواعية.

ج : التطبيق المنهجي الدقيق المبدع.

د : النتائج الإبداعية المتناغمة مع الأصالة والتجديد.

متجاوزين بذلك دائرة الانبهار، ومن ثم الإنصهار المنتج للإندثار، خصوصاً أننا أمام تحديات معاصرة دقيقة جداً، قوبلت بمدعيات فضفاضة افتقرت في الكثير من دراساتنا إلى المنهجية والتحليل، مع عدم إنكار ما نجد من كتابات حاولت بإخلاص تحديد المعايير الإسلامية للإدارة والقيادة الإدارية، وهي دراسات جديرة بالبحث والمناقشة والتطوير.

ثالثاً : نحن بصدد الإسهام في هذا الاتجاه بشكل يعمل على رفد الساحة الإنسانية والإسلامية بشكل خاص بمعطيات تساهم في تشذيب وتطوير الفكر الإداري والمعايير المعتمدة في القيادات الإدارية.

رابعاً : من المعلوم أن هذا الأمر يقودنا إلى دائرة التطوير التي نطمح في بنائها وتأصيلها في مجال العلوم الإنسانية، التي تفرز لنا معطيات أساسية في بناء الفكر الإنساني وتطويرة نحو إنسانية تتجاوز بذلك سلبات العروض المعتمدة على الفروض والتخمينات، التي ألغت إنسانية الإنسان في مناحي عديدة من مواضع العلوم الإنسانية، سواء ما يختص بعلم الاجتماع، أو علم النفس، أو علم الاقتصاد، أو علم دراسة الإنسان، أو ما نحن بصده وهو علم الإدارة،

هذا من جهة.

خامساً : من جهة أخرى ليس من حقنا أن نتقاعص عن المساهمة في بناء الإنسان مع ما نحمله من معطيات، ومن تراث، ومن أفكار، ومن إنسانية نشترك بها مع الآخر، لذا ليس لنا أن نعطل هذا الكم الهائل من التتجات الفكرية الإنسانية التي نستطيع أن نوظفها في خدمة هذا الإنسان، متجاوزين بذلك حدود الزمان والمكان لتكون مساهمين في صنع الزمان والمكان على وفق منابع التي نستسقي منها إنسانية هذا الإنسان.

إن أسهامنا هو دعوة للتقويم والتقييم، والنهوض والتطوير، مع عدم إغفال الفكر الآخر، أو تجاوز إبداعاته، وعدم الاختصار على أحادية الفكر ما دام لا يتعارض مع الأسس العقلانية والعقلانية والإنسانية التي دعا إليها ديننا الحنيف، وعنون نفسه من خلالها على أنه الديانة الخاتمة.

ولعل خير مصاديق البحث هو ما نستعرضه من الأسلوب الإداري الذي نستوحيه من خلال النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، وكذلك قيادته الإدارية لذلك، إضافة لامتداداته من خلال من عاصره، خصوصاً من تربي على يديه اجتماعياً وتربوياً ودينياً وهو الإمام علي عليه السلام، والذي سطر لنا تجربة رائدة في مجال العرض والتطبيق نذكر منها (عهد ملك الأشتر) الذي رسم فيه خطوطاً أساسية للقانون الإداري، وآليات تعاطي القائد مع الرعية.

دائرة حركة القيم والمبادئ الإدارية في الفكر الإسلامي

إن استعراضنا للقيم والمبادئ الإدارية وفق المفهوم الإسلامي تحدد لنا طبيعة السلوك الإداري المستخدم، والذي على ضوئه يتم تقييم وتقويم مدى فاعليته على المستويات الإدارية، على مستوى (المؤسسة) أو على مستوى الدولة وغيرها من المستويات الإدارية وإفرازاتها، خصوصاً أن النظام الإسلامي له رؤية

شمولية وانسجام يتماشى مع التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية عند سبكها وفق رؤية قيمية تعمل على بناء الإنسان وتكامله. إن تحديد مدى وضوح المبادئ الإدارية في المفهوم الإسلامي لها، هو في واقعه تحديد للسلوك الإداري عرضاً وانعكاساً، وبطبيعة الحال ما تمثله هذه المنظومة من ركن أساسي في بناء المنظومة الاجتماعية والانسانية للفكر الإسلامي على أسس منهجية وعلمية ترفد بها منابع العلوم الإنسانية بتشعباتها، إن حركة البحث في هذه المنظومة يدور عبر ما نصت عليه :

- أولاً : مصادر التشريع الإسلامي وما يمكن أن يستنبط من خلالها، وأعني :
- القرآن الكريم.
- سنة المعصومين عليهم السلام، وعلى رأسهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.
- الإجماع.
- العقل.

مع عدم إغفال الترابط الذي في المدخلات Inputs، والمخرجات Outputs.

ثانياً : الترابط المعرفي بين العلوم الإنسانية.

عدم إغفال الترابط الذي تضيفه هذه العلوم، خصوصاً عند تفعيلها وتحليلها في الواقع الميداني عند النظر إليها على أنها وحدة اجتماعية وإدارية متكاملة، تنطلق من أصالة الفرد وتكامله بالمجتمع.

مما يعني أننا لا بد أن نضع وندرس معايير تتفاعل مع الفرد والمجتمع بمؤثرات وأبعاد كل منهما لإدراك التأثير والتأثر، وعدم التعامل مع بيئة كل منهما على أنه عامل افتراضي (Agiren variable)، كما فعلت بعض النظريات التنظيمية الكلاسيكية في المدارس الإدارية الغربية ؛ نعم نجد أن هنا

نوعاً من المحاكاة والتداخل المنتج ما بين ما نراه في الرؤية الإسلامية لبناء النظم الإدارية والقيادة الإدارية ونظرية النظم الحديثة (System theory)، والتي تركز على أن [المنظمة نظام مفتوح، وجزء من أنظمة فرعية خاضعة بدورها للمؤثرات البيئية، ولا يمكن دراستها بمعزل عن محيطها الذي يكون في مجموع النظام الكبير الذي يحتوي كل هذه الأنظمة الفرعية، والنظام الإسلامي بكل تنظيماته هو نظام مفتوح يتشكل من مجموعة من النظم الفرعية، يفترض بطبيعة تكوينه أن أي دراسة لأي تنظيم فرعي - إداري كان أم اقتصادي - لا يمكن دراسته بمعزل عن مؤثرات النظام الأكبر، أو بمعزل عن البيئة الاجتماعية الكبرى التي يعمل فيها هذا التنظيم الفرعي] ^(١).

على ضوء ذلك نجد أن هناك نوعاً من السنخية والتسلسل المتدرج في العرض التشريعي لأصول الدين وفروعه في السلوك الذي يحرك دائرة التشريع للفرد من خلال أبعاده الدنيوية والأخروية، وتناج ذلك. فلا يمكن النظر بمعزل لكل شيء على حدى، ولا يمكن أن نتجاوز البيئة التي يتحرك من خلالها الفرد، والتي تشكل محيطه الخارجي بأبعادها على مستوى الأسرة، أو المؤسسة، أو الدولة، أو غير ذلك سعة أو ضيقاً. وعلى ذلك تفرز النظريات التي تتعلق بهذا الفرد، سواء كانت إدارية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو تاريخية، أو فقهية، أو غيرها من النظريات التي ترشد المعرفة والبحث العلمي في العلوم الإنسانية.

تأصيل الرؤية الإسلامية للمبادئ الإدارية على ضوء الدراسات البيئية للمنظمات ^(٢)

ركزت الدراسات الإدارية المعاصرة على (ايكولوجية المنظمة Organization Ecology) لوضع أسس سليمة لفهم المنظمة وتصحيح

مسار عملها؛ إذ أنها تؤثر وتتأثر في حركتها، لذا لكي يتم استيعاب ذلك ينبغي علينا أن ندرك نوعية هذه العلاقات المؤثرة والمتأثرة من خلال:

١- دراسة المنظمة من خلال محيطها.

٢- علاقة المنظمة بالمحيط كيفاً وكماً من خلال :

أ : نوع التأثير الذي تفرزه المنظمة بالمحيط فقط.

ب : نوع التأثير الذي تتلقاه المنظمة من المحيط فقط.

ج : نوع التأثير والتأثير الداخلي والخارجي الناتج عن مجموع (أ و ب).

وهذا يقودنا إلى قياس دقيق لمدى التأثيرات المتبادلة بالمحيط سلباً أو إيجابياً، والذي يتوسع إلى التأثير والتأثر الحضاري على كافة الأصعدة التي تنهل منها الحضارة وتسهم في بنائها.

وبطبيعة الحال إن المجتمعات تتشكل من خلال حركتها الاجتماعية على صعيد تفاعلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، المتولدة عن ظروفها، وطبيعة زمانها ومكانها، ومعتقداتها وأزماتها، وخبراتها المتوارثة والمتولدة من تجاربها المشكلة لعادات وتقاليد وطباع وأنماط تتمحور على ضوئها دوائرها الثقافية والحضارية، ومدى إسهامها في بناء ذلك، لذا هي تحتاج (لفلتر) - إن صح التعبير - لفرز كل ذلك وفق معايير قيمة عالية، وإنسانية تكاملية، حتى تنعت بمساهمتها الحضارية ببعد حقيقي لا مجازي، ومن جميل ما يذكر في هذا الصدد ما ورد في مقدمة الباب الثاني الذي قدمه كل من :

• الخبير الأمريكي لوثر جيولوك

• والخبير الأمريكي جيمس بولوك

عندما استقدمتهما جمهورية مصر العربية لتنظيم الإدارة الحكومية؛ حيث أشارا إلى موضوع الإسلام والحكم وأهمية دورة، وأهمية فهم المحيط لوضع النظم الإدارية والحكومية وقد قررا ما يلي :

[إننا ندرك حق الإدراك أن النظم الحكومية تنكيف وفق مقتضيات الجو
الثقافي الذي توجد فيه، ولا يمكن بحث خطط إعادة تنظيم جهاز أية حكومة
أو إجراءاتها بمعزل عن التيارات العامة التي تسود حياة الأمة، والمعتقدات
الأساسية التي تدين بها.

غير أن الحكومة - أيضاً - تعتبر من القوى الإيجابية في التغيير والتطور، وآية
ذلك واضحة فيما تم خلال الأعوام العشرة التي انقضت على قيام الثورة
المصرية.

لهذا كان على من يتأمل المستقبل، ويقترح إدخال تغييرات هامة، أن يعني
حق العناية بدراسة قوتين كبيرتين :

الأولى : التأثير القوي للثقافة، الذي يميل إلى الإبقاء على التقاليد الموروثة.

الثاني : القيمة الخلاقة المبدعة للجديد من الأفكار والنظم التي تغير وضع

شعب من الشعوب، بأن تدفعه إلى حياة جديدة ذات قيم ومعتقدات جديدة.
ومن المهم أن نعترف منذ البداية بأن أمر جهاز الحكم ليس بأهم الأمور،
فالمعتقدات والقيم التي يركز عليها تفوقه أهمية وخطورة. فإذا استطاع الجهاز
الجديد أن يتبعث هذه المعتقدات والقيم، وأن يصوغها في صورة نظم، فإن
التقدم الذي يحرزه الشعب حقاً لا يكمن في النظم الحكومية، بل فيما تقوم عليه
من قوى أخلاقية وفلسفية وروحية.

لهذا كان على المسؤولين عن إعادة تنظيم الجهاز الحكومي على نحو جذري
أن يستهدوا بهدي ثقافة الأمة ذاتها، وفهم المعتقدات والقيم التي تسير عليها
الأمة في حياتها.

وكان من المتعذر علينا أن نفهم المعتقدات والقيم؛ لأننا ننتمي إلى ثقافة
أخرى. لهذا بذلنا جهداً متصلاً للتعرف عليها، لا عن طريق القراءة فحسب،
بل كذلك عن طريق الاجتماع بالقادة في ميادين الدين والفلسفة، لكي نتبين

قيادات الثقافة المصرية التي يبدو أن لها تأثيراً أساسياً في المشكلات التي نبحثها. وقد راعنا خلال هذا البحث أننا اهتمدنا إلى عدد من المعتقدات الأساسية الوثيقة الصلة بتلك المشكلات. وإننا لنورد تلك المعتقدات فيما يلي، في صورة بالغة الإيجاز خالية مما تستحقه من إفاضة وتفصيل.

- شرع الله إقامة الدولة كنظام أخلاقي واقتصادي وسياسي، وللإنسان أن يشكل هذا النظام بفضل ما يتاح له من اتساع في المعرفة.
- الناس سواسية أمام الله، ومن ثم أمام القانون.
- ليس للحاكم، ولا لرجل الدين، ولا لأية طبقة، أو فئة ما أن تحول بين المرء وحقوقه وواجباته، أو أن تفصل بينه وبين الله.
- الاستغلال الشخصي للنفوذ أمر ياباه الخلق الكريم.
- نظام القيادة نظام مستحب من حيث المبدأ، ولكن كل راع مسئول عن رعاية شؤون الناس، ولا تكون القيادة بالوراثة، بل بالاختيار، ويبرر قيامها ما تلتزم به من مستويات خلقية، وما تقدمه من خدمات.
- الأخذ بالشورى على الصعيدين المحلي والقومي أمر لا بد منه في اتخاذ القرارات والأعمال الحكومية والانتخابات.
- نظام الملكية الفردية حق مقدس ينطوي على ضرورة استخدام الممتلكات على نحو مثمر، مع تخصيص قدر من الدخل في عون المعوزين وخدمة المجتمع.
- للمجتمع، وللحكومة التي يقيمها المجتمع على أساس الشورى أن يقرر ما يدخل في باب (المعروف) وما يدخل في باب (المنكر) استناداً إلى المبادئ الخلقية والدينية المقررة.
- العمل له نبالته الخاصة، ويستحق العامل أجراً عادلاً على عمله.
- الإنسان مكلف بكسب العلم وبإعمال العقل، واستخدام المعرفة التي

حصلها على هذا النحو في نفع الناس ومرضاة الله.

• ويضيف الخبيران : أنه يتجلى من تعمق هذه النقاط أن الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم الناجح في العصر الحديث، ليس هذا فحسب، بل إنها كذلك تقدم للشعب المصري المبادئ التي يمكن أن يقيموا عليها ديمقراطيتهم الجديدة التي تتميز بالقيادة الإيجابية الفعالة، ومشاركة الشعب في الحكم، وتحري استخدام الثورة الخاصة والعامة لخير الأمة.

• وإنه إذا صح ما ذهبنا إليه في تلك العجالة القصيرة، فإن الثقافة الإسلامية تكون أبعد الأشياء عن إعاقة سير التقدم والتطور في النظم الحكومية، كما تكون أبعد الأشياء عن الدعوة إلى الطاعة العمياء، أو التثبث بالتقاليد البالية، ذلك أن الثقافة الإسلامية تشجع الإنسان على استخدام عقله في تقدير مقتضيات العالم الحديث من الاطمئنان إلى القيادة المسؤولة، وتبادل الرأي والمشورة^(٣).

هذه الرؤية والنظرة التي قدمت نستخلص منها ما يلي :

١ - معرفة الدور المهم للبيئة الثقافية والاجتماعية عند وضع أسس ومبادئ الحكم والإدارة.

٢ - عمق المنظومة الإسلامية وفعاليتها في مد الثقافة والقيم والمبادئ الإنسانية والاجتماعية في كافة مجالات المؤسسة وتوسعاتها بحيث تشمل الدولة ببعدها السياسي والإداري والاقتصادي.

نظرية النظم والنظام الإداري وفق المفهوم الإسلامي

لا تنطلق اسقاطتنا من واقع إيجاد مطابقة مع نظرية النظم، وإنما محاكاة العقل الإداري والقيادات الإدارية على وفق لغة الإدارة، وتقريب المفاهيم والنظم الإسلامية التي أرساها وفعلها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأكد عليها،

ووظفها وفق معطيات الزمان والمكان الأئمة عليهم السلام، سيما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن سار على نهجهم من خلال تركيز الضوء على :

أ - التكامل والشمول في النظام الإسلامي، ومن ضمنه القيم والمبادئ الإدارية، ونظام القيادة الإدارية.

ب - تحديد وفهم معمق لدور النظم التي وضعتها الشريعة من ناحية إدارية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية وغيرها.

مستويات المنظومة ومحتوياتها

الفرد : لقد وضعت الشريعة الغراء نظاماً متكاملاً لهذا الفرد ومجتمعه بتوسعاته، حيث تبدأ بتحديد الأهداف بالنسبة للفرد مع وضع الآليات للوصول إليها، ووضع هامش وحيز واضح ومتناسب مع كل فرد في تداول وتفعيل هذه الآليات للوصول للأهداف، وفق قواعد ضمت حقه عبر عدة مستويات، منها: حقه المنطلق من قوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة : ٢٥٦

وعلى أساس :

﴿لَا نَكْلِفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الأنعام : ١٥٢

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق : ٧

مع ملاحظة :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فاطر : ١٨

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَةٌ﴾ المدثر : ٣٨

وتنطلق به نحو مجموعات التي تتوسع من خلال النكاح، والتي تحفظ النسل والنسب، فتحدد له :

﴿فَانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ النساء : ٣

وفق شروط أساسية تحكمها قاعدة :

﴿فَامْسَاكْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ البقرة : ٢٢٩

وهكذا تتدرج به نحو صلة الأرحام :

كما قال النبي محمد صلى الله عليه وآله :

«صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمران الديار، ويزدن

الأعمار»^(٤)

وحق الجار :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن

مسلياً»^(٥)

ثم المجتمع المسلم :

«أيها الناس اتقوا الله! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم

من تراب. إن أكرمكم عند الله اتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ

بالتقوى»^(٦)

الأوسع وهو المجتمع الدولي : الذي يضم المسلم وغيره من أهل الذمة :

«الناس كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»^(٧)

وهناك تعبير آخر: (الخلق) بدل (الناس).

المجتمع الإنساني : بأبعاد أوسع من المجتمع المسلم وغيره :

قال الرسول صلى الله عليه وآله : «الناس ولد آدم، وآدم من تراب»^(٨)

ولكن ربط هذه الدوائر بصفات الدوام والبقاء والخلود في حياته صلى الله

عليه وآله، وحين اقتراب أجله، ولما بعد رحيله عنا عبر منهج متكامل، أرجعه

إلى قاعدة رائعة في الترابط بين الوحي الإلهي والنطق المعصوم، عبر حديث

الثقلين الذي تضافرت على ذكره مصادر المسلمين، فقد أخرج: (مسلم في صحيحه حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً بهاء يدعى مُحَا بَيْن مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، وذكر، ثم قال: أما بعد؛ ألا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور؛ فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي...) (٩)

وهو صلى الله عليه وآله الذي عبر عنه القرآن الكريم:

﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ النجم: ٣

والذي يربط بين المبادئ الإسلامية والأصول الإلهية وآليات التطبيق عبر الزمان والمكان وفق رؤية معصومة تنسجم مع جوهر الدين وروحه، وتبتعد وتنفر عن الانحرافات والنزاعات التي قد تختلج الإنسان في حال تجاذبته السبل:

﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ الأنعام:

١٥٣.

ان هذه المقاربة تجعل نظرية تحليل النظم أو ما يعرف بـ Agreach أو System Approach (١٠) تقترب بشكل كبير من الرؤية الإسلامية التي تغطي مجمل مفاصل المحيط الإنساني بتكاليفه وموضوعاته وأحكامه؛ فهذه النظرية [تحدد مفهوم النظام ومقوماته وعلاقة النظم الرئيسية (الأكبر) بالنظم الفرعية (الأصغر)، ومدى تأثير النظم الفرعية بالبيئة الخارجية لها التي تحكم النظام الأكبر الرئيسية] (١١)، فالمحور الذي تتحرك عليه الرؤية الإسلامية يتمحور حول التكامل الإنساني المتكون من كمال الإنسان بمفرداته، وعلى ضوء

هذا نجد أن الرؤية الإسلامية في بناء الإنسان والإنسانية عبر أحكام شرعية متنوعة في فروع الدين، وكذلك ما بنيت عليه من أصول الدين حددت علاقات الفروع بعضها مع البعض الآخر، ونسجت منها ما يحقق الآليات التي يسعى من خلالها للوصول إلى الأهداف العامة عبر حلقات تتسع وتتضيق وفق مستوى حركة التأثير والتأثر، فتتكون منظومة عالية من الدقة في الترابط والتواصل والبناء، ينطلق من الفرد لبناء أصالته حتى يصل لمرحلة تكامله بالمجتمع.

وقد حقق ذلك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من خلال حديثه وخطبه وممارساته بأن يربط ما بين جميع مفاصل حركة هذا التشريع سواء بوجوده أو بعد رحيله إلى الباري عز وجل؛ حيث ختم حديثه بحديث الثقلين الذي تضافرت مصادر المسلمين على نقله وتداوله، لكن من المؤسف أن هناك من تقاعس عن إدراك أبعاده. فعند ما تأتي إلى ذكر كتاب الله وعترتي أهل بيتي هنا، نجد ربطاً بين الوحي الإلهي والنطق الإلهي وبين المعصوم؛ بمعنى أنه وضع الأساس المنهجي لجميع التعاملات والنظام الأساسي للتداول في هذا التشريع وفق رؤية الكتاب العزيز والعتر الطاهرة عليهم السلام من الأئمة المعصومين، فوضع دائرة العمل باتساعها وبكلياتها المولد على ضوء الزمان والمكان المفردات الجزئية المطورة والفاعلة.

فالإسلام نظام متكامل لديه أسس ثابتة ومبادئ عليا تنظم مسيرته وحركته بصفته خاتم الرسالات والمنهج لها، فكيف يكون منهجاً خاتماً؟! ولا يحوي أسساً ومبادئ إدارية تمتلكها أبسط المؤسسات الفردية بجهود بشرية عادية جداً عند مقايضة هذا الأمر بالرسالة السماوية، إننا لابد أن ننظر بعين المختص؛ إذ نجد أن في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وفي منهجه وحركته وتعاطيه مع واقع الحياة، قبل البعثة وبعدها، وقبل انتقاله للباري عز وجل وبعد ذلك،

نجد أننا أمام مجالات لا حصر لها عند التعمق والتأمل فيها، لكي نحدد من خلالها المبادئ الأساسية لضبط إيقاع مفردات حياتنا اليومية والمستقبلية، ومنها المبادئ الإدارية في حركتنا والقيادة الإدارية، مع ملاحظة ومراعاة مدى العلاقة والترابط بين المبادئ التشريعية في الشريعة الإسلامية المعتمد في مصادرها التي دعا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باتباعها، وبين الأهداف المطلوب تحقيقها من خلال تلك المصادر، والتي مرجعها للقرآن والعرة.

فعندما نحدد مستويات هذه النظم على المستوى الاجتماعي - مثلاً - نجد أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حرص على عدة أمور تقوي الترابط والتواصل الفاعل وفق أسس إدارية. فالمسجد - مثلاً - له أسس وشرائط في أحكام المسجد، كطبيعة التجمع، وصلاة الجماعة والجمعة، وله شرائط في إمامة الجمعة والجماعة، وله شرائط في المصلي والاعتكاف، وآداب، وغيرها من الأمور التي تجسد منظمة ذات نظم فرعية تتمحور عليها منظمات أخرى تتشكل منها مستويات عدة، تتسع وتضيق بحسب دائرة التأثير والتأثر، تنطلق من مستوى إلى آخر كما في الشكل (١) التالي :



ولنا أن نستوحي على ضوء ذلك ما يلي :

أولاً : ان الأنظمة التي عقدت على أساسها حركة هذا الفرد وتوسعاته ذاتاً، أو بما يتصل بأبعاده التي تم ذكرها آنفاً، تعطيه أنظمة بالغة الدقة في الوصول

للهدف عند مراعاتها؛ إذ أن الشكل رقم (١) يمثل المجتمع [كنظام يتكون من عدة نظم فرعية، الفرد فيها هو المستوى الأول من تلك النظم (رغم أنه يمكن تقسيمه إلى نظم فرعية أصغر كما قدمنا، ويتوقف التفصيل من المستويات الأصغر من النظم على طبيعة النظام موضوع الدراسة)^(١٢). والأسرة والمسجد والمنشأة التجارية والصناعية والنادي والهيئة الحكومية... الخ، تقع في المستوى الثاني؛ إذ تضم عدة أفراد. والمجتمع ككل يقع في المستوى الثالث؛ إذ يضم هذه النظم جميعاً. وطبقاً لهذا التقسيم يسمى النظام الذي يضم عدة نظم فرعية بالنظام الأكبر، ويمثل النظام الأكبر البيئة الخارجية environment لكل من النظم الفرعية^(١٣) مع مراعاة التبادل العكسي بين المستويات، والتبادل العكسي بين المستوى في ذاته.

ثانياً: تتوحد دائرة الاتصال بين جميع الأجزاء والمفردات التي يحويها كل نظام فرعي مما يصنع عليها طبيعة التناسق والانسجام المؤدي لمزيد من التكامل والتناسك والتطور والمنتج للإبداع نحو معطيات الزمان والمكان، وبمجرد إيجاد خلل في ذلك تجد أن حركة هذا النظام تضطرب؛ فتتباطئ حركة الإبداع، ومن ثم التطور، ومن ثم التماسك والتكامل، وهكذا حتى يصل إلى مرحلة الانهيار التام.

ومما يمكن أن يذكر بهذا الصدد أن حركة العلم في التشريع السماوي الإسلامي قد أكد عليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشكل كبير، حتى نعت أنه دين العلم عند البعض، فانطلقت الشريعة من خلال قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ سورة العلق

وورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(١٤)

وقوله عليه السلام :

«العلم حياة الإسلام، وعماد الإيمان، ومن عَلِمَ علماً أتم الله له أجره، ومن تعلَّم فعمل علمه الله ولم يعلم»^(١٥)

ولم يحدد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مقررأ معيناً أو علماً معيناً كما يود البعض توظيف ذلك، بل فتح بوابة التلقي على مصراعيها، مع الحرص على عدم التعارض مع الشريعة الإسلامية، والحث عليها. فحاول البعض توظيف ذلك بأبعاد؛ حيث جعل - مثلاً - من علم الفلسفة إلحاد فجمد حركته، والآخر جمد حركة بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء. ومن المعاصرين من تجاوز ذلك وسحق علوم الشريعة ووظف مفرداتها للعلوم الطبيعية من دون اعتدال أو مراعاة للتخصص والمجال والمنهج، مما جعل طغيان بعض العلوم على بعضها البعض، وسيطرة علم معين على علوم أخرى، وبمعنى أدق سيطرة علماء معينين على طبقة من العلماء في المجالات الأخرى، فخرجت فتاوى التكفير والزندقة التي أدت إلى شل الحركة العلمية في مجال ما من المجالات، أو إقصاء لعلوم الشريعة. وهذا تأخر وتباطؤ سبب التخلف عن ركاب التطور والمعرفة؛ حيث توسعت علوم إنسانية عديدة لم نواكب التطور فيها ولم نتطور بها أصلاً، فضلاً عن العلوم الطبيعية كالفلك والفيزياء والكيمياء، مما أوجب اضطراباً في حركتنا العلمية أدت بنا إلى وضعنا في آخر صف من طوابير المعرفة، إن لم نكن خارج صفوفه !! مع العلم عندما كنّا نرسم الأطر الحضارية للإنسانية كانت أهم ما فيها ان حركة البحث العلمي تسير بشكل متوازي ومتلاقح مع وجود نزاعات، لكن ضمن دائرة البحث العلمي والأسس العلمية حتى أصبحنا من أبرز الأمم في العلوم الإنسانية والطبيعية، بل على حد سواء وقد كان العالم عندنا يتقن أكثر من علم في الطبيعيات أو الإنسانيات، وابن سينا والفارابي وغيرهم خير شاهد على ذلك؛ إذ أبدعوا في مجالات عديدة حتى

الموسيقى، وعلى ضوابط لا تعارض الشريعة. لكن حتى هؤلاء إن لم تصبهم نار التعصب والجهل في زمانهم فقد نالتهم عقول التحجر في أزمنة لاحقة تلتهم، فأصبحوا من ضمن قائمة الإلحاد والزندقة، علماً أننا قدمنا نموذجاً حضارياً فريداً خدم الإنسانية جمعاء ببركة دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله.

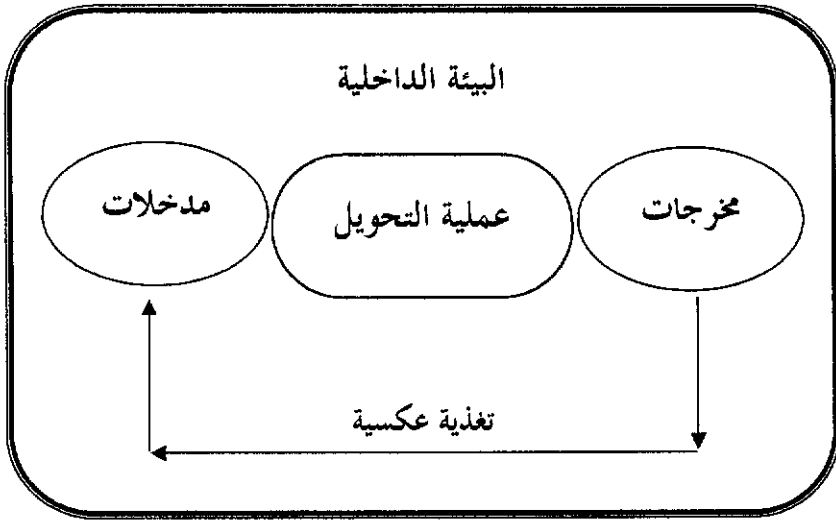
والمتتبع لسيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يرى أنه كان يستقبل الآراء الإبداعية، ويفعلها في دائرة العمل حتى الميداني الحساس، فمثلاً ما حدث مع سلمان الفارسي في غزوة الخندق وفق بعض مصادر التاريخ الإسلامية من حفر الخندق حول المدينة كان أسلوباً متبعاً في المعارك في غير جزيرة العرب، فعرضت الفكرة على النبي صلى الله عليه وآله واعتمدها كأسلوب في القتال مع المشركين، مع العلم أن المعركة كانت إحدى المعارك المصيرية، وكذلك الامتداد الذي ورثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند أبنائه المعصومين عليهم السلام، من قبيل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليها السلام، الذي كان أحد تلامذته من جهابذة الكيمياء، وهو جابر بن حيان، أو هشام بن الحكم في علم الكلام^(١٦) بينا نجد التعصب يعمي عيون البعض حتى نعت علم المنطق بالترندق.

ثالثاً: يقوم النظام الإسلامي على تحقيق هدف معين يحكم أنشطته وفعالياته وحركته في كافة مستوياته، بحيث تنعكس على جميع الجزئيات، والتي تعد السبب الرئيسي لوجود هذا النظام؛ وهذا ما تعكسه النظم الفرعية فيه؛ إذ عليها أن تغذي دائرة النظم الرئيسية نحو تحقيق الأهداف الجزئية للوصول للهدف الرئيسي.

وقد حددت كل ذلك معطيات النظرية الإسلامية والتي تتناسب معها نظرية النظم؛ إذ تتبنى الأخيرة الآليات التالية كعناصر محركه وفاعله ومغذية وفق مخطط عناصر النظام.

مخطط عناصر النظام في نظرية النظم

البيئة الخارجية



ولكي نقف على مصطلحات المخطط نجد أن :

• المدخلات Inputs :

وهي عبارة عن الموارد والعناصر التي تشكل المادة الأساسية اللازمة للعملية الانتاجية، وعناصر البيئة التي تؤثر في بناء التنظيم، وتحديد الأهداف والاستراتيجيات والسياسات.

• العمليات Processes :

ويقصد بها كافة العمليات التمويلية التي تساعد على تغيير طبيعة العناصر بالشكل والمضمون، والذي تم تحديده في شكل مخرجات.

• المخرجات Outputs :

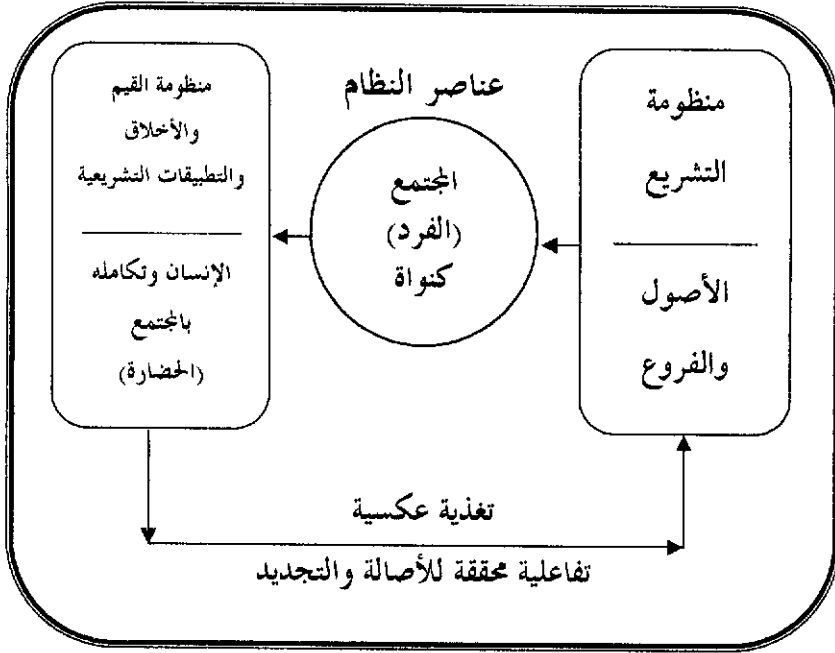
وهي النتائج المترتبة على العملية التمويلية.

• التغذية العكسية Feed Back :

عبارة عن تدفق المعلومات المرثدة بين المنظومة والبيئة، أو بين البيئة

والمنظومة.

ولو أردنا اسقاط ذلك على ما لدينا من أسس نجد الشكل التالي :



ان الأهمية التي تحتويها نظرية النظم وما تنسجم به مع المنظومة الإسلامية هو اعتبارها التنظيم والإدارة كلاً متكاملًا وواحدًا مكوناً من أجزاء تتفاعل مع بعضها البعض لتحقيق الأهداف فهي :

- ١ - توجه عملية التحليل إلى الكل أولاً ثم القيام بعملية التحليل للأجزاء.
- ٢ - التكامل هو الهدف الأساسي من تحليل الكل، مما يعني التحليل المتبادل للعلاقات المتبادلة أو المتداخلة للأجزاء داخل الكل.
- ٣ - كل تغيير أو تحويل في أحد الأجزاء يحسب له حساب خاص بملاحظة أثره المتوقع على كل جزء من أجزاء النظام.
- ٤ - كل جزء له دور بحجمه من الكل، لذا لا يهمل من حسابات تحقيق الأهداف.

٥ - طبيعة عمل الجزء ووظيفته تتوقف على موقفه من النظام ككل مع هامش واسع في التطوير والتكامل.

٦ - تبدأت عمليات التحليل جميعها في ظل تواجد النظام ككل. هذه القابليات الواسعة جعلت من هذا التصور لهذه المنظومة أن البعض يعيب عليها أنها تميل للمثالية وصعوبة تحديد ذلك التواصل، لكن مع الأبعاد التي يتمتع بها المعصوم على مستوى التكوين والتشريع تجعل من هذه النظرية أصغر بكثير من حجم سعته الوجودية، وإدارته التنفيذية لمتطلبات التشريع والتكوين.

المبادئ الإدارية والقيم الاجتماعية رؤية إسلامية

وفق الرؤية التي تم عرضها نجد أن المجتمع هو مجال التكامل للفرد عند حركته على وفق مبادئ وقيم المنظومة الإسلامية، سيما في بعدها الإداري. ومما يعني أن هناك انعكاساً متبادلاً في ذلك للقيم الاجتماعية والمبادئ الإدارية، يشكل علاقة وثيقة بين التكامل الفردي والتكامل الاجتماعي، والذي تتشكل منه مفردات التكامل في الحياة الخاصة الفردية والأسرية والعائلية، والحياة العامة الاجتماعية وأبعادها الخارجية عبر تناسق وانسجام تام ينعكس من خلال ما أشرنا إليه في الشكل الذي يحاكي مخطط عناصر النظام في نظرية النظم الأنف الذكر.

إن القيم المنعكسة الناتجة عن تفاعل الفرد مع تطبيقاته العلمية والعملية لمنظومة التشريع ذاتاً، وتكامله عبر المجتمع تتجسد أمامه قيم اجتماعية تضع له إطاراً تتشكل منه القيم الاجتماعية التي تحكم سلوك الفرد والمجتمع أو العكس.

مما يعني أننا عشنا عملية تحويل الصياغة النظرية إلى صياغة عملية في معظم

تعاليم الدين الخفيف، وهذا ما فعله النبي محمد صلى الله عليه وآله؛ حيث أرسى القيم الاجتماعية العليا، ووظفها بشكل فاعل في حياة الفرد والمجتمع، فجعل منها:

- ١ - سلوكاً اجتماعياً فردياً منظماً لحياة الفرد الخاصة.
 - ٢ - سلوكاً اجتماعياً للمجتمع منظماً للحياة العامة.
 - ٣ - رسخ قسم التكافل والتضامن والتعاون في الحياة العامة.
 - ٤ - أرسى البعد الاجتماعي في التعاطي، مما عكس مسؤولية الفرد وقيمومته على المجتمع.
 - ٥ - بث روح العدالة والتسامح والرحمة والمحبة والتآخي فردياً واجتماعياً.
 - ٦ - جعل من المجتمع عنصراً فاعلاً في تطوير حياته وعلاقاته الثقافية والاجتماعية بصورة فاعلة وداعية للفضيلة.
 - ٧ - رسخ روح الرقابة الذاتية ببعدها الاجتماعي والفردي.
 - ٨ - جعل الفرد بعداً اجتماعياً فضلاً عن المجتمع؛ بمعنى أنه وضع نظام داخل نظام بشكل متكامل، أي: [صاغ الدين حياة الأفراد صياغة اجتماعية، بأن جعل الفرد دولة داخل الدولة] ^(١٧).
- كل هذه القواعد والمبادئ التي تم إرسائها جعلت من البيئة الداخلية والخارجية للفرد المسلم أو المجتمع الإسلامي تحمل أبعاداً وقيماً اجتماعية إنسانية عالية، وداعية للتكامل والتحضر الاجتماعي والإنساني.
- وقد ذكرت الدراسات المعنية بالتنظير والاستنباط الفقهي، والتي قامت بتحليل أساليب إدارة الفرد والمجتمع، وتأمين احتياجاته الاجتماعية والاقتصادية مثل الزكاة والخمس والحراج والوقف وغيرها ذلك؛ حيث إنها وضعت [مبدأ الضمان الاجتماعي - الذي - يركز في المذهب الاقتصادي الإسلامي على أساسين :

أحدهما : التكافل العام

والآخر : حق الجماعة في موارد الدولة العامة

.... فالأساس الأول للضمان الاجتماعي هو التكافل العام، والتكافل العام هو المبدأ الذي يفرض فيه الإسلام على المسلمين كفاية وكفالة بعضهم لبعض، ويجعل من هذه الكفالة فريضة على المسلم في حدود ظروفه وإمكاناته، يجب عليه أن يؤديها على أي حال كما يؤدي سائر فرائضه... والضمان الاجتماعي الذي تمارسه الدولة على أساس هذا المبدأ للتكافل العام بين المسلمين يعبر في الحقيقة عن دور الدولة في إلزام رعاياها بامتنال ما يكلفون به شرعاً، ورعايتها لتطبيق المسلمين أحكام الإسلام على أنفسهم. فهي بوصفها الأمينة على تطبيق أحكام الإسلام، والقادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسئولة عن أمانتها ومخولة حق إكراه كل فرد على أداء واجباته الشرعية، وامتثال التكاليف التي كلفه الله بها....

أما الأساس الثاني وهو حق الجماعة في مصادر الثروة، وعلى أساس هذا الحق تكون الدولة مسئولة بصورة مباشرة عن ضمان معيشة المعوزين والعاجزين، بقطع النظر عن الكفالة الواجبة على أفراد المسلمين أنفسهم... فإن هذه المسئولية لا تفرض على الدولة ضمان الفرد في حدود حاجاته الحياتية فحسب، بل تفرض عليها أن تضمن للفرد مستوى الكفاية من المعيشة الذي بحياة أفراد المجتمع الإسلامي؛ لأن ضمان الدولة هنا ضمان إعالة، وإعالة الفرد هي القيام بمعيشته وإمداده بكفايته [١٨].

إن قيم التضامن الاجتماعي، والتكافل الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية، والتعاون على البر والتقوى، والنهي عن الاثم والعدوان، والتي دعا لها القرآن الكريم والنبى محمد صلى الله عليه وآله، شكلت لنا سلسلة من النظم والمبادئ الإدارية العليا لإدارة الفرد والمجتمع والدولة.

لقد تميز النظام الإداري الإسلامي بما يسميه البعض (بالخصيصة الشعبية)، [فقد كان المسجد مركز الإدارة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمارس أعمال الإدارة فيه، وكان يتخذ العمال الرسميين من أصحابه، وكان كل صاحب^(١٩) يقوم بجميع أعمال الولاية العامة، ويرعى بنفسه مصالح المسلمين... وقد وضعت الشريعة الإسلامية معايير الصواب، وجعلته عقيدة للناس وإيماناً لهم، وبذلك اعتمدت على أن يقوم أفراد الأمة بإدارة أنفسهم]^(٢٠).

[إن نظرية الإدارة في الإسلام مرتبطة بالفلسفة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي، ومرتبطة بأخلاقيات وقيم المجتمع الإسلامي؛ ولذلك نجد أن نظرية الإدارة في الإسلام - والمبادئ الإدارية المتفرعة منها - قد أدخلت بعداً اجتماعياً هاماً ومؤثراً على السلوك الإداري داخل المنظمة، وهو البعد الأخلاقي]^(٢١).

على ضوء هذا لنا أن نقعد المبادئ الإدارية التي تحكمها الرؤية الإسلامية وعلاقتها بالقيم الاجتماعية على أسس تتماشى مع الفكر الإداري الحديث، حيث تتمحور هذه المبادئ على قواعد أساسية، والتي تركز على أبعاد أو قيم اجتماعية عالية، لذا جدير أن تكون مبادئ إدارية مثل لسبك حلقات المجتمع وتنظيم حياة الفرد فيه، مدعومة بالمبادئ الإدارية الأخرى الفاعلة في التنظيم والقواعد هي التالية :

١ - التواصل والترابط في العلاقات الإنسانية.

٢ - الرقابة والتقويم الذاتي والخارجي.

٣ - الاختيار الأمثل (الكفاءة والصلاحية).

٤ - التنظيم (نظم الأمر).

أسلوب القيادة الإدارية وفق الرؤية الإسلامية

وقفة مع الأسلوب الإداري والقيادي في الرسالة المحمدية :

إن طبيعة النظم التي تحكم المنظومة التشريعية للشريعة الإسلامية أصولاً وفروعاً لربما اتضحت معالمها مما تقدم، إلا أننا لنا أن نقف قليلاً عند الأسلوب المتبع في التطبيق، والذي يبرز فيه القائد كعنصر أساسي ورئيسي ومؤسس وقُدوة عبر الأساليب التي اتبعها النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله أولاً، وأئمة آل البيت عليهم السلام من بعده سيراً على نهجه المبارك، ومن سار على نهجهم أو استوحى منهم.

وعلى ضوء هذا لا بد لنا أن نقف عند عناصر أساسية في فهم القيادة على ضوء الرؤية الإسلامية مقارنة بغيرها من الأساليب التي وضعت رؤى على مستوى نظريات مطبقة في عصرنا الحالي؛ قد تقترب وقد تباعد عن المنظور الإسلامي والمستوفي من خلال ما توفر في الواقع الإسلامي آنذاك.

أولاً: مفهوم القيادة والرؤية الإسلامية

تناولت الدراسات المعاصرة^(٢٢) هذا المفهوم عبر عدة تعريفات، وبالطبع

تحت مظلة العلوم الإدارية تحت عدة اتجاهات نجملها بما يلي :

- القيادة : هي النشاط الإيجابي الذي يباشره شخص معين في مجال الإشراف الإداري على الآخرين؛ لتحقيق هدف معين بوسيلة التأثير، أو الاستئالة، أو باستعمال السلطة الرسمية بالقدر المناسب وعند الضرورة.
- القيادة : هي عملية التأثير على جماعة في موقف معين، وزمن وظروف معينة؛ لدفع الأفراد على أداء سلوك معين يحقق أهداف المجموعة وأهداف التنظيم.

- القيادة : عبارة عن مقدرة فرد في التأثير على الآخرين من أجل القيام بتنفيذ أهداف محددة، فعند فرز هذه التعاريف على اختلاف مشاربها فهي تركز

على عناصر أساسية، هي :

١ - الأهداف.

١ - الأفراد.

٢ - فرد مؤثر وقائد.

٣ - المجموعة.

٤ - وهذه قد تتفق في رؤيتها العامة مع المفهوم الإسلامي إلا أنها تخلق في إطار عام يتنافى مع طبيعة المهام الموكلة للقائد، لذا نجد أن المفهوم الإسلامي للقيادة يضيف إلى ذلك أنه :

٥ - يحدد للأهداف إطاراً معيناً ذو ضوابط.

٦ - يحدد طبيعة الأفراد وضوابطهم.

٧ - يتعامل مع المجموعة (إن صح التعبير) بـ :

أ - مجموع الفرد.

ب : مجموع الأفراد.

وهذه نقطة افتراق جوهرية قد يحاول البعض تجاوزها من خلال تعميم التعريف، لكن هذا يتعارض مع قواعد التعريف من جامعية ومانعية عن دخول الأغيار، وبطبيعة الحال لا بد من ضوابط تحدد الأطر الرئيسية لهذا القائد طبقاً لفداحة مهمته، والتي في الغالب تكون خطيرة وذات مسؤولية كبيرة أكثر منها مناصب ومهام تشريفية و (بروتوكولية)؛ إذ ليس من مهام وسمات القائد أن يحاول استخدام أساليب نجاح في أطر معينة متجاوزاً بذلك الأطر الإنسانية والأعراف الأخلاقية، كاتباعه لأسلوب القهر والخداع والغش، وهذا ما لا يتبأنى عليه العقلاء فضلاً عن غيرهم؛ حيث كان فئة في الحرس الملكي الفرنسي تسمى الفرسان، تتسم بسمات عالية من النبيل لديهم نعتت من لديه شرف وإنسانية بالقتال يحمل أخلاق الفارس، حتى أصبح لقباً مرموقاً يلقب به ذو

المكانة العالية لدى الأمم والممالك، أو ما نجده في شرق آسيا من الساموراي، وغير ذلك.

لذا ضوابط القيادة وفق الرؤية الإسلامية هي القمة على مستوى السمات والخصائص والدين، لذا تفاوتت النظريات الكلامية في التعاطي معها متناولة بعداً من أبعاد القائد والقيادة، سواء كان سياسياً أو إدارياً أو دينياً. وهذا ما يستشف من المباحث العقلية في مفهوم الإمامة، والتي أرقى ما تبلورت في العرض هي نظرية النص التي تضمن في القائد والقيادة ومقرراتها الأهلية العالية لذلك بكافة الأبعاد، أو وفق ما يقرره مصدر النص. أما غيرها من النظريات فلا تكاد تخلو من مؤاخذات من هنا وهناك، خصوصاً إذا نظرنا للقيادة على أنها تكليف ومسؤولية، وليست دون ذلك.

ثانياً: أهداف القيادة والرؤية الإسلامية.

الدين الإسلامي وضع قاعدة مفتوحة لتحديد الأهداف تأطر باطار عدم مخالفة حدود الله، وهذا ما أكدت عليه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة كحديث الثقلين الذي وضع إطاراً لذلك، أما على مستوى التخصيص أكثر فأكثر فذلك على وفق ما تقدم تنزل الأهداف، وتصاغ كأهداف تنظيمية فردية أو جماعية أو فرعية أو كلية، لذا القائد الإسلامي هو من يحقق الأهداف التي حددت في الرسالة المحمدية من خلال الكتاب والعترة، وهذا فرع قبوله هو إدراكه لذلك. وهذا لا يتحقق إلا أن يكون عين ذلك الإطار وموضوعه ومحتواه، وإما أن يكون مؤذناً له من قبل ذلك المورد في حركته الاجتماعية والسياسية والإدارية والتعليمية والاقتصادية وغير ذلك، لذا مقياس القيادة الناجحة هو مدى تحقيقها لأهداف الثقلين. من هنا تبرز أهمية النجاح الذي تحقق في القيادة الحسينية والقيادة العلوية، وكذلك بقية الأئمة عليهم السلام بما سمحت به الظروف التي تغافلت عن قدراتهم، التي لو تحققت لكنا على اعتبار

قرنين ونصف تقريباً من أزهى أزمنة الإنسانية، لكن من المؤسف أنها لم تلتزم هذه الأمة بتعاليم قيادة الرسول وتوجيهاته العليا نحو الديمومة والاستقرار والتطور والعدل، والتي نص عليها في حديث الثقلين.

ثالثاً: ضرورة القيادة والرؤية الإسلامية.

للقيادة أهمية بالغة لم تغفلها الدراسات الإسلامية، وإن حصرت في الدراسات والتراث على مستوى بحوث كلامية أو قيادات عسكرية أو سياسية، حتى أكد عليها النبي محمد صلى الله عليه وآله في بعض المصادر الإسلامية (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) وقوله عليه الصلاة والسلام: إذا خرج ثلاثة من سفر فليؤمروا عليهم أحدهم، كما نقله أبو داود وما اتفق عليه (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

رابعاً: صفات القائد الإداري والرؤية الإسلامية.

سعت الاتجاهات التي تناولت القيادة، والدراسات التي تبحث في الصفات القيادية، أو نظرية الرجل العظيم لتحديد الكفاءات الإدارية الناجحة، وقد باشر بذلك عدة من الباحثين منهم: رالف ستدلج، وادون سيزلي، وقد حصرا هذه الصفات بـ:

(١) القدرة على الإشراف.

(٢) الذكاء.

(٣) المبادرة.

(٤) الثقة بالنفس.

(٥) القدرة على اتخاذ القرارات.

(٦) المستوى المرتفع للإنجاز.

(٧) اتساع الاهتمامات والنضج الاجتماعي المرتفع.

واتفقت معظم الدراسات الأمريكية والأوروبية على صفة القدرة، والذكاء،

والإشراف، والمبادرة، والقدرة على اتخاذ القرارات، وارتفاع درجات الإنجاز، لكن هناك دراسات توصلت إلى صفات أخرى، كالاتجاه السلوكي والاتجاه الشرطي (٢٣).

إلا أن الرؤية الإسلامية حرصت على القدرات والأبعاد العليا من الإنسانية، وقد لخصت من خلال أن الإمامة تكون بالنص الإلهي، والذي يرد عبر لسان المعصوم عليه السلام، وهذا النص يتبنى قيادة تحمل سمات المعصوم التشريعية والتكوينية، والتي تحقق الهدف الإلهي، والتي عبرت عنه بحجة الله في أرضه في النصوص الروائية. وبذلك تناولت المقاييس التي تحكم أبعاد الإنسان، لا أنها حصرت دائرة الاختيار عبر الأبعاد الدنيوية، أو الصفات، الخارجية، أو البدنية، بل حرصت على أن يكون البعد ذو سمات تتماشى مع الإنسان في نشأته الدنيوية والأخروية. هذا على مستوى حجة الله في أرضه، أو خليفة الله في أرضه، على وفق المصطلح القرآني. نعم، ما كان على مستويات أدنى من النبوة والإمامة، فهنا تدخل دائرة أقل من الشرائط يحددها المعصوم عليه السلام، ولها إطار يبدأ في درجات متفاوتة على وفق المهام والمسؤوليات، لكن يبرز في معظمها عنصر الكفاءة والعدالة.

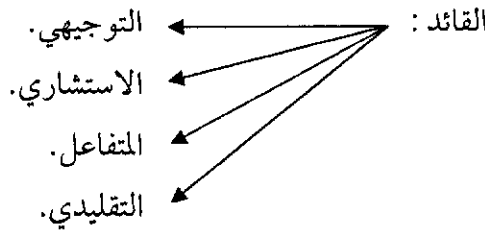
ومن أجل ما اتسمت به القيادة المحمدية هو التواضع، وهذه السمة سرت على طبيعة قيادة أئمة أهل البيت عليهم السلام، والتي أكدت البحوث [أن القائد الذي يعتبر نفسه واحداً من المجموعة التي يقودها يشجع الاتصالات المتبادلة بينه وبين المرؤسين، ويخلق المحبة والثقة بينه وبينهم، وتزداد رغبة المرؤسين في تنفيذ توجيهاته، وحبهم ورغبتهم في المشاركة الإيجابية في تنفيذ قراراته] (٢٤) وفي هذا قال الله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ آل عمران ١٥٩.

علماً أن هناك في التاريخ الإسلامي ممن نعتوا بالقيادات كانوا غلاظاً شداداً

في تعاطيهم مع الرعية، لكن كأنها المسلمين أغفلوا ذلك في تعاطيهم، ونعتوا من كان متواضعاً سمحاً بنعوت لا مجال لذكرها.

خامساً: أنواع القيادة والرؤية الإسلامية.

ذكرت الدراسات الإدارية أن هناك وفق تصنيفات الفكر الإداري العالمي أربع أنواع للقيادة (٢٥) :



١ - القائد التوجيهي :

والذي نعت بعدة تسميات، منها: قائد مهتم بالإنتاج، وقائد مهتم بهيكلية المنظمة، وقائد ذونظرية، وقائد النظام، والقائد البيروقراطي. ومن سماته :

(أ) يهتم بالإنتاج والمهام.

(ب) لا يهتم بالعلاقات الإنسانية حتى مع مساعديه.

(ج) يهتم بالمراقبة والتوجيه والتخطيط.

(د) يحدد الأعمال لمساعديه، ويرغب بتحديدتها كما هو يريد.

(هـ) لا يسمح بالنقاش أو التشاور حتى في الاجتماعات.

(و) يفضل الرقابة المباشرة على كل شيء.

(ز) معظم الأوامر تتدرج من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

(ح) يرى أن تحريك مساعديه من خلال الحاجات المادية بالدرجة

الأولى.

٢ - القائد الاستشاري :

نعت بأنه القائد المهتم بالعاملين، وسماته :

- (أ) يهتم بالعلاقات الإنسانية.
- (ب) يوثق علاقته بمساعديه.
- (ج) ينشئ مجموعات عمل جيدة.
- (د) يشرك الآخرين في قراراته.
- (هـ) يفوض السلطات.
- (و) يدعم المساعدين في تنفيذ القرارات.
- (ز) يقوم بالإشراف العام لا الدقيق.
- (ح) ينمي الرقابة الذاتية للأفراد.
- (ط) لا يسطر على النقاش في الاجتماعات.

٣- القائد المتفاعل :

ينعت بالقائد المهتم بالهيكل، والمعتبر للعاملين، وهو يشابه القائد الاستشاري الديمقراطي في سماته، لكنه يهتم :

- (أ) بمجموعات العمل وأرقام الإنتاج.
- (ب) يشترك مع مجموعات اشتراك فعلي في التخطيط والتوجيه والنشاط.
- (ج) يضع أهداف معقولة وليست منخفضة.
- (د) يستخدم عادة حوافز الإنجاز في دفع مجموعته للعمل.

٤- القائد التقليدي :

- وينعت بالقائد الثابت أو الروتيني، ومن سماته :
- (أ) منخفض في سلوكه نحو المهام والعلاقات الإنسانية.
- (ب) يتخذ فقط السياسات والقواعد الموضوعية.
- (ج) لا يتخذ أي قرار نحو التخطيط الخلاق.
- (د) لا يعمل على رفع قدرات مساعديه أو عامليه.
- (هـ) لا يبني روح الجماعة.

هذه السمات العامة المذكورة في القيادات المدرجة في الفكر الإداري العالمي، وهي بطبيعتها تناولت القيادة ببعد الإنسان باتجاهات محصورة بأبعاده الدنيوية الخارجية والبدنية، ولربما النفسية، لكن ما ننطلق من خلاله لترسيخ المفهوم الإسلامي للقيادة، أو الرؤية الإسلامية فهي تعتمد معايير أوسع تنمي حالة التكامل في الإنسان، حتى يلمس صفات وسمات الحجة، والذي يشكل دائرة الإمامة. وقد تشخص ذلك في قيادات إسلامية كالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في قيادته، وكيفية تعيينه لقياداته كمالك الأشتر النخعي، وكذلك ما قام به النبي صلى الله عليه وآله عند توليته للأمير مهام ومسؤوليات قيادية عالية ذكرتها المصنفات التاريخية والروائية للمسلمين.

لعل أهم السمات التي أشرنا إليها في طيات الدراسة تبين لنا كيف ينطلق هذا الفرد في بناء ذاته ومن ثم بناء مجتمعه، والانطلاق بذاته ومجتمعه نحو التكامل.

هذه الرؤية التي نقدمها ما هي إلا مقارنة عامة تلحقها دراسة أوسع؛ لعلنا نسهم من خلالها في تأصيل النظم والمهارات العليا للإدارة والقيادة.

* * *

الهوامش:

- (١) القيم الاجتماعية الإسلامية وفعالية السلوك الإداري في المؤسسة - د. حسن صادق حسن عبد الله - مجلة المسلم المعاصر ص ٢٨ - العدد ٤٩ - ١٩٨٧ م.
 - (٢) المنظمة اصطلاح إداري في العلوم الإدارية.
 - (٣) تقرير عن تنظيم الإدارة الحكومية بجمهورية مصر العربية - لوثر جيولوك وجيمس بولوك - القاهرة - يونيو ١٩٦٢ م ص ٤ - ٦.
 - (٤) عن مسند أحمد بن حنبل نقله كتاب نهج الفصاحة لقصار كلمات الرسول الأكرم ج ٢ ص ٥٧٣ حققه ورتبه الشيخ غلام حسين المجيدي.
 - (٥) نهج الفصاحة لقصار كلمات الرسول الأكرم ج ١ ص ١٨٩.
 - (٦) تحف العقول ص ٣٤ نقله نهج الفصاحة ج ٢ ص ٩٨٠.
 - (٧) نهج الفصاحة ج ٢ ص ٩٨٤.
 - (٨) نقله عن كنز العمال نهج الفصاحة ج ٢ ص ٩٨٣.
 - (٩) وحديث الثقلين هذا قد ورد في سنن الترمذي عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أثقل من الآخر : كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما).
- والغريب حقاً أن حديث الثقلين هذا، رغم وروده في صحيح مسلم وفي سنن الترمذي، وحسنه الحاكم النيسابوري في المستدرک ومسنَد الإمام أحمد، إلّا أنّ معظم المعاصرين من العلماء والخطباء يجهله أو يتجاهله، ويوردون بدلاً عنه حديث (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ؛ كتاب الله، وستتي) وهو في موطأ الإمام مالك، وفي سنده ضعف وانقطاع، وإن كان متنه ومعناه صحيحاً عند فهم دقيق لمعنى السنة بعد ربطها بأهل البيت والعصمة ويفسر أحدهما الآخر، وكان من الواجب إيراد الحديثين كلاهما معاً لأهميتهما في الباب، أما كتمان هذا الحديث الشريف الصحيح فهو من كتمان العلم الذي هَدَّه الله ورسوله فاعله...).
- قال الالباني : (... الحديث صحيح، فإن له شاهداً من حديث زيد بن أرقم.... أخرجه مسلم (١٢٢ / ٧) والطحاوي في مشكل الآثار (٣٦٨ / ٤) وأحمد (٣٦٦ / ٤) وابن أبي عاصم في السنة (١٥٥٠ و ١٥٥١) والطبراني (٥٠٢٦) من طريق يزيد بن حيان التميمي عنه، ثم

أخرجه أحمد (٣٧١/٤) والطبراني (٥٠٤٠) والطحاوي من طريق علي بن ربيعة قال : (لقيت زيد بن أرقم وهو داخل على المختار أو خارج من عنده، فقلت له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ؟ قال : نعم) وإسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وله طرق أخرى عند الطبراني (٤٩٦٩ - ٤٩٧١ - ٤٩٨٠ - ٤٩٨٢) وبعضها عند الحاكم (٣/١٠٩ أو ١٤٨ و ٥٣٣) وصححه هو والذهبي بعضها.

وشاهد آخر من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي؛ الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ألا إنها لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) أخرجه أحمد (٣/١٤ و ١٧ و ٢٦ و ٥٩) وابن أبي عاصم (١٥٥٣ و ١٥٥٥) والطبراني (٢٦٧٨ - ٢٦٧٩) والديلمي (٢/٤٥/١) وهو إسناده حسن في الشواهد، وله شواهد أخرى من حديث أبي هريرة عند الدراقطني (ص ٥٢٩) والحاكم (١/٩٣) والخطيب في الفقيه (٥٦/١) وابن عباس عند الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

ثم ذكر الألباني تخريجات كثيرة للحديث وقال : ((بعد تخريج الحديث بزمن بعيد كتب عليّ أن أهاجر من دمشق إلى عمان، ثم أن أسافر منها إلى الإمارات العربية... فلقيت في قطر بعض الأساتذة والدكاترة الطيبين، فأهدى إليّ أحدهم رسالة له مطبوعة في تضعيف هذا الحديث، فلما قرأتها تبين لي أنه حديث عهد بهذه الصناعة، وذلك من ناحيتين ذكرتهما له :

الأولى : إنه اقتصر في تخريجه على بعض المصادر المطبوعة المتداولة، ولذلك قصر تقصيراً في تحقيق الكلام عليه، وفاته كثير من الطرق والأسانيد التي هي بذاتها صحيحة أو حسنة فضلاً عن الشواهد والمتابعات، كما يبدو لكل ناظر يقابل تخريجه بها خرجته هنا.

الثانية : إنه لم يلتفت إلى أقوال المصححين للحديث من العلماء، ولا إلى قاعدتهم التي ذكروها في مصطلح الحديث : (إن الحديث الضعيف يتقوى بكثرة الطرق)، فوقع في هذا الخطأ الفادح من تضعيف الحديث الصحيح.

وكان قد نمي إليّ قبل الالتقاء به وإطلاعي على رسالته أن أحد الدكاترة في الكويت يضعف هذا الحديث، وتأكدت من ذلك حين جاءني خطاب من أحد الإخوة هناك، يستدرك عليّ إيرادي الحديث في (صحيح الجامع الصغير) بالأرقام (٢٤٥٣ و ٢٤٥٤ و ٢٧٤٥ و ٧٧٥٤) لأن الدكتور المشار إليه قد ضعفه، وأن هذا استغرب مني تصحيحه ! ويرجوا الأخ المشار إليه أن أعيد النظر

في تحقيق هذا الحديث، وقد فعلت ذلك احتياطاً، فلعله يجد فيه ما يدل على خطأ الدكتور، وخطئه هو في استرواحه واعتماده عليه، وعدم تنبّهه للفرق بين ناشئ في هذا العلم ومتمكن فيه، وهي غفلة أصابت كثيراً من الناس الذين يتبعون كل مَنْ كتب في هذا المجال، وليست له قدم راسخة فيه والله المستعان)) انتهى كلام الشيخ الإمام الألباني.

وإنما ذكرته بتامه لأنني رأيت أن هناك ممن يدعون سدانة العلم ما زالوا يطبعون ويوزعون كتاب الدكتور (علي أحمد السالوس) حول تضعيف حديث الثقلين، وهم يعلمون أن هذا الدكتور لا علم له بالحديث ولا برجاله، وهم يعلمون - أيضاً - أن الألباني لم يذكر هذا الكلام بطوله إلا للرد على الدكتور علي أحمد السالوس. وللتوسع يمكن مراجعة الدكتور عصام العباد في كتابه المنهج الجديد والصحيح في الحوار مع الروهابيين ص ١٥٥ حيث ينقل مثل ما ذكر في صدد ذلك وحادثة الدكتور محمد علي البار في كتابه الإمام علي الرضا ورسائله الطبية تحت عنوان حديث الثقلين. وكذلك من توسع في عرضه بشكل مسهب في ثلاث مجلدات صاحب كتاب نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار - حديث الثقلين ترجمة وتلخيص السيد علي الميلاني تأليف العلامة السيد حامد حسين اللكهنوي إضافة للمصادر آنفة الذكر.

(١٠) قد يشار إليها بنظرية مدخل النظم أو نظرية تحليل النظم لكن الأصح ما أشرنا إليه وهو نظرية النظم وهي من النظريات التي تفرز على أنها من نظريات الفكر الإداري وقد طور هذه النظرية بيرتالانفي وغيره من علماء البيولوجيا وقد عرفت على ضوء تعريف النظام على أنه مجموعة من الأجزاء أو النظم الفرعية التي تتداخل العلاقات بين بعضها وبينها وبين النظام الذي نظمها والتي يعتمد كل جزء منها على الآخر في تحقيق الأهداف التي يسعى إليها هذا النظام الكلي وللمزيد يمكن مراجعة منهج النظم إطار متكامل لدراسة الظواهر الاجتماعية نموذج تطبيقي لظاهرة الإدارية في الدول العربية منشورات المنظمة العربية للعلوم الإدارية عمان ١٩٨٥ ص ١٨، وكذلك كتاب النظريات الإدارية والأعمال إعداد رعد حسن الصون - دار الرضا للنشر - سوريا - دمشق سنة ٢٠٠٤ - الطبعة الأولى.

وما يمكن أن ننوه إليه أننا لسنا من الداعين أو المدعين بالمطابقة إذ أن هذه النظرية هي من افرازات الفكر الإداري، لذا لا بد أن تخضع لعدة معايير حتى يتم الحكم على ذلك ومن هنا نحن نرى أن هناك نوع من التناسب والانسجام في معطيات أساسية معينة، من هذه النظرية تقترب كثيراً من الرؤية الإسلامية مع الحرص على طبيعة الرؤية الإسلامية ذات الأبعاد المترامية والمنابع الأصلية، إلا أن القواعد العقلانية والعقلانية بما هي هي يمكن التعاطي معها مع فرزها عن واقع

المؤثرات السلبية التي تخرجها عن إطارها العقلي.

(١١) الإعلام الإسلامي على ضوء نظرية النظم - د. سعيد محمود عرفة عن بحث مقدم إلى اللقاء الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض شوال ١٣٩٦ هـ، ومما يمكن أن نقول بمناسبة الحديث أن ما قدمه الدكتور سعيد عرفة من رؤية جادة قد أشار في ضمنها ما يلي: وهذا التصور للنظام الفكري يجعلنا ندرك مغزى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وستتقي)) ولا أعلم حين يرى ما ذكرناه من تحقيق حول أن السنة تعود لأهل البيت والعرة وفق تصور معصوم ولعل ما قاد الدكتور هذه الرؤية يجعله يدرك أهمية ذلك مع غنيائنا له بالتوفيق.

(١٢) وقد أشرنا في بحوثنا في فلسفة التشريع وأبعادها التكوينية والتشريعية - كتاب السعادة المطبوع في دولة الكويت - مكتبة العرفان - سنة ٢٠٠٠ م - بتفصيل أوسع حول طبيعة الإنسان ونظمه الداخلية، فراجع.

(١٣) الإعلام الإسلامي في ضوء نظرية النظم - د. سعيد محمود عرفة عن بحث مقدم إلى اللقاء الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض شوال ١٣٩٦ هـ.

(١٤) بحار الأنوار ج ١ ص ١٧٧ نقله نهج الفصاحة ج ٢ ص ٦٦٩.

(١٥) نهج الفصاحة ج ٢ ص ٦٧٠ نقلاً عن الدر المنثور وكنز العمال.

(١٦) في زمن الصادق كانت هناك مدارس كلامية بعضها الحادية لم يبق منها شيء سوى إشارات في المصادر ببركة هذه النهضة العلمية والحوار العلمي أسس لتجاوز تلك المدارس التي أحصاها البعض بباطة نيف مدرسة. للمزيد يمكن مراجعة ما كتبناه في ذلك في مجلة العصر الكويتية.

(١٧) القيم الاجتماعية الإسلامية وفعالية السلوك الإداري في المؤسسة د. حسن صادق حسن عبد الله مجلة المسلم المعاصر ص ٤٦.

(١٨) اقتصادنا ص ٦٢٩ - محمد باقر الصدر - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(١٩) أي من سار على نهجه القويم وحفظ ورعى مبادرته كالأمر علي بن أبي طالب عليه السلام والمقدار وعمار بن ياسر وأبوذر الغفاري وسلمان الفارسي ومحمد بن أبي بكر ومن هم كذلك.

(٢٠) مصنفه النظم الإسلامية ص ٤٢٧، ص ٤٣٦ - د. مصطفى كمال وصفي - مكتبة وهبه - الطبعة الأولى ١٩٧٧ م

(٢١) نشرة الاقتصاد الإسلامي - بنك دبي الإسلامي - المجلد الأول - السنة الأولى - ١٤٠٢ هـ - د.

أحمد إبراهيم أبو سن - ص ١٨٣ .

(٢٢) القيادة الإدارية دراسة نظرية مقارنة - خميس السيد - المنظمة العربية للعلوم الإدارية - عدد ١١

- ص ٦ - ١٩٦٧ م .

(٢٣) السلوك التنظيمي - حامد أحمد بدر - الكويت - دار القلم - ١٩٨٢ م .

(٢٤) نفس المصدر السابق .

(٢٥) القيادة الإدارية اتجاه إسلامي - د. حامد رمضان بدر - مجلة المسلم المعاصر - العدد ٣٢ - سنة

١٤٠٢ هـ - ص ١٥٤ ، كما يمكن الرجوع لهذه النظريات بالتفصيل من خلال كتاب السلوك

التنظيمي لـ حامد أحمد بدر - الكويت - دار القلم - ١٩٨٢ م - وقد نقلناها بتصرف وإيجاز .

إطالة على آخر غزوات النبي الأكرم ﷺ

(٩ هـ . ٦٣١ م)

(*) □ حميد البغدادي



غزوة تبوك في سطور:

تاريخها: رجب ٩ هـ ٦٣١ م.

مكانها: تقع منطقة تبوك على حدود الدولة البزنطية، وتبعد عن المدينة

(*) باحث إسلامي من العراق.

المنورة ٦٨٠ كم عن طريق خطّ سكة الحديد الشام الحجاز المعروف، والذي يمرّ تقريباً بطريق الرسول ﷺ إلى تبوك، أما عن طريق خيبر وتيما فتبعد ٧٨٠ كم. والفاصلة بينها وبين الشام ٦٩٢ كم.

الجيش الإسلامي: ثلاثون ألف مقاتل بمعية عشرة آلاف فرس.
جيش الأعداء: أربعون ألف مقاتل مع كامل المعدات والأسلحة، يساندتهم عرب لخم، وجذام، وعاملة، وغسان.

هدف الغزوة: مبادرة الروم بعد وصول الأنباء بحشد القوّات لغزو المسلمين، والمطالبة بدم جعفر بن أبي طالب^(١).

غزوة تبوك آخر غزوات الرسول الأكرم ﷺ، وأبعد منطقة قصدها للقتال، ونظراً لبعدها المسافة، وقوة جيش الأعداء فإنّ لهذه الغزوة خصوصية تميّزها عن بقية الغزوات.

وقد ورد ذكر أحداث غزوة تبوك في سورة التوبة ابتداء من الآية (٣٨) إلى ما يقارب آخر السورة، مع وجود آيات أثناء ذلك غير مرتبطة بغزوة تبوك. ولكن لم يصرّح باسم الغزوة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّقَّةُ﴾ (التوبة: ٤٢).

منطقة تبوك

تقع منطقة تبوك في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية، ما بين جبلي حسمى في الغرب وشرورى في الشرق، على تقاطع خط طول ٢٦، ٣٥ شرقاً، و ٢٨، ٣٢ شمالاً.

وفي الشرق تقع محافظة تيماء، والغرب محافظة حقل والبدع وضباء والوجه وأملج، وفي الشمال حالة عمار المنفذ البري الذي يعتبر من أهم المداخل البرية للمملكة العربية السعودية، وتبلغ مساحتها أكثر من ١٢٠٤٠٠ كلم^٢، وتعتبر

تبوك بوابة الشمال للمملكة العربية السعودية.

وجاء في معجم البلدان:

«تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل: بركة لأبناء سعد من بني عذرة، وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأوّل الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط، ينسب إلى النبي ﷺ، ويقال: إنّ أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام، كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم، وإنّا كان من مدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين جبل حسمى وجبل شروري، وحسمى غربيها وشروري شرقيها» (٢).

وجاء في المعجم أيضا:

«الأيكة: التي جاء ذكرها في كتاب الله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٦) قيل: هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه، ويقولون: إنّ شعيباً عليه السلام أرسل إلى أهل تبوك، ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون: الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار، والجمع أيك، وإنّ المراد بأصحاب الأيكة: أهل مدين. قلت: ومدين وتبوك متجاورتان» (٣).

وقد اتفق المفسرون على أنها نزلت في تبوك.

إرهاصات الحرب:

تحققت وحدة القبائل العربية بانتمائها إلى الإسلام وفي ظلّ رسالته الكبرى، بعد أن كانوا مجرد قبائل متناحرة، لا يجمعها كيانٌ يُذكر، وليست لها قدرة على مواجهة الأخطار الخارجية، وصارت لهم بركة الدين الحنيف دولة مستقلة، وصاروا يجابهون الدول العظمى في زمانهم كالدولة البيزنطية، وهي أعظم قوة

في ذلك الزمان، بل صاروا يغزونها في عقر دارها؟.

هذه الدولة التي أصبح المسلمون من خلالها قوة مهابة بين القوى في ذلك الزمان، حتى استطاعوا أن يعودوا إلى مكة فاتحين خلال ثمان سنين من هجرتهم منها حيث كانوا مستضعفين، ليستقبلوا أفواج الناس التي أقبلت للدخول في دين الله بفضل الله سبحانه وتعالى ودينه العظيم.

وبعد استتباب الوضع الداخلي في مكة المكرمة، وبقيّة المناطق المنضوية تحت راية الدولة الإسلامية، بات المجال مفتوحاً لإكمال مهمّة الدعوة والبلاغ، ونشر النور الإلهي في أماكن جديدة، خصوصاً بعد توارد الأنباء بأن الروم بدأت بحشد قوّاتها لغزو المسلمين، وأنّ ملك الروم وحلفاءه من العرب من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة قد هيا جيشاً لمهاجمة الدولة الإسلامية قبل أن تصبح خطراً على دولته، فحشد جموعه، وتهايا لمهاجمة المسلمين، فسار جيش قوامه أربعون ألفاً مع أحدث الأسلحة، فأراد النبي ﷺ أن يبادرهم بالخروج إليهم، فكانت غزوة تبوك.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمي : «... لما شاع بالمدينة أنّ الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم، وأنّ هرقل^(٤) قد سار في جنوده، وجلب معه القبائل، وقدموا البلقاء^(٥) أمر رسول الله ﷺ وسلم بالتهيؤ إلى تبوك - وهي من بلاد البلقاء - وبعث إلى القبائل حوله، وإلى مكة، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة، وحثهم على الجهاد، فقدمت القبائل، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم»^(٦).

سبب تسمية الغزوة

ولعلّ سبب تسمية هذه الغزوة هو (عين تبوك) التي مرّ بها المسلمون في طريقهم إلى أرض الروم، وحدود الدولة البيزنطية. وسُمّيت - أيضاً - بغزوة

العسرة؛ لما اجتمع فيها من مظاهر الشدة والعسرة، حيث حرارة الجو، وشحة المياه، وبعد المكان، مع ما يعيشه المسلمون حينها من الفقر وضيق الحال، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الحال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة: ١١٧).

زمان الاستعداد

بعد أن منَّ الله سبحانه وتعالى على المسلمين بفتح مكة، وبعد أن خاض الرسول الأكرم ﷺ حرب حنين والطائف، رجع إلى المدينة المنورة في شهر ذي الحجة، واستقرَّ فيها عدة أشهر، اشتغل ﷺ في خلالها بالاستعداد لحرب الروم؛ حيث خرج لهذه الغزوة في شهر رجب، وكان إيابه ﷺ إلى المدينة المنورة في شهر رمضان المبارك.

جاء في مجمع البيان: «وكانت غزوة تبوك بعد فتح مكة، وبعد غزوة حنين والطائف، ورجوع النبي ﷺ منها إلى المدينة، ومقامه ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم تهيأ في رجب للخروج إلى تبوك، وكان منصرفه من تبوك في بقية رمضان، من سنة تسع من الهجرة، ولم يخرج ﷺ بعد ذلك لقتال، ولا غزو، إلى أن قبضه الله تعالى» (٧).

استعدادات علنية لمواجهة الدولة البيزنطية:

أسباب إعلان وجهة الحرب:

خالف الرسول الأكرم ﷺ في هذه الغزوة الطريقة المعهودة التي كان يقوم فيها بالإعداد للحرب، والتمويه على الأعداء، وغالباً ما كان يُعلن عن أهداف غير تلك التي يريد قصدها؛ لئلا تقع الأسرار العسكرية بيد أعداء الإسلام، وإنَّما أعلن عن وجهته لأسباب منها:

- ١- المسافة الشاسعة التي كانت تفصل المدينة المنورة عن جبهة القتال، والتي تبلغ مئات الكيلومترات.
- ٢- الظروف المناخية الصعبة، والحر الشديد، وأرض الصحراء اللاهبة، والصعوبات التي كان من المتوقع أن يلاقيها المسلمون.
- ٣- القدرات الحربية الهائلة للعدوّ، وحجم إمكانياته، فهم الروم، وجيش الإمبراطورية البيزنطية مع حلفائهم من عرب الشمال، هذه الدولة التي كانت تمثل إحدى الدولتين العظيمتين في ذلك الزمان.
- ٤ - سهولة التنبؤ بوجهة الجيش مع الاستعدادات الكبيرة، حيث تمكن المسلمون من السيطرة على مساحات كبيرة من الجزيرة العربية، ولم تكن هناك مناطق للأعداء تناسب هذا الاستعداد.
- ٥- فرز الاتجاهات في المجتمع الإسلامي لأجل إبراز الخط المعادي الداخلي، وهم المنافقون، وقد أفلح هذا الإعلان في إبراز نواياهم الخبيثة بشكل صريح.
- ٦- إعطاء الجيش والمجتمع المؤمن الفرصة الكاملة لإعداد ما يلزم لهذا السفر الطويل والشاق.

الإعداد للغزوة:

وهكذا أعلن النبي ﷺ النفير العام، وأرسل إلى القبائل العربية المسلمة في مختلف المناطق يستنفرهم على قتال الروم، والاشتراك في الجيش، كما حثّ الناس على الإنفاق في سبيل الله قائلاً: «من جهّز جيش العسرة غفر الله له»^(٨)، فاستجاب الصحابة لندائه، وضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء، وتبرّعت النساء بحليهن وزينتهن من الذهب. حتى فقراء المسلمين كان لهم نصيب من المشاركة في دعم المقاتلين؛ حيث قدّموا كل ما يملكون في سبيل الله مع قلة ذات اليد، فمنهم من أتى بصاع من تمر، ومنهم من جاء بنصف صاع أو أقل^(٩).

غزوة العسرة:

وكان الوقت صيفاً، والصحراء تحترق ناراً، ويسود البلاد حالة من الجذب والقحط، والناس تحب أن تبقى تحت الظلال، خاصة وأنّ مخنة مؤتة لم تكن بعيدة عن الأذهان.

وبالرغم من كلّ ذلك، استقبل جماعة من المسلمين هذه الدعوة بقلوب عامرة بالإيمان، ونفوس مطمئنة بما وعد الله به المجاهدين، تاركين نساءهم وأبناءهم ليقطعوا الصحارى والفيافي، ولكنّ جماعة أخرى دخلوا الإسلام رغبةً ورهبةً، استقبلت الدعوة بالتشاقل، وبدأوا يلتمسون الأعذار، ويعتذرون بالحرّ تارة، والقوّة أخرى، وبيعد المسافة الثالثة، وقوّة العدوّ رابعة، وما إلى ذلك من أعذارٍ واهية.

وخرج النبي ﷺ يوم الخميس، وعسكر بجيشه في ثنية الوداع^(١٠). وكان الحرّ شديداً للغاية، وعانى المسلمون من عسرة الماء والزاد، حتى اضطروا للذبح إبلهم، وإخراج ما في كروشها فيعصرونه ويشربونه. لذلك سميت الغزوة بغزوة العسرة.

حتى قيل: «كان يعقب العشرة على بعير واحد، وكان زادهم الشعير المسوس، والتمر المدود، وبلغت الشدة بهم إلى أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصوها الجماعة ليشربوا عليها الماء. وإنما ضرب المثل بجيش العسرة؛ لأنّ النبي ﷺ لم يغزُ قبله في عدد مثله»^(١١).

وأخيراً، تحرك المسلمون نحو القتال، وقطعوا آلاف الأميال، عانوا خلالها العطش والجوع والحر، ومن قلّة وسائل الركوب، وقد سميت الغزوة غزوة العسرة كما أسلفنا وفي ذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (التوبة: ١١٧).

وقد أشارت آيات من القرآن الكريم إلى أجواء هذه الموقعة، ودعت

المسلمين إلى التمسك بدينهم الحق، وحشّتهم على الجهاد وإتباع الرسول ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ أَنِفْتُمْ؟ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِنَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٨ - ٣٩).

المنافقون وأعداء الجبهة الداخلية:

فضحت الآيات المنافقين، وكشفت عن المترددين ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١).

واستغل المنافقون هذه المواقف المشرفة للسخرة من صدقات الفقراء، والتعريض بنوايا الأغنياء، وقد كشف القرآن عن خباياهم فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٧٩).

كما حاولوا أن يصدّوا الناس عن الخروج، بالترهيب من قوات العدو الجبارة، والترغيب في التخلف والإخلاد إلى الراحة.

ولم يتوقف كيد المنافقين عند هذا الحد، بل بادروا إلى بناء مسجد في أطراف المدينة ليكون مقراً لهم، يدبرون فيه المؤامرات للقضاء على الإسلام وأهله، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه إمعاناً في التّمويه والخداع، لكن الله بين لنيّه حقيقة نواياهم، ونهاه عن الصلاة في مسجدهم، وهو المسجد المعروف بمسجد ضرار.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَّارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُمْ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ

يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿ (التوبة: ١٠٧-١٠٨).

وقد تخلف معظم المنافقين عن الغزو، بأعذار متنوعة كاذبة، فمنهم من اعتذر بعدم القدرة على السفر، ومنهم من اعتذر بقلّة المتاع، ومنهم من اعتذر بشدّة الحرّ، ومنهم من اعتذر بإعجابه بالنساء، وخوف الفتنة بنساء الروم، فسكت النبي ﷺ عن أعذارهم، وأنزل الله آيات في سورة التوبة تفضح أمرهم، وتكشف حقيقة كذبهم، وتذرهم بالعذاب الأليم^(١٢).

استخلاف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

واجتمع مع النبي ﷺ ثلاثون ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من أبناء القبائل العربيّة، ثم استخلف أمير المؤمنين عليه السلام في أهله، وولده، وأزواجه، ومهاجره، وقال له: «يا علي إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك»، وبقي علي عليه السلام في المدينة وخرج الرسول ﷺ إلى الغزوة، ولكنّ المنافقين أخذوا يرجمون علي، ويزعمون أنّه تركه استثقلاً، فلما بلغ إرجافهم به، أخذ عليّ سلاحه ثم خرج حتى لحق بالنبي وهو بالجرف وقال له: يا رسول الله إنّ المنافقين يزعمون أنّك استثقلاً ومقتاً.

فقال له النبي ﷺ: «ارجع يا أخي إلى مكانك، فإنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهل بيتي، ودار هجري وقومي، أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبي بعدي»^(١٣).

تولوا وأعينهم تقيض من الدمع:

وجاء الفقراء إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يُعينهم بحملهم إلى الجهاد، والنبي ﷺ يعتذر بأنّه لا يجد ما يحملهم عليه من الدواب، فانصرفوا وقد فاضت أعينهم أسفاً على ما فاتهم من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، فخلد

الله ذكرهم إلى يوم القيامة، وأنزل فيهم قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ اتِّوَكُّلُهُمْ وَلَاحِقُهُمْ الْعَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٩١-٩٢﴾ (التوبة: ٩١ - ٩٢).

وكانت رغبتهم الصادقة في الخروج سبباً لأن يكتب الله لهم الأجر كاملاً.

ديار ثمود (مدائن صالح):

جاء في مجمع البيان عن جابر بن عبد الله ، قال : « لما مرَّ النبي ﷺ بالحجر في غزوة تبوك ، قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائهم ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذنين ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم الذي أصابهم . ثم قال : أما بعد : فلا تسألوا رسولكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح عليه السلام سألوا رسولهم الآية ، فبعث الله لهم الناقة ، وكانت ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، تشرب ماءهم يوم ورودها ، وأراهم مرتقى الفصيل حين ارتقى في القارة ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم ، في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا رجلاً واحداً يقال له أبو رغال ، وهو أبو ثقيف ، كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ودفن معه غصن من ذهب ، وأراهم قبر أبي رغال ، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فاهم ، وحثوا عنه ، فاستخرجوا ذلك الغصن ، ثم قنع رسول الله ﷺ ، رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي » (١٤).

وجاء في السيرة لابن كثير: «مرَّ الجيش في الطريق نحو الشمال على ديار ثمود، فسارع بعض المسلمين ليروا مساكنهم، ويقفوا على آثارهم، وبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الناس ثم قال لهم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا

أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم أمرهم بالإسراع في الخروج، فأخبره الصحابة أن بعضهم قد تزودوا بالماء للشرب، وصنع العجين، فأمرهم بإراقة ذلك الماء، وإطعام العجين للدواب، إلا أنه استثنى ما أخذوه من بئر ناقة صالح عليه السلام ^(١٥).

جيش العسرة:

وبدأت المعاناة بسبب نقص المياه، وشدة الحر، وقلة الدواب، حتى إنَّ البعير الواحد كان يتناوب عليه الجماعة من الرجال، واضطرَّ بعضهم إلى أكل أوراق الشجر، ونحر الإبل ليشربوا ما في بطونها، وبعد أن بلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً شكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا ربه بنزول المطر، ولم يكد ينتهي من دعائه حتى أمطرت السماء، وارتوى الناس، وكانت هذه المعجزة تشيئاً للمؤمنين وتخفيفاً لمعاناتهم.

رحم الله أبا ذر:

وكان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قد تأخر عن الجيش، فبحث عن راحلة تمكَّنه من اللحاق بهم، فلم يجد سوى راحلة هزيلة، فلما أبطأت به وخشي أن يتأخر، أخذ متاعه وحمله على ظهره، ومشى على قدميه حتى اقترب من الجيش، فراه أحد الصحابة فقال: يا رسول الله، هذا رجلٌ يمشي على الطريق، فقال صلى الله عليه وسلم: (كن أبا ذر)، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده) ^(١٦).

ندم أبي خيثمة الأنصاري:

وكان ممن تخلف عن الغزو في أوَّل الأمر، أبو خيثمة الأنصاري، حيث لم

يستطع أن يحمل نفسه على الخروج، وفي يومٍ من الأيام دخل بستناً له، ورأى زوجته وهما يعدّان له المكان الظليل، والماء البارد، فاستيقظ ضميره، وعاتب نفسه، كيف يجلس في الظلّ والنّعيم ورسول الله ﷺ يعاني شدة الحرّ، ومشقة الطريق؟! فندم، وأخذ سلاحه، وركب دابّته، حتى أدرك النبي ﷺ في تبوك، وذهب إليه معتذراً فعاتبه النبي ﷺ على ما كان منه، ثم عفا عنه ودعا له بخير^(١٧).

شعار الغزوة:

قال الإمام الصادق عليه السلام في خبر معاوية. «شعارنا: يا محمد، يا محمد، وشعارنا يوم بدر: يا نصر الله اقرب، وشعار المسلمين يوم أحد: يا نصر الله اقرب، ويوم بني النضير: يا روح القدس أرح، ويوم بني قينقاع: لا ربنا لا يغلبنك، ويوم الطائف: يا رضوان، وشعار يوم حنين: يا بني عبد الله يا بني عبد الله، ويوم الأحزاب: حم لا يبصرون، ويوم بني قريظة: يا سلام أسلمهم، ويوم المريسيع، وهو يوم بني المصطلق: ألا إلى الله الأمر، ويوم الحديبية: ألا لعنة الله على الظالمين، ويوم خيبر، وهو يوم القموص: يا علي آتهم من عل، ويوم الفتح: نحن عباد الله حقاً حقاً، ويوم تبوك: يا أحد، يا صمد، ويوم بني الملوحة: أمت أمت، ويوم صفين: يا نصر الله. وشعار الحسين يا محمد، وشعارنا يا محمد»^(١٨).

في تبوك:

عندما وصل الجيش إلى تبوك، لم يجد أثراً للروم أو القبائل الموالية، حيث قرر الروم وحلفاؤهم - بعد علمهم بمسير المسلمين - الانسحاب إلى الداخل، فاجتازوا الأردن وفلسطين، وبالتحديد إلى منطقة حمص، حيث استقر هرقل، ولعلّ مقصودهم كان استدراج الجيش الإسلامي إلى الداخل، والانقضاض

عليه، ولكنَّ الرسول ﷺ بحنكته العسكرية أفضل مخططهم، وعسكر في تبوك، وجعلها آخر نقطة في توغله شهاً، وجعل يُراقب تحركات الأعداء.

المسلمون في تبوك واحتواء القبائل العربية:

أخذ الرسول ﷺ يتصل بالقبائل العربية المنتصرة المجاورة، ويعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، وكان من هؤلاء يوحنا بن ربيعة صاحب أيلة، الذي صالح الرسول ﷺ، ووافق على منحه الجزية، كما جاءه أهل جرباء وأذرع وأعطوه الجزية، التي تعني من ناحية السيادة التحاقهم بالدولة الإسلامية، مقابل منحهم حرية ممارسة معتقداتهم الدينية، والعيش مع جيرانهم المسلمين بسلام واطمئنان.

واطمأن النبي ﷺ بعد معاهدة تلك القبائل المتاخمة لحدود الحجاز، ولم يبق عليه إلا أكيدر بن عبد الملك الكندي أمير دومة الجندل، فبعث النبي ﷺ سرية إلى دومة، وغنموا عدداً كبيراً من المتاع والأنعام، واستطاعوا أن يأسروا ملكها (أكيدر بن كندة)، وأتوا به إلى النبي ﷺ، فصالحه على دفع الجزية، ثم أطلق سراحه (١٩).

ومكث النبي ﷺ مرابطاً بقواته في تبوك مدة عشرين يوماً لم يقاتل أحداً، يستقبل الوفود التي جاءت للمصالحة ودفع الجزية من أهل جرباء وأذرع وغيرهما، وكان منهم وفد ملك (أيلة) الذي بعث بهدية من كساء، وبغلة بيضاء، فقبلها النبي ﷺ.

نصر باهر على البيزنطيين:

لقد حقق النبي ﷺ بغزواته انتصاراً مهماً على الجبهة مع الروم والدولة البيزنطية، لا يقل عما حققه من انتصارات ضد القبائل العربية الوثنية واليهود،

وكان من نتائج هذا الانتصار:

- ١- إبعاد القبائل العربية سياسياً وحضارياً عن الروم والإمبراطورية البيزنطية، مما أفقد الروم قوّة إضافية.
 - ٢- أصبح المسلمون على تماس مباشر مع قوات الروم.
 - ٣- أشعار الآخرين بمدى قوّة الدولة الجديدة.
 - ٤- إظهار عجز الدولة البيزنطية عن مواجهة القوة الإسلامية، وذلك بانسحابهم إلى عمق الأراضي البيزنطية.
 - ٥- عزّز هذا الانتصار من ثقة المسلمين، وأعطاهم الكثير من التماسك، والقوّة على تحدي الصعاب، ومواجهة الأعداء، وأقلل الباب على كلّ من تسوّل له نفسه أن يثور على الدولة الإسلامية، وهذا ما ترجم ندماً واعتذاراً من قبل الذين تخلفوا عن الالتحاق بالجيش الإسلامي الذي قصد تبوك.
- وقد أعلن بعض الأمراء التحاقهم بالإسلام من دون أن تصل إليهم رسائل النبي ﷺ، كفروة بن عمرو الجذامي، عامل قيصر على عمان من أرض البلقاء، غير أبه بطلب الإمبراطور البيزنطي بتراجعه عن الإسلام، وإيدائه وإلقائه في التهلكة.

ذكر آل محمد ﷺ:

ذكر الشيخ الطوسي في الأمالي الحديث التالي: «حدثنا أبو منصور السكري، قال: حدثني جدي علي بن عمر، قال: حدثني العباس بن يوسف الشكلي، قال: حدثنا عبد الله بن هشام، قال: حدثنا محمد بن مصعب القرقيساني، قال: حدثنا الهيثم بن جهم، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، قال: رجعنا مع رسول الله ﷺ قافلين من تبوك، فقال لي في بعض الطريق: ألقوا لي الأحلاس والأقتاب، ففعلوا فصعد رسول الله ﷺ فخطب، فحمد الله، وأثنى عليه بها

هو أهله ، ثم قال : معاشر الناس ، مالي إذا ذكر آل إبراهيم ﷺ تهللت وجوهكم ، وإذا ذكر آل محمد ﷺ كأنها يفتأ في وجوهكم حب الرمان ، فوالذي بعثني بالحق نبياً ، لو جاء أحدكم يوم القيامة بأعمال كأشمال الجبال ، ولم يجئ بولاية علي بن أبي طالب لأكبه الله عز وجل في النار» (٢٠).

وهذه الرواية تشير إلى أمرٍ خطيرٍ بحيث استدعى من النبي الأكرم ﷺ أن يوقف الجيش ليتحدث بهذا الحديث، والذي يكشف عن الألم الكبير الذي كان يحمله النبي ﷺ، ويوضح حركة النفاق التي بدأت تشتد في المدينة المنورة، من محاولة تثبيط العزائم، والقعود عن الجهاد، إلى الاستهزاء بالمؤمنين الفقراء، وبنائهم لمسجد ضرار إلى إرغافهم بالإمام علي عليه السلام، وأن الرسول ﷺ إنما تركه استثقلاً، وأخيراً بمحاولة اغتيال شخص النبي الأكرم ﷺ. والذي يمكن أن يفهمه الباحث من دراسة الوضع آنذك أن هناك مخططاً لتقويض الدولة الإسلامية، وإبعاد القيادة الشرعية عن موقعها الشرعي، وهذا بحثٌ مهمٌ ينبغي تسليط الضوء عليه من قبل العلماء والباحثين.

محاولة اغتيال الرسول ﷺ

تعرّض أكثر المؤرخين لغزوة تبوك إلى المحاولة الفاشلة للمنافقين، فبعد أن فقدوا الأمل في تغلب الروم على المسلمين، والذي راهنوا عليه، ومنوا به أنفسهم، استعملوا آخر سهم في جعبتهم، وهو الإقدام الآثم على قتل الرسول ﷺ.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التوبة : ٧٤) : «وهو الفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك ، تواتق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل - وهي عقبة أوس ويقال : اسمها عقبة دقيق - فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها،

وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل ، وبقعقة السّلاح ، فالتفت فإذا قوم مثلثون ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله ! فهربوا» (٢١) .

وجاء في تفسير الأمثل أيضا: «أن جماعة من المنافقين صمموا على قتل النبي الأكرم ﷺ في طريق عودته من غزوة تبوك ، فلما وصل إلى العقبة نفروا بعيره ليسقط في الوادي ، إلا أن النبي ﷺ قد أطلع بنور الوحي على هذه النية الخبيثة ، فردّ كيدهم في نحورهم ، وأبطل مكرهم . وكان زمام الناقة بيد عمار يقودها ، وكان حذيفة يسوقها لتكون الناقة في مأمن تام ، وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يسلكوا طريقا آخر حتى لا يخفي المنافقون أنفسهم بين المسلمين ، وينفذوا خطتهم . ولما وصل إلى سمع النبي ﷺ وقع أقدام هؤلاء أو حوافر خيولهم أمر بعض أصحابه أن يدفعوهم ويبعدوهم ، وكان عدد هؤلاء المنافقين اثني عشر ، أو خمسة عشر رجلاً ، وكان بعضهم قد أخفى وجهه ، فلما رأوا أن الوضع لا يساعدهم على تنفيذ ما اتفقوا تواروا عن الأنظار ، إلا أن النبي ﷺ عرفهم ، وذكر أسماءهم واحداً واحداً لبعض أصحابه» (٢٢) .

العودة إلى المدينة المنورة:

وبعد أن أنجز الله للرسول الأكرم ﷺ ما أراد من غزوته ، عاد الجيش الإسلامي إلى المدينة ، فلما اقترب منها خرجت جموع النساء والأطفال لاستقبال النبي ﷺ ، والاطمئنان على سلامته ، ثم توجه النبي ﷺ إلى مسجده ، وصلى فيه ركعتين ، ثم جلس مع الناس .

وعلى الثلاثة الذين خلفوا:

وقد كان تخلف عن تبوك جمع من المنافقين ، وكذلك جمع من المسلمين من

غير شك ولا نفاق، فبعد عودته ﷺ جاءه المنافقون يعتذرون إليه، فقبل أعذارهم، وأوكل سرائرهم إلى الله، وحضر إليه الثلاثة الذين خَلَفُوا عن المعركة، فلم يقبل أعذارهم، فقد أمر رسول الله ﷺ بمقاطعتهم، وقال لبقية أصحابه: «لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة»، فاعتزلوهم خمسين يوماً، ثم أبلغهم ﷺ بتوبة الله عليهم (٢٣).

قال الله عز وجل: ﴿قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَخُفُّونَ رُوْفًا رَحِيمٌ﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿التوبة ١١٧-١١٩﴾

والثلاثة المخلفون عن غزوة تبوك هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، وكل هؤلاء من الأنصار (٢٤).
ونفهم من هذه الحادثة أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يُكره أحداً على القتال في سبيل الله، بل يكتفي بحث المسلمين عليه، ويقاطع الذين يتخلفون بغير عذر، ويطلب من المؤمنين مقاطعتهم اجتماعياً؛ لأن العقوبة النفسية أقوى من العقوبة الجسدية.

أبو لبابة:

يعرف الذين تشرفوا بزيارة مسجد النبي اسطوانة أبي لبابة، واسطوانة التوبة، وقد اختلفت الروايات في ذنب أبي لبابة، ففي بعضها أنه كان تخلفه عن الاشتراك في غزوة تبوك، وفي بعضها الآخر أنه كان إفشاء حكم رسول الله ﷺ في بني قريظة لهم. ومهما كان السبب، فإنه ربط نفسه بالأسطوانة، وبقي أياماً حتى تاب الله عليه، فأراد أن يتصدق بباله كله، فنهاه النبي ﷺ، ثم رضي ﷺ.

بأن يتصدق بثلث ماله (٢٥).

والآيات التي نزلت فيه هي قوله تعالى :

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ . . . * وَآخَرُونَ
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . . . ﴾ التوبة : ١٠١ - ١٠٣ .

أحداث رافقت تبوك:

أ- الملاعنة:

جاء في تفسير القمي مرسلًا عنهم عليه السلام : «قال : إنَّ رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، قام إليه عويمر بن الحارث، فقال : إنَّ امرأتِي زنت بشريك بن الشمحاط، فأعرض عنه، فأعاد عليه القول فأعرض عنه، فأعاد عليه ثالثة، قال : فدخل فنزل اللعان فخرج إليه فقال: اتني بأهلك، فقد أنزل الله فيكما قرآنًا، فمضى فأتاه بأهله، وأتى معها قومها، فوافوا رسول الله ﷺ وهو يصلي العصر، فلما فرغ أقبل عليهما، فقال لهما: تقدما إلى المنبر فتلاعنا، فتقدم عويمر، فتلا عليهما رسول الله ﷺ آية اللعان ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ الآية ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن غضب الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم شهدت بأربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به ، فقال لها رسول الله ﷺ : العني نفسك الخامسة فشهدت ، وقالت في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به ، فقال لهما رسول الله ﷺ : اذهبا فلن تحلَّ لك، ولن تحلِّي له أبدًا ، فقال عويمر: يا رسول الله! فالذي أعطيتها؟ فقال : إن كنت صادقاً فهو لها بما استحلتت فرجها ، وإن كنت كاذباً فهو أبعد لك منه» (٢٦).

وقال ابن الأثير في أسد الغابة (٢٧): عويمر بن أبيض العجلاني الأنصاري

صاحب اللعان . . . ، ثم نقل عن الطبري أَنَّ عويمر بن الحارث بن زيد بن حارثة بن الجد العجلاني، وهو الذي رمى زوجته بشريك بن سمحاء، فلاعن رسول الله ﷺ بينها، وذلك في شعبان سنة تسع لما قدم من تبوك.

القصر في الصلاة

ذكر العلامة الحلي: «... وقال جابر أقام النبي ﷺ في غزوة تبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة» (٢٨).

الصلاة على الدابة:

روى في قرب الإسناد عن حماد بن عيسى (٢٩). قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكان يصلي صلاة الليل على راحلته حيث توجهت به، ويومئ إيماء».

تحريم المتعة في تبوك:

إنَّ أحاديث تحريم المتعة مضطربة جداً يخالف بعضها بعضاً؛ لأنَّه روي في بعضها أنَّه ﷺ حرمها عام خيبر، وروي في بعضها أنَّه ﷺ حرمها عام الفتح بمكة، وروي في بعضها أنه في غزوة تبوك، وروي في بعضها أنه حرمها في حجة الوداع!

الجمع بين الصلاة:

... حدثنا ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ جمع بين الصلاة في سفرة سافرهما في غزوة تبوك، فجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. قال سعيد فقلت لابن عباس: ما حملهُ على ذلك؟ قال: أراد أن لا يخرج أمته (٣٠).

تشريع الجزية:

وقيل: شُرِّعت في السنة التاسعة، وهذا هو الظاهر؛ لأنَّ سورة التوبة التي فيها آية الجزية نزلت قبيل غزوة تبوك في السنة التاسعة. ولما توجه رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك من أرض شام صالح أهل أيلة وأذرح ومقنعا والجربا على الجزية

مسجد ضرار:

روى أَنَّ بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قباء، وصَلَّى فيه رسول الله ﷺ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجد الضرار، وأرادوا أَنْ يَحْتَالُوا بذلك فيفرقوا المؤمنين، ويوقعوا الشك في قلوبهم، بأن يدعوا أبا عامر الراهب من الشام ليعظهم، ويذكروهن دين الإسلام، ليشتك المسلمون ويضطربوا في دينهم، فأخبر الله نبيه بذلك، فأمر بإحراقه وهدمه بعد الرجوع من تبوك .
وفي مجمع البيان ضراراً، أي: مضارة، يعني: الضرر بأهل مسجد قباء، أو مسجد الرسول؛ ليقُل الجمع فيه (٣٢).

الجهاد الأكبر:

روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ لما رجع من غزوة تبوك، قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعني: جهاد النفس، هو اجتباكم واختاركم لدينه ولنصرته» (٣٣).

هذا، آخر ما أردتُ المساهمة فيه، في الكلام عن آخر عزوة من غزوات الرسول الأعظم صلوات الله عليه وعلى آله، علَّني بذلك أكون قد قدَّمت فائدة ولو قليلة للقارئ، فينالني بذلك شفاعة النبي وآله عليهم أفضل الصَّلَاة والسلام.



الهوامش:

- (١) تاريخ يعقوبي، ج ٢ ص ٦٧.
- (٢) معجم البلدان، الحموي، ج ٢ - ص ١٤.
- (٣) معجم البلدان، الحموي، ج ١ ص ٢٩١.
- (٤) هرقل على وزن دمشق، وهرقل وزان خندف: اسم ملك الروم. القاموس المحيط، ج ٤ ص ٦٩ (هرقل).
- (٥) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى. معجم البلدان، ج ١ ص ٤٨٩.
- (٦) تفسير القمي، ج ١ ص ٢٩٠.
- (٧) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩ ص ١٩٢.
- (٨) السيرة النبوية، ابن كثير، ج ٤ ص ٧.
- (٩) كنز العمال، المتقي الهندي، ج ٢ ص ٤٢٧.
- (١٠) السيرة النبوية، ابن كثير، ج ٤ ص ١١.
- (١١) تفسير غريب القرآن، فخر الدين الطريحي، ص ٢٦٣.
- (١٢) السيرة النبوية، ابن كثير، ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٩.
- (١٣) وهذا حديث المنزلة المعروف. ولمعرفة مصادر هذا الحديث راجع كتاب المراجعات ص ١٣٩ - ١٤٢ والاستيعاب ٣ / ١٠٩٧.
- (١٤) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٤ ص ٢٩٧.
- (١٥) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤ ص ١٩.
- (١٦) راجع تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٣٧١، السيرة النبوية لابن هشام الحميري، ج ٤ ص ٩٥١.
- (١٧) راجع تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٣٦٩.
- (١٨) الوسائل - الباب ٥٦ من أبواب جهاد العدو الحديث ١ - ٢ - ٣.
- (١٩) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤ ص ٣١.
- (٢٠) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٠٨.
- (٢١) الكشف، الزنجشيري، ج ٢ ص ٢٠٣.
- (٢٢) الامثل، الشيخ مكارم الشيرازي، ج ٦ ص ١٢٧.
- (٢٣) السيرة النبوية / ابن هشام ٤: ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠.

- (٢٤) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٣٧٤ .
- (٢٥) الموسوعة الفقهية الميسرة، الشيخ محمد علي الأنصاري، ج ٣، هامش ص ٢٤٤ .
- (٢٦) تفسير القمي ج ٢ ص ٩٨، الوسائل ج ١٥ ص ٥٨٩ ب ١ ح ٩ مع اختلاف قليل .
- (٢٧) أسد الغابة، ابن الأثير، ج ٤ ص ١٦٨ .
- (٢٨) منتهى المطلب (ط. ق)، العلامة الحلي، ج ١ ص ٣٩٧ .
- (٢٩) رواه في الوسائل في الباب ١٥ من القبله .
- (٣٠) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٥١ .
- (٣١) فتوح البلدان. ص ٧٩ .
- (٣٢) الرسائل، الإمام الخميني، ج ١ ص ٣١ .
- (٣٣) التفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج ٣ ص ٣٩١ .

رسول البشرية

في حوار مع العلامة الشيخ باقر شريف القرشي

□ إعداد: قسم العلاقات

أخي القارئ، بين يديك حوارٌ أجرته «رسالة الثقلين» بمناسبة جعل هذا العام مختصاً بالنبي الأعظم ﷺ مع سماحة المحقق، صاحب التصانيف القيّمة، العلامة الشيخ باقر شريف القرشي حفظه المولى عزّ وجلّ، أحببنا أن ننشره في هذا العدد في ضمن الملف الخاص بالنبي صلوات الله عليه وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

رسالة الثقلين: بما أننا نعيش في أيام بعثة النبي الأكرم ﷺ فما هي الحكمة والسّرّ الإلهي الكامن في هذه البعثة النبويّة، على أساس ما يفهم من القرآن والأحاديث الشريفة والواقع التاريخي المعاش آنذاك؟

الشيخ القرشي: بسم الله منزل الكتاب هدى ورحمة، ونفحات من روح الله تعالى على نبيه العظيم، الذي غير مجرى التاريخ، وقلب الحياة من البؤس والظلام إلى حياة مفعمة بالنور. كانت الأمة العربيّة، والمجتمع الإنساني غارقين في مناهاتٍ سحيقة من مجاهل هذه الحياة، لا فكر ولا وعي ولا تدبّر، وكان السائد في الحياة الاقتصادية آنذاك - خصوصاً في الجزيرة العربيّة - أن القوي ينهب الضعيف، ويُسْـتولي على إمكانيّاته الاقتصادية، وكان السائد - أيضاً - في

العالم العربي وخصوصاً في مكة أنّها كانت قلعةً للأصنام والأوثان، يعبدونها من دون الله تعالى خالق الكون، ووهّاب الحياة، وكان المجتمع غارقاً في الآثام، فالزنا والرّبا منتشرٌ بصورةٍ طبيعية، وغير ذلك من الرذائل التي توجب أن تكون الحياة بائسةً ومظلمةً وشقيةً، فاختار الله تعالى عبده ونبّيه ليقوم بأداء رسالة ربّه، وقام وحده أمام تلك الوحوش الكاسرة، التي لا ترى الله وقاراً، ولا تعترف به. فرسول الله ﷺ بعثه الله لطفاً وفضلاً ومنةً لعباده، فأنقذهم من تلك المتاهات السّحيقة، ومن مجاهل الحياة، وجعل لهم حضارة؛ لأنّ الحضارة قوامها بلا شك - حسب ما ذكره علماء الاجتماع - بالقانون الذي يسود في البلاد، وقانون الإسلام هو القرآن الكريم والسّنة النبويّة التي تناولت جميع مشاكل الحياة، وتناولت جميع ما يصبو إليه الإنسان من التّطوّر والرقى والإبداع في هذه الدنيا. رسالة الثّقيلين: ساحة الشّيخ ما المقصود من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؟ بمعنى أنّه ما هي الأبعاد المهمة في حياة النّبي ﷺ التي يجب على المسلمين أن يلتفتوا إليها، ليتخذوا منها القدوة والأسوة؟

الشّيخ القرشي: أهمّ الأبعاد في شخصية الرّسول العظيم يُمكن تلخيصها في كلمتين: قوّة الإرادة، وسمو الدّات، مع التّحليّ بالأخلاق الفاضلة، التي استطاع بواسطتها ذلك أن يغيّر قلوب الناس، ويستولي على عواطفهم. والله تعالى يريد من المسلمين في تلك الآية أن يكون الرّسول هو مثلهم الأعلى، في سلوكهم، وفي آدابهم، وفي اجتماعهم، وفي منافراتهم، وفي جميع متطلّبات حياتهم، يريد حياة حافلة بالكرامة، وحافلة بالنّور، وحافلة بجميع الأبعاد التي يسمو بها الإنسان. يريد الله تعالى من المسلمين أن يكون النّبي العظيم ﷺ قدوة لهم في سلوكهم، وفي آدابهم.

وعند نبتعد عن هذه الشّخصيّة، ولا نتبعها فسوف نكون كالغرب الذين

نسوا الله فأنساهم أنفسهم. فإنَّ من ينظر إلى الغرب يرى حياة بائسةً مظلمةً؛ انقطعت فيها الرُّوابط الاجتماعية التي تنعقد بها الأسرة، فلا الأب له علاقة بالابن، ولا الابن له علاقة بالأب، كان الأب إذاً كبر أنسه أن يتخذ الكلب رفيقاً له دون أولاده. وما نراه فيها من هذه الحضارة البراقة عند انخداع أبصارنا، فإنَّه سرعان ما نعود إلى الواقع، لنرى أنَّها جهنم، وليست بحضارة.

رسالة الثقلين: ماذا تفيدوننا عن الأسوة في بعدها الإداري؛ إذ لا شك أنَّ النبي ﷺ تميَّز بهذا البعد، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي، ما هو الشيء الذي يمكن أن نستفيد منه بها يرتبط بواقعنا المعاصر، خصوصاً للقادة الاجتماعيين والسياسيين؟

الشيخ القرشي: النبي ﷺ يرى الحكم والسلطة العامة في البلاد، والجهاز الحاكم كُلُّ ذلك يراه أنَّه ينبغي أن يصبَّ في خدمة الشعب، وليس لها من سبيل في أن تستغلَّ أموال الدولة للمنافع الشخصية، والنزوات الفردية؛ فإنَّ كُلَّ ذلك مجافٍ لسيرة الرسول الأكرم ﷺ. وأنتم إذا قرأتم عن خطر الإمارة في الإسلام، وما أثر عن النبي ﷺ من الأحاديث المتكررة التي أدلى بها، تفهموا كم كان من أولياته تكوين الجهاز الحاكم الذي يتَّصف بالنظافة والنزاهة في كُلِّ أبعادهما.

ومن قرأ سيرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، باب مدينة علم النبي، واطَّلَعَ على بعض أجهزة الإدارة والتعاليم التي يوجَّهها لها، لوجد أنَّ ذلك الحكم الذي ينشده الإسلام لم يكن له نظير في جميع تاريخ الأمم والشعوب قديماً وحديثاً. إنَّ الإنسانية على ما جرَّبت من تجارب، وأبدعت من فنون الحكم والإدارة، فإنَّها لا تستطيع في أيِّ حال من الأحوال أن تنشأ نظاماً سياسياً متطوراً براقاً كما أنشأه الإسلام.

رسالة الثقلين: في عصرنا الحاضر نجد أنَّ معايير الحق والباطل قد تغيَّرت، بل يمكن القول إنَّها قد انقلبت رأساً على عقب، فإذا أردنا أن نرجع إلى أصالتنا،

وإلى زمن النبي ﷺ فإذا استفاد منه بالنسبة للمعايير التي أعطاهما لصحابته للتمييز بين الحق والباطل، حتى نستفيد من ذلك في عصرنا الحاضر؟

الشيخ القرشي: هذا يتوقف على أن تشاع في المدارس والمعاهد والجامعات والكليات روح الإسلام وتعاليمه، فيترجى عليها أبناء المجتمع من بداية نعومة أظافرهم، وهذا هو الذي يُشكّل الرّصيد القوي، والقوّة الضّاربة، والفرقان الذي يُميّز به بين الحقّ والباطل.

رسالة الثّقيلين: في هذه السّنة بالذات طالعتنا حملةٌ عشوائيةٌ تمسّ شخصية النبي ﷺ والمباني الفكرية للإسلام، فنظر كم الشّريف ما هي أبعاد هذه الحملة من جهة، ومن جهة أخرى ما هي وظائف المسلمين تجاه هذه الحملة الشرسة؟

الشيخ القرشي: الذي أراه بعد مزيد من التأمل أنّ هذه الطّعون التي وُجّهت إلى قائد البشرية وسيد الأنبياء، إنها هي من إسرائيل وعملاء إسرائيل، فإسرائيل هي التي تكيد للمسلمين في اللّيل إذا يغشى، وفي النهار إذا تجلّى، وهي التي تبث سمومها للنيل من شخصية الرسول ﷺ. وما لا شبهة فيه أنّ هذه الطعون الموجهة لا تلتقي بصلة مع الصعيد الفكري والعلمي في الإسلام؟

رسالة الثّقيلين: ما هي الأهداف من هذه الحملة؟

الشيخ القرشي: هذه الأهداف ليست إلاّ عبارة عن إفساد المسلمين، وإبعادهم عن قيمهم، والتّشكيك في نبينهم.

رسالة الثّقيلين: نحن كأتباع لهذه الشخصية الفذة العظيمة ما هي وظيفتنا تجاه هذه الحملة؟

الشيخ القرشي: وظيفتكم أن تدرسوا الإسلام الصحيح وتنشروه على واقعه في الصحف والمجلات والكتب الخاصة.

رسالة الثّقيلين: كحركةٍ عمليةٍ قد قام بعض أتباع الإسلام بأعمالٍ، ربما يُقال عنها إنّها تشوّه سمعة الإسلام، من قبيل القتل، ووضع المتفجّرات، وما إلى

ذلك ممّا حصل أخيراً في بعض الدُّول الغربيّة، فهل بنظركم هذا يفي في صدِّ هذه الحملة؟

ج: كلا، الذي أراه أن ينشر الإسلام على واقعه بين أبنائه قبل أن يبعث إلى الغرب وإلى أوربا، فإذا فهم المسلمون الإسلام، وساروا على سنة رسول الله هدياً وسلوكاً، فإنَّهم يكونون أداةً ووسيلةً مناسبة في الدِّفاع عن نبيِّهم؛ لأنَّ المسلم إذا تحلَّى بالصفّات التي يدعو إليها الإسلام سار ذلك دعوة للإسلام بالعمل الصَّحيح.

رسالة الثَّقَلين: سماحة الشيخ، كسؤال ختامي سماحة السيّد القائد - حفظه الله ورعاه - أعلن هذه السَّنة الهجريّة الشَّمسيّة عاماً للنَّبِيِّ الأكرم، وكان ذلك كردّ فعلٍ على هذه الهجمة، فما هو تعليقكم على ذلك؟

الشَّيخ القرشي: هذا الإعلان من القائد الأعلى للأُمَّة الإسلاميّة، ومركز فكرها وحضارتها حفظه الله وأبقاه ذخراً للإسلام، قد تبنَّى الموضوع من أصوله وأساسه الصحيحة، وعلى أهل العلم أولاً، والطبقات المثقفة ثانياً، أن يدرسوا الإسلام تراثاً علمياً مستمداً من كتاب الله، وسنَّة نبيِّهم، ويبشّوا أمثال هذه الدِّراسات بين النَّاس بجميع طبقاتهم، وثاقفاتهم.

رسالة الثَّقَلين: في الختام نتقدم بالشكر الجزيل من سماحتكم، ونعتذر منكم على الأخذ من وقتكم، وأنتم في حالة مرضٍ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمسّن عليكم بالشفاء الدَّائم، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

وظائف الأقليات المسلمة على ضوء قاعدتي وجوب الهجرة وحرمة التعرُّب

□ الشيخ أحمد المبلفي (*)

هنالك العديد من القواعد التي تقبل التطبيق على أوضاع الأقليات المسلمة، وتساعد على تعيين أحكامهم عبر هذا التطبيق. فمن أهم هذه القواعد وأنفعها قاعدتا «وجوب الهجرة» و «حرمة التعرُّب بعد الهجرة»؛ حيث إنَّهما تعينان على بيان حكم الكثير من قضاياهم المصيرية، وتؤطران نشاطاتهم الاجتماعية في اتجاه تحقيق مصالحهم الدنيوية والدنيوية. ويُسلط هذا المقال الضوء على البحث عن هاتين القاعدتين ضمن المحاور التالية:

- ١- قاعدة «وجوب الهجرة»؛ دليلها ومدلولها.
 - ٢- قاعدة «حرمة التعرُّب بعد الهجرة»؛ دليلها ومدلولها.
 - ٣- مرور على بعض نتائج البحث.
- المحور الأول: قاعدة وجوب الهجرة؛ دليلها ومدلولها.

(*) باحث ومفكر إسلامي، ورئيس مركز الدراسات العلمية للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

أ - دليل القاعدة:

قد استفاد الفقهاء وجوب الهجرة من أدلة، وهي ما يلي:

(أ) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾^(١).

يقول الشيخ الطوسي حول هذه الآية:

«نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، فأوجب الهجرة»^(٢).

ويقول العلامة الحلي حول الآية:

«أوجب الله تعالى في كتابه الهجرة عن بلاد الشرك ...»^(٣).

ويقول المحقق القمي حولها أيضاً:

«وفيهما من التأكيد ما ليس في غيرها، فتركها من الكبائر الموبقة»^(٤).

(ب) قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِنِّي فَاغْبُدُونِ﴾^(٥).

اعتبر صاحب الجواهر أن استفادة وجوب الهجرة من هذه الآية يتم بناء على

كون المراد بها الإشارة إلى الهجرة عن المكان الذي لا يتمكّن فيه من العبادة^(٦).

(ج) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٧).

د - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٨).

هـ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوَّتْهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٩).

و - ما دلّ من الروايات على طلب المهاجرة، كالنبوي:

«من قرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم، ونبية محمد ﷺ» (١٠).

فإنَّ صاحب الجواهر يرى أنَّ وجوب الهجرة يثبت بهذه الروايات، وكذلك بجملة من تلك الآيات، وذلك بضميمة أنَّ الأصل في الطلب الوجوب (١١). وقال في موضع آخر من كلامه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أوجب الهجرة، وعدَّ وقوع هذا الإيجاب منه ﷺ أمراً معلوماً (١٢)، أي: لا غبار عليه.

ب - مدلول القاعدة:

من المعلوم أنَّ الهجرة ليست واجبة بشكلٍ مطلق، بل هناك شروطٌ لو توفَّرت لكانت واجبة، ولذلك نجد الفقهاء يُقسِّمون الهجرة إلى ثلاثة أقسام، يقول الشَّيْخ الطُّوسِيُّ:

«وكان النَّاسُ على ثلاثة أضرب: منهم من يُستحبُّ له، ولا يجب عليه، ومنهم من لا يُستحبُّ له، ولا يجب عليه، ومنهم من يجب عليه» (١٣). وانطلاقاً من ذلك نقول: إنَّ موضوع قاعدة وجوب الهجرة متكوَّن من عدَّة عناصر، وهي كما يلي:

العنصر الأوَّل: القدرة على الهجرة.

يقول الشَّيْخ:

«الذي تلزمه الهجرة وتجب عليه: من كان قادراً على الهجرة» (١٤).

ويقول صاحب الجواهر في هذا المجال:

«إنَّما تجب مع المكنة، لا مع عدمها بلا خلافٍ أجده أيضاً فيه» (١٥).

وقد استدلَّ على اعتبار هذا القيد بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» (١٦)، المؤيَّد بنفي الحرج وغيره من

العقل والنقل.

العنصر الثاني: كون البلدة التي يُهاجر منها من بلاد الشُّرك.

ويبدو من البعض اعتبار هذا العنصر كمَقْوَمٍ للهجرة الشرعية، فالهجرة الواجبة لديهم هي التي تتم من بلدة الشُّرك إلى غيرها. ومن هؤلاء البعض صاحب الجواهر، قال:

«يجب المهاجرة عن بلدة الشُّرك»^(١٧).

بينما أطلق آخرون ولم يقيّدوا البلد بكونه بلد شرك، كالشيخ الطُّوسي، في حين لم يجعلها البعض الآخر منحصرةً ببلد الشُّرك، بل صرّح بأن الهجرة قد تتم من غير بلد الشُّرك.

والحقيقة أنّ الهجرة غير منحصرة بما إذا تمّ الخروج من بلد الشُّرك إلى غيرها، بل الملاك عدم تمكّن الشخص من حفظ دينه في منطقة، وإن كانت تلك المنطقة إسلامية.

العنصر الثالث: كون البلدة التي يُهاجر إليها من بلاد الإسلام.

قد يُتصوّر أنّ الهجرة لا معنى لها إلّا فيما إذا سافر الشخص بهدف حفظ دينه إلى البلاد الإسلامية، غير أنّ الحقيقة أنّ قاعدة وجوب الهجرة ليس مدلولها فقط الهجرة إلى دار الإسلام، أو المكان الذي فيه الإسلام، بل قد تتمثل الهجرة في السفر إلى بلدة غير إسلامية.

فالمقصد في الهجرة الإسلامية كما قد يكون بلدة إسلامية، فقد يكون بلدة غير إسلامية أيضاً، وإن كان المبدأ لها بلدة إسلامية.

إذ لو اخترنا غير ذلك فلن نتمكّن من توجيه هجرة النبي الأكرم ﷺ؛ حيث إنّه هاجر إلى يثرب، وهي آنذاك بلدة غير إسلامية، فهجرته هي التي جعلتها بلدة إسلامية، كما لن نتمكّن من توجيه هجرة جعفر الطيّار ومن كان معه إلى الحبشة.

العنصر الرابع: عدم التمكن من إظهار دينه.
يقول الشيخ الطوسي في ذلك:

«أما الذي تلزمه الهجرة وتجب عليه من لا يتمكن من إظهار دينه بينهم، فيلزمه أن يهاجر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، فدل هذا على وجوب الهجرة على المستضعف الذي لا يقدر على إظهار دينه، ودليله أن من لم يكن مستضعفاً لا يلزمه». ثم استثنى من لم يقدر، فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ﴾ (١٨).

ويقول صاحب الجواهر:

«يجب المهجرة عن بلد الشرك على من يضعف عن إظهار شعار الإسلام من الأذان والصلاة والصوم وغيرها، سُمي ذلك شعاراً؛ لأنه علامة عليه، أو من الشعار الذي هو الثوب الملاصق للبدن، فاستعير للأحكام اللاحقة للدين، بلا خلاف أجده فيه بين من تعرض له، كالفاضل والشهيد وغيرهم» (١٩).

والحقيقة أن الموجب للهجرة ليس فقط عدم التمكن من إظهار دينه، بل هناك أمور أخرى هي مظنة أنها قد تسبب في بعض الظروف وجوباً للهجرة على بعض الناس، فعلى المفتي أن يراعي في إصداره للفتوى حول الهجرة هذه الأمور.

والإذعان بكون هذه الأمور موجبة للهجرة يحصل فيها لو التفتنا إلى نقطة هامة، وهي:

أن مسألة الأقليات المسلمة ليست قضية طارئة ومؤقتة، بل تعد قضية متجذرة في أعماق المجتمعات الحديثة، وظاهرة مستمرة ومتنامية، تتضمن عناصر من قبيل حصول الكثير من الأفراد في الأقليات على حق المواطنة في

إطار معايير قانونية، مثل الزواج، أو الميلاد في تلك البلاد، أو أمد الإقامة أو ... ، وامتلاكهم لإحساس كون تلك البلاد أوطانهم.

وعليه: فإنه على علماء المسلمين ومفكرهم وذوي الأموال منهم دعم هذه الأقليات. ومعلوم أنه لو توقف هذا الدعم على السفر إليهم أو السكنى لديهم لكان ذلك واجباً عليهم.

ومن هنا أمكن القول بأن الأمور التالية قد تسبب إيجاباً للهجرة إلى البلدان غير الإسلامية، وهي:

- تقوية الهوية الدينية الإسلامية للمسلمين المتواجدين في المجتمعات الغربية، والدول غير الإسلامية.

- إعطاء المساعدات المالية للطلّاب المسلمين في جامعات الدول غير الإسلامية.

- المشاركة في الحوار البناء مع أتباع وعلماء سائر الأديان الإلهية.

- بناء المساجد، وإنشاء المراكز الخيرية.

- انتهاز فرص حركة العمالة في البلدان الغربية لصالح الإسلام.

المحور الثاني: قاعدة حرمة التعرّب بعد الهجرة؛ دليلها ومدلولها.

نشير قبل كلّ شيء إلى أنّ إطلاقنا لعنوان القاعدة على حكم (حرمة التعرّب بعد الهجرة) إنّما يكون متّجهاً بلحاظ ما سنختاره من تفسير وتقرير لهذا الحكم، أي: حرمة التعرّب بعد الهجرة.

أ- دليل القاعدة:

هناك روايات يمكن الاستفادة هذه القاعدة منها:

١- عن ابن محبوب قال: كتب معي بعض أصحابنا إلى الحسن عليه السلام يسأله عن الكبائر كم هي؟ وما هي؟ فكتب: الكبائر: من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً، والسبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق

الوالدين، وأكل الرِّبَا، والتَّعَرُّب بعد الهجرة، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزَّحَف^(٢٠).

٢- عن أبي بصير: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: الكبائر سبعة: منها قتل النَّفس متعمداً، والشُّرك بالله العظيم، وقذف المحصنة، وأكل الرِّبَا بعد البيّنة، والفرار من الزَّحَف، والتَّعَرُّب بعد الهجرة، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم ظلماً، قال: والتَّعَرُّب والشُّرك واحد^(٢١).

٣- عن مُحَمَّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمداً، وقذف المحصنة، والفرار من الزَّحَف، والتَّعَرُّب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الرِّبَا بعد البيّنة، وكُل ما أوجب الله عليه النَّار^(٢٢).

٤- عن عبيد بن زرارَةَ: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الكبائر، فقال: هنَّ في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النَّفس، وعقوق الوالدين، وأكل الرِّبَا بعد البيّنة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزَّحَف، والتَّعَرُّب بعد الهجرة، قال: فقلتُ: فهذا أكبر المعاصي؟ قال: نعم^(٢٣).

٥- وعَلَّ الإمام الرضا عليه السلام حرمة التَّعَرُّب بعد الهجرة بقوله: لأنَّه لا يؤمن أن يقع منه ترك العلم، والدُّخول مع أهل الجهل، والتَّماذي في ذلك^(٢٤).

ب - مدلول القاعدة:

ولفهم مدلولها نطرح سؤالين:

السُّؤال الأوَّل: ماذا يعني التَّعَرُّب؟

وفي الإجابة على هذا السُّؤال نواجه ثلاثة فروض:

الأوَّل: أن يقوم معناه على أساس المعنى اللُّغوي المعهود لكلمة (الأعرابي)، والذي يعني ساكن البادية، وهو من العرب؛ فإنَّه حسب هذا المعنى يكون (التَّعَرُّب) بمعنى ذهاب الشَّخص إلى المناطق التي يسكن فيها الأعراب.

الثَّاني: أن يتمَّ معناه على أساس اعتبار كلمة (الأعرابي) بمعنى ساكن البادية،

وإن لم يكن من العرب، وعليه فإنَّ التَّعَرُّبَ يعني ترك المدينة والذهاب إلى البادية. وقد اختار هذا المعنى الشَّهيد في حاشية الإرشاد^(٢٥)، وهو مختار الأردبيل أيضاً^(٢٦).

الثَّالث: أن يكون معنى التَّعَرُّبَ حاصلًا على أساس اعتبار (الأعرابي) بمعنى من لا يعرف محاسن الإسلام وتفاصيل أحكامه، بل يتخلَّق بأخلاق الأعراب البدوية المبنية على المسامحات.

وقد اختار هذا الفرض كثيرٌ من الفقهاء، منهم السيّد الحكيم؛ حيث قال: «والأعرابي وإن فُسِّر بساكن البادية، إلَّا أنَّ منصرفه من كان متخلِّقاً بأخلاقهم الدِّينية المبنية على المسامحات»^(٢٧).

وقد نفى السيّد الخوئي أن يكون المراد من الأعرابي الشَّخص الذي يسكن البوادي، ولعلَّه يُستفاد من نفيه هذا ردّه لكلا الفرضين الأوّلين، وتبيّنه للثَّالث^(٢٨).

وأصحاب هذا الفرض الثَّالث مختلفون من حيث تفسيره للتَّعَرُّبَ، فقد قال البعض بأنَّ المقصود منه ذهاب الشَّخص إلى مكان يسوده جوٌّ غير إسلامي، لا يتمكّن فيه من الالتزام بالقيم، ولا من الحصول على المعارف الإسلامية، والأحكام الشرعيّة. ومن هؤلاء السيّد الخوئي؛ حيث عرّفه بالانتقال إلى بلد الكفار^(٢٩).

وقال البعض الآخر: إنّه يعني أن يشتغل الإنسان بتحصيل العلم ثم يتركه^(٣٠).

السُّؤال الثاني: ماذا تعني كلمة الهجرة الذي يقع التَّعَرُّبَ بعدها؟
هناك اتّجاهان في الجواب عن هذا السُّؤال:

الاتّجاه الأوّل: اعتبار كون المقصود من الهجرة الهجرة غير المكانية، مع التّركيز على اعتبار كون التَّعَرُّبَ الحاصل بعدها يعني ترك تحصيل العلم، أو ترك

الالتزام بالأمر الديني.

ويمكن اعتبار الأخباريين من أصحاب هذا الاتجاه؛ حيث ذهبوا إلى أنَّ المقصود من التعرُّب بعد الهجرة هو ترك تحصيل العلم بالدين بعد الاشتغال به، أو ترك الالتزام بالأمر الديني بعد حصول المعرفة به.
قال في الوافي:

«ولا يبعد تعميمه لكل من تعلَّم آداب الشرع وسننه، ثم تركها وأعرض عنها، ولم يعمل بها»^(٣١).

وقد تمسَّكوا لإثبات اتِّجاههم بما في معاني الأخبار عن الصادق عليه السلام أنه قال:
«التَّعَرُّبُ بعد الهجرة التَّارِكُ لهذا الأمر بعد معرفته»^(٣٢).

والجدير بالذكر أنَّ أصحاب هذا الاتجاه يشكلون جملةً من القائلين بالفرض الثالث المشار إليه سابقاً في تفسير التعرُّب، من كون التعرُّب حاصلًا معناه على أساس اعتبار الأعرابي بمعنى من لا يعرف محاسن الإسلام، وتفصيل أحكامه، بل يتخلَّق بأخلاق الأعراب البدويَّة المبنية على المسامحات.

الاتِّجاه الثاني: اعتبار الهجرة الواردة في الرواية هجرة مكانية، وقد انقسم أصحاب هذا الاتجاه على طائفتين:

الأولى: من يرى أنَّ المقصود من الهجرة في الرواية الهجرة النبويَّة، وعليه: فكانت الرواية بصدد القول: إنَّه لا يجوز أن يتعرَّب مسلمٌ بعد هجرة النبي ﷺ، بمعنى أن يذهب إلى البادية التي فيها الأعراب، أو يذهب إلى مطلق البادية، أو يذهب إلى منطقة لا يتوفَّر فيها المجال للوصول إلى المعرفة الدينية، والالتزام بالدين، حسب الاختلاف الذي قد مرَّ حول معنى التعرُّب.

الثانية: من يرى أنَّ المقصود من الهجرة هجرة الشخص نفسه، وعليه فإنَّ الرواية بصدد القول: إنَّه لا يجوز لمن دخل البلدان الإسلاميَّة الإعراض عنها، وهذا القول لصاحب المجمع؛ حيث قال:

«التَّعَرُّبُ بعد الهجرة يعني: الالتحاق ببلاد الكفر، والإقامة بها بعد المهاجرة عنها إلى بلاد الإسلام، وكان من رجع من الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمترد» (٣٣).

ويبدو من السيّد الخوئي ذهابه إلى هذا المعنى؛ حيث قال:
«التَّعَرُّبُ بعد الهجرة أي: الإعراض عن أرض المسلمين بعد الهجرة إليهم، والانتقال إلى بلد الكفار» (٣٤).

هذا، ويمكن القول بأنّ الثَّاني هو الصَّحيح؛ وذلك لأنّ كلمة الهجرة رغم ورودها في جملة من الروايات بمعنى الهجرة المعنويّة، غير أنّه لا ينبغي أنْ تحمل كلمة الهجرة في الرواية المبحوث عنها هنا على هذا المعنى، أي: الهجرة المعنوية؛ وذلك لأمرين:

أحدهما: أنّ الأصل أنْ تحمل كلمة الهجرة على الهجرة المكانية في كلّ مورد أُطلقت فيه، وكانت خالية عن القرينة، وأنّ حملها على المعنوية بحاجة إلى قرينة، وإعمال مؤونة.

وثانيهما: أنّه - حتى مع قطع النظر عن الأصل المشار إليه - توجد قرينة في البين تدلّ على كون الهجرة هنا قد وردت بمعنى الهجرة المكانية، وهذه القرينة هي اقترانها مع كلمة (التَّعَرُّب) في الرواية، وقرينة ذلك بلحاظ أنّ التَّعَرُّب بعد الهجرة قد عُدّ في الرواية من الذُّنوب الكبيرة، ومن المعلوم: أنّ الذي يمكن أنْ يكون من الذُّنوب الكبيرة هو الدُّخول والسُّكنى في الأماكن الفاسدة غير الإسلامية، وأما مثل ترك تحصيل العلم؛ فإنّه لا يعقل اعتبار كلّ من ارتكبه مرتكباً لذنْبٍ كبير؛ فإنّ تحصيل العلم من الواجبات الكفائية، يسقط وجوبه بقيام ما به الكفاية به.

هذا، ولقائل أنْ يقول: إنّهُ بالالتفات إلى النُّقطتين التَّاليتين يبطل هذا الاستدلال، ويثبت الاتجاه الأوّل، وهما:

أ - أنَّ الرواية التي أُشير إليها سابقاً تحكي عن الإمام عليه السلام أنه فسّر التَّعَرُّب بعد الهجرة بالترك بعد المعرفة.

ب - أنَّه لا يصحّ اعتبار اقتران كلمة الهجرة مع كلمة التَّعَرُّب قرينة على كون المقصود منها الهجرة المكانية؛ لأنَّه يمكن أن لا نفسّر التَّعَرُّب بترك تحصيل العلم حتى يُقال: إنَّه لا يعقل اعتبار كلِّ من ارتكبه مرتكباً لذنب كبير، بل نفسّره بما ورد في الرواية من ترك الأمر بعد المعرفة به، ومثله - كما هو معلوم - يعقل اعتباره من الكبائر.

ومع كلِّ ذلك يبدو أنَّ الصَّحيح أن نُجري تعديلاً في الاتجاه الأوّل، ولا أقلّ أن يكون تعديلاً أدبياً، ونجعله المعنى الصَّحيح لقاعدة التَّعَرُّب. ومع هذا التعديل يمكن طرحه كاتجاهٍ ثالثٍ يجمع بين الاتجاهين.

وذلك بأنَّ يقال: إنَّ الرواية بصدد التركيز على هجرة مرنة، وتعَرُّب مرن من حيث التَّطبيق. أما الهجرة فهي الهجرة إلى الدين، على مستوى المعرفة به، أو الالتزام، وقد تتمثّل هذه بالهجرة المكانية تارةً، وبغيرها أخرى. وأما التَّعَرُّب فهو يعني الإقدام على عمل يجعل الإنسان عرضةً للابتعاد عن الدِّين، وهذا العمل قد يتجسّد في ترك الالتزام بالدين بعد المعرفة به، أو محاولة ترك تحصيل المعرفة بالدين من دون وقوع عمل الانتقال إلى بلد الكفر من جانب التَّارك، وقد يتجسّد في تركها بسبب الانتقال إلى بلاد الكفر، كما قد يتجسّد في تركها بسبب الانتقال إلى بلاد فيها فسق وفجور، وإن كان فيها مسلمون.

وللتوضيح أكثر نقول: إنَّ المقصود من الدين واضحٌ؛ فإنَّه عبارةٌ عن أمرين، هما: المعرفة به، والالتزام العملي بأحكامه، وعليه: فإنَّ القاعدة تمنع من الذهاب إلى مكانٍ يتم فيه ترك هذين الأمرين.

هذا، ولكن المدعى أنَّ القاعدة لها دلالة أكثر من هذا، وهي الدلالة على حرمة كلِّ عملٍ يجعل الإنسان عرضةً للابتعاد عن الدِّين، لا فقط حرمة العمل

الذي يوجب الابتعاد عنه بشكلٍ قطعي. وانطلاقاً من ذلك فإنه لو رأى مسلمٌ أنَّه لو ذهب إلى مكانٍ يخاف فيه على دينه من حيث عدم وجود مجالٍ فيه لكسب المعرفة الدنيئة، أو من حيث وجود المجال فيه للوقوع في الانحراف، فلا يجوز له هذا الذهاب بمقتضى القاعدة.

وإنَّما نقول بثبوت هذه الدلالة للقاعدة، بلحاظ أنَّ كلمة التَّعَرُّب وإنَّ قُصِدَ منها في الرواية - كما قلنا - ما هو الأعم من التَّعَرُّب المكاني، غير أنَّ هذه اللَّفْظَةُ لما كانت في الأصل لأمرٍ مكاني، فباستبار كونها مستعملة في الرواية بمعنى أعم، وإنَّ كان معقولاً وموجهاً، غير أنَّ هكذا استخدام لا بدَّ وأنَّ يحصل في دائرةٍ تتناسب مع المعنى الأصلي الذي هو المكاني، ومعلومٌ أنَّ خصوصية البادية - التي يتحقَّق التَّعَرُّب بالذهاب إليها - هي عدم توفّر المجال لتكامل الشَّخص من حيث الثقافة.

وعليه، فإنَّ توجّه الذم إلى إقدامه على التَّعَرُّب الحاصل بالذهاب إلى البادية، لا ينحصر بما إذا انتهى به إلى تحلُّفٍ قطعي من النّاحية الثقافية، بل يتمّ توجُّهه إليه بلحاظ جعل نفسه بسببه عرضةً للتَّخَلُّف الثقافي.

ولو انطلقنا من هذه الفكرة، فلا بدَّ من القول بأنَّه ليس كل انتقالٍ إلى بلاد الكفر تعزباً بعد الهجرة، ولا كلّ بقاء داخل البلاد الإسلامية عدم تعرّب. فالملاك تمام الملاك هو إقدام الشَّخص على عملٍ ينتهي به إلى ابتعاده عن الدِّين، أو يجعله عرضةً لابتعاده عنه، حسب المعنى الذي اخترناه.

وعلى أي حالٍ فإنَّ مثل هذا التفسير للرواية خالٍ عن الإشكالات التي يواجهها الاتجاهان المذكوران، كما هو معلوم.

ويبرز هنا سؤالٌ، وهو أنَّه لو اتَّفَق لشخص أن كان قيامه لتبليغ الدين، أو مبادرته لحفظ نفسه، أو محاولته لنجاته من الظُّلم، منوطاً بالذهاب إلى خارج بلاد الإسلام والسُّكنى فيها، مع أنَّه لو بقي داخل بلاد الإسلام لتمكّن من

كسب مزيد من المعرفة الدينية، أو تمكن من إبراز أكثر الشعائر الدينية، فهل ذهابه يعني تعرباً بعد الهجرة من باب أن كل عمل انجر إلى الابتعاد عن معرفة الدين وشعائره فهو تعرب بعد الهجرة؟

وفي مقام الجواب نقول: ليس كل ابتعاد عن المعرفة الدينية، أو شعائر الدين تعرباً بعد الهجرة، بل التعرب هو الابتعاد عن أصل المعرفة الدينية، أو المقدار اللازم منها، بحيث لو سافر إلى منطقة الكفر، أو الفسق لما تمكن من تحصيل أصلها، أو تحصيل المقدار اللازم منها، لكان تعرباً.

مروء على بعض النتائج:

أولاً: قاعدة وجوب الهجرة تحقق وتنقح موضوع قاعدة حرمة التعرب. فالأصل هو قاعدة الهجرة، لا قاعدة حرمة التعرب؛ حيث إن الثانية إنما جاءت للحفاظ على النتائج التي تحققها الهجرة. فهذه القاعدة تمنع من ارتكاب ذلك العامل الذي يذهب بما تركته الهجرة من آثار معنوية وفكرية ومادية، وهو التعرب.

وعليه: فإن القاعدتين ليستا في عرض واحد، بل إحداها - وهي قاعدة حرمة التعرب - في طول القاعدة الأخرى. وإن شئت فقل: إن قاعدة وجوب الهجرة تحقق موضوع قاعدة حرمة التعرب. وانطلاقاً من هذه النسبة؛ فإنه لا بد قبل كل شيء من تحديد دائرة الهجرة الواجبة، وتعيين مصاديقها، فلو وجدنا مورداً يمثل مصداقاً للهجرة فلا يمكننا نفيه استناداً إلى قاعدة التعرب؛ حيث إن التعرب يعني العدول عن ذلك الذي هو مصداق للهجرة، والتخلي عما يترتب عليها من نتيجة.

ثانياً: قد تحصل الهجرة بالسفر إلى بلدة غير إسلامية، وقد عرفت وجهه.

ثالثاً: مفاد القاعدة حرمة التعرب، وحرمة كل عمل يجعل الإنسان عرضةً للابتعاد عن الدين.

إنَّ هذه القاعدة تدلُّ على حرمة كُلِّ عملٍ يجعل الإنسان عرضةً للابتعاد عن الدين، وانطلاقاً من ذلك فإنَّه لو رأى مسلمٌ أنَّه لو ذهب إلى مكانٍ يخاف فيه على دينه، من حيث عدم وجود مجال فيه لكسب المعرفة الدينية، أو من حيث وجود المجال فيه للوقوع في الانحراف، فلا يجوز له هذا الذهاب بمقتضى هذه القاعدة.

رابعاً: أنَّه ليس كُلُّ انتقالٍ إلى بلاد الكفر يعدّ تعرباً، كما أنَّه ليس كُلُّ بقاء داخل البلاد الإسلامية يعدّ تركاً للتعرب.

خامساً: قد تكون الهجرة إلى بلدانٍ إسلاميةٍ واجبة، إنْ كان فيها تقويةٌ للهوية الإسلامية، أو تقويةٌ للأقليات المسلمة، ونحو ذلك مما تقدّم ذكره. والحمد لله أولاً وآخراً

* * *

الهوامش:

- (١) النساء: ٩٧.
- (٢) الشيخ الطوسي، المبسوط: ٣ / ٢.
- (٣) العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء: ١٠ / ٩.
- (٤) القمي، جامع الشتات: ١ / ٣٧١.
- (٥) العنكبوت: ٥٦.
- (٦) النجفي، الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام: ٣٥ / ٢١.
- (٧) النساء: ١٠٠.
- (٨) الحج: ٥٨.
- (٩) النحل: ٤١.
- (١٠) المجلسي، بحار الأنوار: ٣١ / ١٩.

- (١١) النجفي، جواهر الكلام: ٣٥ / ٢١.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) المبسوط: ٤ / ٢.
- (١٤) المصدر نفسه.
- (١٥) النجفي، جواهر الكلام: ٣٥ / ٢١.
- (١٦) النساء: ٩٧، ٩٨.
- (١٧) النجفي، جواهر الكلام: ٣٤ / ٢١.
- (١٨) الشيخ الطوسي، المبسوط: ٤ / ٢.
- (١٩) النجفي، جواهر الكلام: ٣٤ / ٢١.
- (٢٠) الحر العاملي، وسائل الشيعة باب ٤٦ من أبواب الجهاد الحديث ١، ١٥: ٣١٨. ط آل البيت.
- (٢١) المصدر نفسه، حديث ١٦، ١٥: ٣٢٥.
- (٢٢) المصدر نفسه، حديث ٦، ١٥: ٣٣٢.
- (٢٣) المصدر نفسه، حديث ٤، ١٥: ٣٢١.
- (٢٤) المصدر نفسه، باب ٣٦ من أبواب الجهاد حديث ٢، ١٥: ١٠٠.
- (٢٥) غاية المراد: ١ / ٢٠٧.
- (٢٦) الارديلي، مجمع الفائدة والبرهان: ٣ / ٢٦٥.
- (٢٧) الحكيم، السيد محسن: مستمسك العروة الوثقى: ٧ / ٣٣١.
- (٢٨) الخوئي، المستند في شرح العروة، كتاب الصلاة: ٥ / ٤٣٣ - ٤٤٠.
- (٢٩) المصدر السابق.
- (٣٠) الجزائري: السيد عبدالله، التحفة السنية (مخطوط) / ١٨.
- (٣١) المصدر نفسه.
- (٣٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، باب ٣٦ من أبواب الجهاد، الحديث ٣، ١٥: ١٠٠.
- (٣٣) الطريحي، مجمع البحرين، ٣: ١٤٦.
- (٣٤) الخوئي، المستند، كتاب الصلاة، ج ٥ ق ٢ ص ٤٢٧.

حقوق المرأة في الإسلام مقارنة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان^(*)

□ د. فوزية الشماوي (*)

مقدمة:

أصبحت قضية حقوق الإنسان من أهم القضايا المحورية التي تستحوذ على اهتمام الدول والشعوب في عصرنا الحديث، فأصبح من الأهمية بمكان أن نعقد بين حقوق الإنسان - كما ذكرت في المواثيق الدوليّة، وخاصة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان - وبين حقوق الإنسان في الإسلام، كما نستخلصها من النصوص الإسلاميّة الثابتة من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة.

فإذا رجعنا إلى أصل مصطلح حقوق الإنسان لوجدنا أنه غير متداول في الخطاب القرآني، ولا في الأحاديث النبوية الشريفة، ولا في الفكر الإسلامي الكلاسيكي القديم، وإنّما نجد بدلاً من الجمع (حقوق) المفرد (حق)، وبدلاً من مصطلح (الإنسان) نجد مصطلح (المرء)، أي: الجنس البشري ذكرًا كان أم أنثى.

(*) أستاذة اللغة العربيّة والحضارة الإسلاميّة في كليّة الآداب بجامعة جنيف.

وإلى جانب مصطلح (النَّاس) جمع (إنسان) مثلما جاء في كثير من الآيات القرآنية التي يتوجَّه فيها الخطاب القرآني إلى البشرية جمعاء، والتي غالباً ما تبدأ بـ (أَيُّهَا النَّاسُ)، نجد - أيضاً - مصطلح (بني آدم)؛ لتعميم الخطاب القرآني إلى جميع البشر، كما جاء في بعض الآيات الكريمة. كذلك نلاحظ أنَّ الرَّسُولَ الكريم محمداً ﷺ، قد استخدم مصطلحي (حق) و (ناس) في كثير من أحاديثه، ونذكر هنا هذا الحديث الشريف الذي يكرَّر فيه عدة مرات كلمة (حقاً)؛ تأكيداً على أهمية الحقوق: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقاً، ولبدنك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً، فاعط لكل ذي حق حقه»^(٢)، وفي الشَّطر الثاني من الحديث «اعط لكل ذي حق حقه» يؤكِّد الرَّسُولُ ﷺ على مبدأ هام من مبادئ حقوق الإنسان في الإسلام، وهو إعطاء الحقوق لأصحابها، ولمن يستحقها بدون قيد أو شرط. وبالرَّغم من أنَّ تعبير (حقوق الإنسان) غير موجود لفظاً في الخطاب القرآني، ولا في الأحاديث النبوية الشَّريفة إلا أنَّ أغلبية مبادئ حقوق الإنسان المتعارف عليها عالمياً اليوم، والمذكورة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان موجودة وثابتة في النُّصوص الإسلامية (القرآن الكريم والأحاديث) وفي الفكر الإسلامي، بل إنَّ بعض المصطلحات المذكورة في هذه النُّصوص الإسلامية الثابتة موجودة حرفياً في النُّسخة العربية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي صاغته دول العالم، وأقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨.

أولاً: هل توجد مساواة بين حقوق المرأة وحقوق الرجل في الإسلام؟

لقد أقرَّ الإسلام بالمساواة بين النَّاس أجمعين، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣)، وهذه المساواة تنفي ادِّعاءات التَّفرقة بين الرَّجل والمرأة، فقد أكَّدت الآيات الكريمة على أنَّ معيار التَّفاضل هو التَّقوى، والعمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ

صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً»^(٤)، ولقد أكد الإسلام على أنَّ المساواة بين الناس لا تسود إلا في ظل الحرية والعدل والسلام؛ لأنَّها المعايير الأساسية للحياة في المجتمع. فالإسلام يدعو الناس جميعاً للدُّخول في السُّلَم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٥)، ولا يستقرُّ السُّلَم والسلام إلا على أساس من العدل بين الناس جميعاً، واعتبار الناس جميعاً سواسية كما جاء في الحديث الصَّحيح عن الرَّسول ﷺ: «النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ»^(٦)، وإعطاء الحقوق إلى أصحابها، أي: إقرار العدل بين الناس كما جاء في الحديث الشَّريف: «اعط كل ذي حق حقه».

إنَّ القرآن الكريم حينما تحدَّث عن بدء الخليقة، وعن الأصل الذي ينحدر منه البشر ذكر أنَّ النَّفس البشرية واحدةٌ، وانبثق منها الذَّكر والأنثى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾^(٧)، وطالما أنَّ الذَّكر والأنثى قد خلقا من نفسٍ واحدةٍ فلا تفاضل بينهما في الإنسانيَّة؛ حيث إنَّ الخطاب القرآني موجَّهٌ لِلْإِنْسَانِ معاً بدون تفاضل، بل في أحيان كثيرة يتم التأكيد على أنَّ الخطاب موجَّهٌ للرجال والنساء أيضاً، وليس للرجال فقط، فيتم التأكيد باستخدام جمع المؤنث بالرَّغم من أنَّ جمع المذكر يدخل فيه الرجال والنساء والأطفال، إلَّا أنَّ رحمة الله بالنساء واسعة، لذا أكَّد على التذكير بأن الآيات الكريمةات تعمُّ الرجال والنساء بدون تفرقة، مثلما جاء في كثير من الآيات، ومنها: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَاتِبِينَ وَالْقَاتِبَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾^(٨).

كما أكَّد القرآن كذلك على كرامة المرأة، وأنَّ الله فضَّلها على بقية المخلوقات، مثلها مثل الرَّجل بنفس الدَّرجة؛ حيث جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا^(٩). وقد استخدم العلي القدير في هذه الآية الكريمة مصطلح (بني آدم)، أي: سلالة آدم كلها من الرجال والنساء، أي: الإنسان سواء أكان ذكراً أم أنثى.

ومن ثم فإن الإسلام يُعتبر الدِّين السَّماوي الوحيد الذي أكَّد على إنسانية المرأة، ومساواتها بالرجل في الكرامة والإنسانية؛ حيث يعتبر (توجيه الخطاب للمرأة مستقلة عن الرجل في الخطاب القرآني بمثابة وعي جديد غير مسبوق)^(١٠).

كذلك برأ الإسلام المرأة من اللعنة التي ألصقتها بها أتباع كُلِّ من اليهودية والمسيحية، فقد استخدم القرآن الكريم في سرد وقائع خروج آدم وحواء من الجنة صيغة المثني، وجعل مسؤولية العصيان مشتركةً بينهما، ولم يشر القرآن من قريبٍ أو بعيدٍ إلى أنَّ حواء أغوت آدم وأخرجته من الجنة، فقد جاءت الآية الكريمة تبرأ حواء من هذه التُّهمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأُخْرِجُهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(١١)، كما نجد نفس صيغة المثني حين تابا إلى الله، واعترفا بذنبيهما معاً، وطلباً الغفران: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٢).

ولعلَّ أكبر دليل على أنَّ الإسلام قد اعتبر المرأة - منذ البداية - إنساناً عاقلاً ذا مسؤولية أمام الله وأمام المجتمع، وأنَّ القرآن الكريم لم يفرِّق بين الرجل والمرأة في العبادات، وفي الأجر والثواب، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١٣).

لقد فرض الإسلام على المرأة مثل ما فرضه على الرجل من شهادة وصلاة وصوم وزكاة وحج. فالمرأة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله، ومسؤولة عن صلواتها وعن صومها تماماً مثل الرجل، إلَّا في فترة الحيض والنفاس؛ حيث

تسقط عنها الصَّلاة، ولكن لا يسقط عنها الصوم، بل تعوّضه في أيامٍ آخر. وهي مسؤولةٌ عن إخراج الزكاة بنفس المقدار المفروض على الرجل، سواء زكاة المال أم الزكاة على ما تمتلكه من أراضٍ زراعية، وبنفس النسبة. كما فرض عليها الحج والعمرة إن استطاعت إليهما سبيلاً مثلها مثل الرجال. كما تتحمّل المرأة وحدها مسؤولية أفعالها المدنية من سرقة، أو رشوة، أو اختلاس، أو قتل، وتحمّل المسؤولية الجنائية، وجزاؤها لا يقلّ عن جزاء الرجل، ويحكم عليها بنفس العقوبة التي يحكم بها على الرجل في حالة ارتكاب نفس الجريمة، دون تفرقة بينهما، مثلما جاء في آية السرقة وعقوبتها الموحدة على الرجل والمرأة سواء بسواء: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١٤)، وكذلك الحال بالنسبة لجريمة الزنا، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾^(١٥).

كما أمر الرسول ﷺ بتكريم المرأة بنتاً وزوجةً وأمّاً، وكان أكرم خلق الله مع نسائه وبناته، وظلّ يوصي بالنساء خيراً حتى وهو على فراش الموت: «أوصيكم بالنساء خيراً»^(١٦). ومن أحاديثه الكريمة في تكريم البنات: «من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان فأحسن صحبتهنّ، واتقى الله فيهنّ فله الجنة». (رواه الترمذي)^(١٧). وعن إكرامه للزوجة قوله ﷺ: «خير متاع الدُّنيا الزوجة الصالحة، إن نظرت إليها سرتك، وإن غبت عنها حفظتك»^(١٨). كما كرم الإسلام المرأة الأم، وأوصى بها الرسول في كثير من أحاديثه الشريفة، وجعل البرّ بها مقدماً على برّ الأب؛ حيث أمر الرسول ﷺ ببرّ الأم ثلاثاً، وفي الرابعة أمر ببرّ الأب^(١٩). كما أكد الرسول ﷺ على أنّ الأم لها مكانة سامية في الجنة في ذلك الحديث الشريف: «الجنة تحت أقدام الأمهات»^(٢٠).

كما أنّ الإسلام حمّل المرأة رسالةً اجتماعية، وجعل لها دوراً فعالاً واضحاً داخل المجتمع، وليس فقط داخل أسرتها الصغيرة؛ حيث يأمر الله سبحانه

وتعالى في الآية التالية كلاً من الرجل والمرأة بتأدية دورهما الاجتماعي، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس جميعاً رجالاً ونساء، ولم يخص المرأة بمجال محدود فقط فيم يختص بأمور النساء والأولاد، بل جعل المجال أمامها مفتوحاً مثلها مثل الرجل، مثلما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (٢١).

وحتى تستطيع المرأة تأدية دورها الاجتماعي الذي حدّده لها الإسلام يجب على المجتمع الإسلامي أن يوفر لها الاحترام اللائق بها، ويفسح لها المجال في أماكن العبادة، ومجالس العلم والمجالس النيابية، والمجالس الأخرى التي لا تتنافى مع الاحتشام والعفة، وأن يعاملها كإنسانٍ كامل الأهلية.

وسنسرّد فيما يلي وباختصار أهمّ الحقوق التي منحها الإسلام للمرأة بالتساوي مع الرجل، والحقوق التي أوجد فيها تفريقاً بين المرأة والرجل:

١. الحقوق المتساوية بين المرأة والرجل:

أ- حق التعليم: لقد حثّ الرسول الكريم على طلب العلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٢٢). وكلمة مسلم هنا اسم جنس، أي: أنّها تشمل الرجل والمرأة والأطفال، كما حثّ الرسول ﷺ على تعليم النساء، وكانت معظم زوجاته يجدن القراءة والكتابة، وكتب السيرة تؤكد لنا أنّ جملةً من زوجاته كان يُرجع إليهنّ في السيرة والفقه والتفسير، ونحو ذلك. كما استعان الرسول بامرأة من قبيلة بني عدي تدعى الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس لتعليم بعض نساؤه الكتابة، وتحسين الخط. كما وقد تلقّى الكثير من كبار العلماء في الإسلام العلم على يد النساء.

ب- حقّ استقلال الذمة المالية: منح الإسلام المرأة الأهلية المستقلة، وحرية الذمة المالية قبل كل الحضارات والأديان الأخرى، وكفل لها عقود

المدينات من بيع وشراء ومباشرة عقود التصرفات بجميع أنواعها، والتصرف في أموالها وممتلكاتها، ولها مطلق الحرية في إدارة أملاكها دون أي تدخل من أي رجل، سواء أكان أباً أو أخاً أو زوجاً أو ابناً إلا بإذنها ورضاها. كما أعطاهما القرآن الحق في أن تفدي نفسها بالمال، وتتخلص بها من أذى الزوج، وسوء معاشرته لها، مثلما جاء في الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَيْسَ مَا هُنَا خَيْرٌ مِمَّا هُنَا﴾ (٢٣).

ت- حق العمل: لم يمنع الإسلام المرأة من ممارسة العمل خارج بيتها، فهذه أسماء بنت أبي بكر تباشر العمل في أرض زوجها الزبير بن العوام وتقول: «تزوجني الزبير، وماله في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه، وأكفيه مؤنته، وأسوسه، وأدق النوى لناضح، أعلف واستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن...، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ..» (٢٤). وكما أشرنا سابقاً كانت المرأة على عهد الرسول الكريم تشتغل بالتعليم، فهذه الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس اشتغلت بتعليم القراءة والكتابة، وتميزت بالحكمة ورجاحة العقل، حتى أن عمر بن الخطاب عندما أصبح خليفة ولأها ولاية الحسبة، أي: وزارة التجارة والأسواق، والأوزان والمعاملات، فكانت تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق من الرجال والنساء، وتعتبر الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس أول امرأة تتقلد منصب وزيرة في الأمة الإسلامية.

ث- حق اختيار الزوج: منح الإسلام المرأة حق اختيار زوجها، ويكون عقد الزواج باطلاً بدون موافقتها. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، والبكر حتى تستأذن»، فقالت عائشة: «يا رسول الله، البكر تستحي»، قال: «رضاها صمتها» (٢٥). وروي أن امرأة تدعى خنساء بنت خدام الأنصارية زوجها أبوها من رجل بدون رضاها، فأنت رسول الله ﷺ، وشكت

إليه أمرها، فردّ نكاحه (٢٦).

ج- حق الاحتفاظ باسمها: إنّ هذا الحق قد كفله الإسلام للمرأة، فهي تحتفظ باسمها واسم أبيها وعائلتها، ولا ينمحي اسمها بالزواج من رجلٍ حتى وإن كان هذا الرجل رسول الله ﷺ. فالتاريخ الإسلامي يذكر لنا النساء بأسمائهن، وليس بأسماء أزواجهنّ، فهذه خديجة بنت خوليد، وهذه عائشة بنت أبي بكر، وهذه حفصة بنت عمر بن الخطاب لم يذكرهنّ أحدٌ أبداً باسم زوجهنّ الرسول الكريم. والاحتفاظ بالإسم إنما هو أكبر دليل على مساواة الإسلام للمرأة بالرجل، فهي كائنٌ مستقلٌّ مثلها مثل الرجل، وليس مثل المرأة الأوروبية والأمريكية التي كانت حتى سنوات قليلة تفقد هويتها بالزواج، وينمحي اسمها واسم عائلتها، وتأخذ اسم زوجها وعائلته.

ح- الحقوق الاجتماعية: تمتعت المرأة في عهد الرسول ﷺ بكثير من الحقوق الاجتماعية، فلم تكن محبوسة في البيت كما يعتقد كثيرٌ من الناس، بل كانت تلبي الدّعاوات، وتخرج لاجتماعات عامة في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة؛ حيث يدعو إليها مؤذن الرسول بلال. كما كانت النساء يذهبن إلى مسجد الرسول للصلاة وراءه، ولسماع دروسه وخطبه الدينية، وما ينزل عليه من وحي. كما طالبت النساء الرسول الكريم بدروسٍ خاصة بهنّ في المسجد؛ لأنّ الرّجال يغلبوهنّ عليه في المسجد، فاستجاب الرسول الكريم بذلك. وهذا معناه أنّ النساء كنّ يحضرن دروس الرسول العامة في المسجد إلى جانب الرّجال، ولكن نظراً لكثرة عدد الرّجال كانت النساء المسلمات لا يتمكنّ من توجيه الأسئلة إلى الرسول مباشرة؛ لذا طالبن بتخصيص دروسٍ لهنّ وحدهن، وليس ذلك من باب فصل الرّجال عن النساء في الدروس العامة؛ لأنّ النساء كانت في عهد الرسول يصلين في نفس صحن المسجد خلف الرّجال.

ومنذ عهد الرسول ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، وعبر التاريخ الإسلامي

شاركت المرأة المسلمة مع الرجل جنباً إلى جنب في الحياة الاجتماعية، وفي جميع مجالات العمل الاجتماعي، وفي الكفاح لنشر الإسلام والمحافظة عليه. لقد اشتركت المرأة المسلمة في أوّل هجرة للمسلمين إلى الحبشة، وكذلك في الهجرة إلى المدينة المنورة، وخرجت مع الرجال في الغزوات التي قادها الرسول ﷺ لنشر الإسلام، واشتركت في ميادين القتال ليس فقط لتمريض الجرحى، بل للمقاتلة بالسيف - أيضاً - بالرغم من أنّها معفاة من الجهاد، ومن حمل السلاح. فقد ذكرت كتب السُّنة أنّ امرأة مسلمة شاركت ببسالة في الدِّفاع عن الرسول ﷺ في معركة أحد، بعد أنّ فرّ كثيرٌ من الرجال، وكانت هذه المرأة تدعى أمّ عمار، تقاتل وهي مشمّرة قد ربطت ثوبها على وسطها، تقاتل دون رسول الله، وتتصدى لابن قميئة الذي اندفع نحو الرسول ليطعنه، ولكن أمّ عمار تلقت الطعنة في كتفها، وراها الرسول ﷺ فنادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتحتمي به، وقال له في إعجاب: «من يطيق ما تطيقين يا أمّ عمار» (٢٧).

وغنيّ عن القول أنّ الإسلام أعطى المرأة كلّ هذه الحقوق في زمن لم يكن تتمتع فيه النساء بهذه الحقوق من قبل، ولكننا لا نستطيع إغفال أو إنكار أنّ الإسلام قد فرّق بين الرجل والمرأة في بعض المجالات. ويؤكد بعض الفقهاء وبعض علماء الدين أنّ هذا التّفريق في الحقوق له مبرراته الشرعية، ولكنّه لا يؤثّر إطلاقاً على الأهلية القانونية للمرأة. ومن بين هؤلاء نذكر د. مصطفى السباعي، رئيس قسم الفقه الإسلامي في جامعة دمشق، وصاحب كتاب (المرأة بين الفقه والقانون) حيث يقول: «... من المؤكّد أنّ هذا التّفريق لا علاقة له بالمساواة بينهما في الإنسانيّة والكرامة والأهلية - بعد أن قرّرها الإسلام لها على قدم المساواة مع الرجل -، بل لضرورات اجتماعية واقتصادية ونفسية اقتضت ذلك» (٢٨).

ثانياً: مقارنة بين حقوق المرأة في الإسلام وفي مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

إنَّ الإسلام يقرّ معظم مبادئ حقوق الإنسان المذكورة في المواد الثلاثين لوثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والتي يؤكد الغربيون أنَّهم اشتقوها من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى التي أطاحت بالملكية والإقطاع في فرنسا عام ١٧٨٩، وهي: (Liberté-Egalité-Fraternité) أي: الحرية، المساواة، والأخوة، المشتقة من كتابات وأفكار فلاسفة عصر التنوير في فرنسا في القرن الثامن عشر، وأهمهم مونتسكيو، وجان جاك روسو، وفولتير.

وربما يحجل الغربيون غير المسلمين أنَّ أغلبية مفاهيم حقوق الإنسان كما صاغوها موجودة في التعاليم الإسلامية المشتقة من القرآن الكريم، والتي نادى بها الرسول الأمي مُحَمَّد ﷺ منذ القرن السابع الميلادي، أي: قبل (١١) قرناً من عصر التنوير في فرنسا.

ولن يسع المجال هنا لمقارنة المواد الثلاثين لوثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بنداً بنداً بالتعاليم الإسلامية المؤيَّدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، التي تحتوي على نفس المبادئ والمعايير الإنسانية. ولكننا سنكتفي بالمواد التي تخص المرأة بصفتها إنساناً.

إنَّ الإسلام يعتبر الرجل والمرأة، أي: النَّاس جميعاً أحراراً ومتساويين في الحقوق تماماً مثل المادة الأولى لميثاق حقوق الإنسان التي جاء فيها:

المادة الأولى: «يولد جميع النَّاس أحراراً متساويين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء». إنَّ هذه المادة الأولى تذكرنا بالمقولة الإسلامية الشهيرة القائلة: «متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحراراً».

أمَّا المادة الثانية من الميثاق، فإنَّها تنصُّ على أنَّ: «لكلِّ إنسانٍ حقَّ التَّمتع

بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتّمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي السياسي، أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو الميلاد، أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرّجال والنّساء». وهذه المادة تذكرنا بالحديث الشّريف: «يا أيّها النّاس إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أحمر، إلّا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٢٩)، ويعتبر هذا الحديث الشّريف ركيزة أساسية في إثبات أسبقية الإسلام في إقرار مبادئ حقوق الإنسان، وعدم التفرقة بين النّاس.

ولقد أثارَت الفقرة الأخيرة من هذه المادة (دون تفرقة بين الرّجال والنّساء) جدلاً كثيراً بين الباحثين المسلمين والعاملين في مجال حقوق الإنسان من المسلمين وغير المسلمين؛ حيث يجد المؤيّدون للمساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام أنّ هذه الفقرة من المادة الثانية للميثاق العالمي لحقوق الإنسان لا تتعارض مع التعاليم الإسلامية على ضوء الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾^(٣٠) وتأكيداً للحديث الشّريف: «النّساء شقائق الرّجال»^(٣١)، وهذا إقرار بالمساواة وعدم التفرقة بين الرّجال والنّساء، بينما المعارضون على ذلك يجدون أنّ الإسلام أوجد تفرقة بين الرّجال والنّساء فيما يتعلّق بالميراث والشهادة، حيث إنّ نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل، تطبيقاً للآية الكريمة: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٣٢). وكذلك شهادة المرأة في الإسلام تعادل نصف شهادة الرجل، تطبيقاً للآية الكريمة: ﴿وَأَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى...﴾^(٣٣).

وليس المجال متسعاً هنا لتوضيح حكمة الإسلام في إقرار تلك التفرقة بين

الرَّجال والنِّساء فيها يتعلَّق بالمراث وبالشَّهادة؛ حيث إنَّ الشرح سيأخذنا بعيداً عن موضوع هذه الورقة، ولكننا نؤكد هنا أنَّ المقارنة بين حقوق المرأة في الإسلام وبين مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أبرزت بوضوح أنَّ هناك تعارضاً بين التَّعاليم الإسلامية وبين هذه الفقرة من المادة الثانية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

المادة السابعة: «كُلُّ النَّاسِ سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التَّمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة». نلفت الانتباه في هذه المادة إلى كلمة (سواسية)، وهي نفس الكلمة التي استخدمها الرَّسول الكريم ﷺ في حديثه الشَّريف: «النَّاس سواسية كأَسنان المشط»^(٣٤)، والحديث الشَّريف يركِّز على المساواة بتشبيه النَّاس أي: الرِّجال والنِّساء بأَسنان المشط التي وإن اختلفت في الطول والسَّمك إلا أنَّها كلها سواسية، أي: من نفس الخامة، ويكمل بعضها بعضاً، ولها نفس الحقوق داخل المشط الذي يمثل المجتمع. وهذا تأكيد على المساواة المطلقة بين البشر بدون تفرقة، أو عنصرية، أو تمييز بسبب الجنس، أو اللَّون، أو العرقية، أو اللغة، أو حتى الدين، طالما أنَّ المصطلح المستخدم هو النَّاس وليس تعبير المسلمين أو المؤمنين، ولكنَّ النَّاس جميعاً، أي: الرِّجال والنِّساء عامة.

وهناك مادتان فقط في وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بهما فقرة أو فقرتان تحتويان على بعض المعايير التي تتنافى مع المعايير الإسلامية، وهما المادة (١٦)، والمادة (١٨) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. لذا فقد تحفظت بعض الدُّول الإسلامية عام ١٩٤٨ على تلك الفقرات خلال المناقشات العامة في الجمعية العامة للأمم المتحدة حين إقرار وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

المادة السَّادسة عشر: الفقرة (١): «للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التَّزوج، وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين». فالإسلام قد أقرَّ

حق الرجل والمرأة في الزواج، ولكنه وضع قيداً بسبب الدين على زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، بينما أقرّ زواج المسلم من امرأة كتابية على المشهور.

المادة الثامنة عشر: «لكلّ شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته...». فالإسلام لا يقرّ تغيير الدين سواء بالنسبة للرجل المسلم أو المرأة المسلمة، ويعتبر ذلك ارتداداً عن دين الله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (٣٥).

الخلاصة

لقد سبق الإسلام كلّ الديانات والمواثيق الدولية في إقرار حقوق الإنسان؛ حيث إنّه أقرّ منذ (١٤) قرناً من الزّمان المبادئ والأسس والقيم المرتكزة على كرامة الفرد وإنسانيته، وعلى المساواة بين الناس، وعدم المفاضلة بينهم بسبب الجنس، أو اللون، أو العرق، أو اللغة، أو الدين. كما حرص الإسلام والمسلمون على إقرار العدل والسلم، وعلى التعاون والتّعارف بين الناس، وعلى الإلتزام بالعهود، وعلى المجادلة مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن بدون تعصب. كل هذه القيم الثابتة والراسخة في الضمير المسلم يجب أن تستمرّ راسخة في عالمنا المتغير الذي نعيشه في القرن الواحد والعشرين؛ لأنّ هذه الأسس الإسلامية الراسخة تصلح لكلّ زمان، ولكلّ مكان.

أما الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فما هو إلا وثيقة دولية صاغها بعض البشر عام ١٩٤٨، وأغلبهم من غير المسلمين، أرادوا بهذه الوثيقة أن يتفادوا جرائم الحرب البشعة التي سجّلها التاريخ أثناء الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في النّصف الأول من القرن العشرين، مثلماذكروا ذلك في ديباجة الإعلان: «ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضى إلى أعمالٍ همجيةٍ أدّت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالمٍ يتمتع فيه

الفرد بحرية القول والعقيدة، ويتحرّر من الفزع والفاقة». لقد أرادوا أن يضعوا لدول العالم مبادئ ومواثيق ونظماً عالمية يتم تطبيقها في جميع الدول والبلدان في حالة نشوب خلافات أو نزاعات أو حروب تجعل الإنسان ينسى أنّه إنسان، وأنّ العدو الذي يحاربه، أو يتنازع معه هو - أيضاً - إنسانٌ مثله، له نفس الحقوق، ويجب عليه أن يحترمه، ويحترم حقوقه حتى وإن كان مهزوماً أو أسيراً أو معتقلاً.

ونحن نؤكد هنا أنّ الإسلام كان هو السّباق في كثير من الحقوق التي ذُكرت في مواد تلك الوثيقة الدّوليّة، وأنّ ما اختلف فيه الإسلام عنها له مبرراته المنطقية، والعقلية، والاجتماعية، ويفوق على تلك المواد؛ لكونه صادراً من علام الغيوب، وخالق الإنسان.



الهوامش:

- (١) فليعلم القارئ المحترم أنّ هيئة التحرير قد تصرّفت في هذه المقالة تلخيصاً وتقويماً بحيث لا يؤثّر على مقصود الكاتبة أصلاً.
- (٢) انظر سنن الترمذي: ٣٣ / ٤، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الطّبعة الثانية ١٤٠٣، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٣) الحجرات: ٣.
- (٤) النّحل: ٩٧.
- (٥) البقرة: ٢٠٨.
- (٦) راجع كنز العمال: ٣٨ / ٩، نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.
- (٧) النساء: ١.
- (٨) الأحزاب: ٣٥.

- (٩) الإسرائ: ٧٠.
- (١٠) انظر: نصر حامد أبو زيد، المرأة في خطاب الأزمة، دار نصوص، القاهرة، ص: ٢٦.
- (١١) البقرة: ٣٦.
- (١٢) الأعراف: ٢٣.
- (١٣) النساء: ١٢٤.
- (١٤) المائدة: ٣٨.
- (١٥) النور: ٢.
- (١٦) راجع: صحيح البخاري: ٦/ ١٤٥، نشر دار الفكر، بالأفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستنبول، ١٤٠١.
- (١٧) سنن الترمذي: ٣/ ٢١٣، حديث: (١٩٧٧)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر دار الفكر، بيروت.
- (١٨) راجع: مسند أبي داود الطيالسي / ٣٠٦، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- (١٩) صحيح مسلم: ٨/ ٢، دار الفكر، بيروت لبنان.
- (٢٠) كنز العمال: ١٦/ ٤٦١، نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.
- (٢١) التوبة: ٧١.
- (٢٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٨١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر.
- (٢٣) البقرة: ٢٢٩.
- (٢٤) مسند أحمد: ٦/ ٣٤٧، نشر دار صادر، بيروت لبنان.
- (٢٥) صحيح البخاري: ٦/ ١٣٥، نشر دار الفكر، بالأفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستنبول، ١٤٠١.
- (٢٦) سنن الترمذي: ٢/ ٢٨٧، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٢٧) راجع سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢/ ٢٨٠، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة التاسعة: ١٤١٣، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.
- (٢٨) المرأة بين الفقه والقانون / ٣٠.
- (٢٩) مسند أحمد: ٥/ ٤١١، نشر دار صادر، بيروت لبنان.
- (٣٠) البقرة: ٢٢٨.

(٣١) سنن الترمذي: ١ / ٧٥، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر دار الفكر، بيروت.

(٣٢) النساء: ١١.

(٣٣) البقرة: ٢٨٢.

(٣٤) راجع كنز العمال: ٩ / ٣٨، نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.

(٣٥) البقرة: ٢١٧.

التبليغ

المقومات والمعوقات

□ الشيخ محمد الطاعلي (*)

المقدمة:

يَحْظِي العمل التبليغي اليوم بأهمية بالغة في حياة البشرية، وهذا أمر لا يمكن إنكاره، ويعدُّ من أهمِّ الوسائل التي تصوغ طريقة تعامل الشعوب، وطبيعة سلوك الأمم والأفراد، وكيفية تثبيت القيم الاجتماعية، وتحريك الجماهير في الحرب والسُّلم، وتلقين العقائد.

ولهذا يعتبر التبليغ سلاحاً مهماً في صياغة الأفكار الحسنة والسَّيئة على السَّواء، وبمقدار قوَّة التبليغ ومتانة الإعلام تكون الصورة الاجتماعية التي يراد تجسيمها ويقصد رسمها، وكلما ضعف هذا الجانب عجز أصحاب الفكرة أو العقيدة عن بلوغ أهدافهم في رسم الصُّورة الاجتماعية والإنسانية التي يرغبون في تحقيقها.

وقد أوَّل القرآن الكريم هذا الموضوع اهتماماً خاصاً، وجعل أهمَّ المهام التي يضطلع بها الأنبياء والرُّسل هي مهمة التبليغ، وإيصال الرِّسالة إلى أبناء البشر،

(*) باحث إسلامي من العراق.

سواء كانوا قوماً معينين، أو عموم بني الإنسان.

يقول تعالى: ﴿أَبْلَغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(١).

ويقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿..... فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ.....﴾^(٣)، وغير ذلك من الآيات الشريفة.

ومن هنا يتبين أنَّ المهمة الملقاة على عاتق الرسول هي التبليغ فحسب، وإيصال الرسالة إلى الناس، وخصوصاً إذا لاحظنا أنَّ الآيات المتعلقة بهذا الموضوع قد جاءت بصيغة الاستثناء المسبوق بالنفي، الذي يدل على الاختصاص كما هو معلوم.

وفي العصر الحديث أصبحت القضية الإعلامية من القضايا الحساسة جداً، وقد أولتها الدول اهتماماً كبيراً، وأصبح التبليغ فناً قائماً بذاته، له أساليبه وطرقه، وله مدارس متنوعة، مما حدا بأغلب دول العالم بل كلها إلى إحداث وزارة تعنى بهذا الموضوع، كما أنشأت جامعات تدرس أساليب التبليغ وطرقه ووسائله التي تجعله مؤثراً في تقديم الفكرة، وحشد الأذهان بالآراء والأفكار المراد إيصالها إلى المستمعين والمُشاهدين من كافة الشعوب.

تصور خاطئ

قد يتصور البعض أنَّ التبليغ عملٌ يخصُّ طلبة العلوم الدينية، وخصوصاً الذين ارتدوا الزِّي الديني المعروف، وقد يتصور البعض أنَّ التبليغ عملٌ مهنيٌّ يتكسب من خلاله الإنسان الرزق.

ولكنَّ استنطاق الآيات القرآنية يدفع هذه التصورات الخاطئة، ويشير القرآن الكريم في موارد عدة إلى أنَّ العمل التبليغي مسؤولية رسالية ومهمة نبوية، وصريح الآيات يدل بوضوح على هذا المعنى.

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.....﴾^(٤)، حيث

نلاحظ أنَّ هذا الأمر موجهٌ لجميع المؤمنين بالله، لكي يقوموا بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يتعلّق الأمر بفتة معينة من المؤمنين.

نعم، لا بد من تحقّق القدرة على التبليغ، فكلما كان الإنسان قادراً على التبليغ شمله الأمر الإلهي. وهذا يعني - أيضاً - أنَّ طلبة العلوم الدينية معنيّون قبل غيرهم بهذا الخطاب الإلهي، لأمرين:

أحدهما، توفر القدرة على تبليغ الشريعة؛ نظراً لتخصّصهم في هذا المجال؛ لأنهم الذين نفروا للقيام بهذه المهمة تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٥).

وثانيهما، كونهم قد نصبوا أنفسهم من خلال هذا التخصّص، وهذا الزمي المخصوص أدلة على الهدى والرشاد، ولا بدّ لمن يضع نفسه دليلاً للهداية أن يمارس دوره في التوجيه والإرشاد.

وأما ما يخص موضوع التّكسب والارتزاق، فهو وإن كان جائزاً شرعاً ومن دون إشكال، غير أنَّ عدم تحقيق المكسب المادي لا يلغي وجوب هذا الأمر الإلهي، وهذا هو منهج الأنبياء والصالحين في أداء هذه المهمة المقدسة، يقول تعالى حكاية عنهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾ (٦)، ﴿...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾ (٧)، ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨)، ولهذا يستنكر المولى تعالى على الذين لا يستمعون الحق مادامت النصيحة لا تكلفهم شيئاً ويقدمها الرسول لهم مجاناً، فيقول تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّقْتُلُونَ﴾ (٩).

إنّ الرساليين على طول التاريخ إنما يقومون بأعباء هذه المهمة أداءً للتكليف الشرعي، وتنفيذاً للأمر الإلهي، لا يرجون إلاّ رضوان الله تعالى، ولا يرغبون بأجرٍ من أحدٍ سوى ثواب ربّ العالمين وعطائه، والقرآن يحكي حالهم وذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٠). ولسان حالهم كما

ينقل القرآن ذلك دائماً في العديد من آياته: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٢). ومن خلال هذا العرض نستكشف مقدار الخطأ الذي يحصر أداء هذه المهمة بفتة معينة، أو يجعلها حرفة للتكسب، فيجردها من روحها المقدسة ويتزعمها من جلبابها النبوي.

طرق التبليغ:

هناك سبيلان مشهوران للعمل التبليغي والإعلامي لا يتعداهما غالباً رغم التطور الهائل الذي حدث في الأداء والوسائل والأساليب، وهذان السبيلان هما:

أولاً: الإعلام المقروء (المكتوب)، وهو من أهم السبل التبليغية والإعلامية على طول التاريخ، ويتجسد اليوم في الصحافة من جرائد ومجلات وكتب وإعلانات دعائية، وأمثال ذلك.

ثانياً: الإعلام المسموع، والذي يعتمد على الأداء اللفظي، وهو - أيضاً - من أقدم السبل التبليغية، ويشمل الخطب والمحاججات والمجادلات، كما يشمل الأعمال المسرحية والسينائية والأناشيد والقصائد وأمثالها.

وكل التطورات التي حصلت في العمل الإعلامي والتبليغي تدور مدار هذين السبيلين؛ فالتلفاز اليوم والإنترنت ليس إلا تطوّر في الوسيلة. نعم، يمكن أن تكون رؤية المشهد السينمائي والمسرحي، ودعم الأخبار وغيرها بالصور الثابتة والمتحركة سبيلاً جديداً يعتمد ما يمكن أن نسميه الإعلام البصري، الذي يقوم على مشاهدة الحدث من قبل الجمهور، لكنّه على كل حال لا يخلو من النص المقروء والأداء المسموع.

وقد أولى القرآن الكريم هذين السبيلين اهتماماً خاصاً واعتمدهما في الأداء التبليغي، فهو من جهة يدعو للقراءة ويوفر المقروء لبني الإنسان، يقول تعالى:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ (١٣)، ﴿...فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ...﴾ (١٤).

فالقرآن بنفسه كتابٌ للقراءة والتدبر، مضافاً إلى ترغيب المسلمين بتدوين الحديث وكتابة السنة والتي تعتبر مع القرآن الدعامة الأساسية في حفظ المرتكزات العقيدية والفكرية على مرور الأجيال والأزمان.

وأما اعتماد السبيل الثاني، فهو بلا شك كان يمثل أداء الرسول ﷺ في تبليغ القرآن والسنة؛ لأنه يقوم على أساس العمل المسموع، يقول تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَاتَهُ لِقُرَاءَتِ النَّاسِ عَلَى مَكٍّ...﴾ (١٥).

فالقرآن ينادي الجمهور بالإنصات للقول، والتدبر فيه، واختيار الأفضل منه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ (١٦)، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (١٧)، ويقول: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (١٨).

ولما كان التطور الإعلامي ضعيفاً في سابق الأزمنة، فإن القرآن الكريم لم يخل من تطوير المشهد الذي يريد إيصاله للمستمعين، وآيات القرآن تشتمل على المئات من التصويرات البلاغية التي يعيشها الذهن في آفاقها مأخوذاً بروعة الصورة، وجمالية الأداء، وبداعة الكلمة، وإليك أمثلة من ذلك:

يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)، فإن السامع سوف يعيش هذا المشهد بكل تفاصيله وحركاته وسكناته، وكأنه يرى بأم عينيه، ويسمع بأذنيه الحوارات والتساؤلات، فالقرية الخاوية والإماتة والإحياء والنشور والإكساء تبدو له في مشهد مسرحي شاخص لا يغيب عن الذهن، ولا يفارق المخيلة.

ومثله - أيضاً - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي

يَنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْثُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾.

ما أروعها من مقارنة، وما أجمله من مشهد يذهل السامع، فهو يرى ذلك الحجر الصلد الصفوان والتراب يغطيه، فلما انبجست عيناً لساء انزاح التراب، وبقي الصخر جامداً بلا حراك لا يعطي زرعاً ولا يهتز لوابل، بينما اهتزت تلك الجنة للوابل، بل لأقل منه وهو الطل الخفيف من المطر، فريت وأنبتت ضعفين، وهذا حال الذين يودعون نفقاتهم في حساب الله، وأما ذاك الذي يتبع نفقته بالمن على الناس، والأذى لهم ظناً منه أنه هو الرزاق الذي وسعهم ماله، فقد خاب ظنه، وأجذبت عاقبته.

وهكذا كان المشهد المسرحي السينمائي مكنوزاً في مطاوي القرآن الكريم، وهو شكل من أشكال العمل الإعلامي الذي يوصل الفكرة العقيدية أو التشريعية أو الأخلاقية لبني البشر، ولا زالت هذه الكنوز تنبض بالحياة، وتفوق كل التطورات الهائلة في ميادين التبليغ والعمل الإعلامي.

وبعبارة أخرى، فإن الكلمة سواءً كانت مقروءة أو مكتوبة، هي موضع اهتمام القرآن والسنة الشريفة، ولهذا حاول الكتاب العزيز أن يعلم البشر كيف ينتقون الكلمة الطيبة، ويجتنبون الكلمة الخبيثة؛ لأنَّ الكلمة قد تبني أمة، وقد تهدمها، وقد تجبر مؤمناً، وقد تكسره، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٢﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٤﴾﴾، وفي الحديث الشريف: «الكلمة الطيبة صدقة» (٢٢)، وفي حديث آخر: «لا يزال الرجل المسلم يكتب محسناً ما دام ساكناً، فإذا تكلم كتب

محسناً أو مسيئاً» (٢٣). ولهذا كان القرآن يراقب في انتخاب الكلمة المناسبة للخطاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (٢٤). ومن هنا يتبين أنَّ الكلمة المقروءة والمسموعة أشمل أداء للعمل التبليغي الإسلامي في الحاضر، وربما في المستقبل.

مقومات العمل التبليغي:

بناءً على ما تقدم من تعريف موجز عن العمل التبليغي، سوف نتعرّض إلى أهم مقومات العمل التبليغي الديني، وسنحاول اعتماد المنهج القرآني في الاستدلال على مجموع هذه الآراء المطروحة في هذا العرض المختصر، وأهم هذه المقومات ما يلي:

١- الشخصية التبليغية.

٢- الفكرة المتقاة.

٣- وسائل الإسناد والدعم.

٥- طريقة العرض والأداء الناجح.

وهذه النقاط تشكل أهم المفردات التي ينبغي توفرها من أجل تحقيق ما هو مطلوب من العمل التبليغي، وهذا لا يعني بحالٍ من الأحوال إلغاء بعض الأمور الأخرى التي لها أثرٌ في مشروع العمل التبليغي، وسوف نتعرّض لتوضيح هذه النقاط تباعاً.

١- الشخصية التبليغية:

إنَّ المبلِّغ الذي يريد التأثير في الآخرين، والقيام بوعظهم وإرشادهم، ومحاولة إصلاحهم لا بدَّ أن يتحلَّى بخصائص شخصية متعددة تتعلق بمهمته كمرشدٍ ديني.

منها: الملكات النفسية التي تتعلّق بالقدرة على مواجهة الأحداث، وتحمل

الصعاب، ومقاومة المشاكل بعزيمة وقوة، وهذا ما يعبر عنه بسعة الصدر، وقد ذكر القرآن هذه الملكة في قول موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢٥)؛ لأنَّ المبلِّغ الواسع الصدر لا تهزه الحوادث، وبإمكانه مواجهتها بلا انفعال، وحلّها بروية وهدوء بال، بينما ضيق الصدر، وقصر الهمة يجعل المرء عاجزاً عن مواجهة المشاكل والصعاب، مما يضطرّه إلى الانسحاب من الساحة، والظهور بمظهر الضعف والخور أمام الجمهور.

ومنها: الملكات الأخلاقية، وذلك أمرٌ مهمٌّ لا يشك فيه أحد؛ لأنَّ الأمر الصادر من المبلِّغ لا يمكن أن يمثله الآخرون وهم يرون بأمر أعينهم التنافر الموجود بين أخلاق المبلِّغ وبين كلامه المعسول، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله: ﴿أَنُؤْمِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ ثُلُونُ الْكُتُبِ﴾^(٢٦).

فشخصية المبلِّغ لا بد أن تكون شخصيةً أخلاقيةً نموذجيةً، حتى يجد آذاناً صاغية تلتزم بمواعظه، وتقتدي بأخلاقه، وتمثل أوامره، فمعلم الناس لا بد أن يبدأ بتعليم نفسه أولاً.

وفي هذا الزمان يرصد الخصوم وبوسائلهم المتطورة حركات الرّساليين وسكناتهم، لعلّهم يجدون ثغرةً يثيرون من خلالها عليهم الشُّبهات، وينشرون الإشاعات، ويوزعون التهم، من أجل الطّعن فيهم، والتقليل من شأنهم؛ لإبعاد الناس عنهم، تماماً كما كان يفعل الأعداء قديماً، فيوجهون التّهم والإشاعات للأنبياء والرسل، فمرة يدّعون أنّهم سحرة، وأخرى أنّهم كذّابون، وثالثة أنّهم يأخذون تعاليمهم من الجن... ودعايات أخرى كثيرة. أمّا اليوم، فإنّ الوسائل الحديثة التي يمتلكها الخصوم تعطي هذه التهم بعداً إضافياً واسعاً.

وبناءً على هذا لا بدّ أن يراقب المبلِّغ نفسه، ويتحرّك بدقة، ويتباعد عن مواطن الشُّبهات، ويكون عفيفاً شريفاً، وحينذاك سوف يفوّت على الأعداء الفرصة، وسوف لا تؤثر عليه شبهات الأعداء، ولا دعاياتهم، وسيكون

الجمهور هو المدافع عنه، وهو المتصدي لردّ الشبهات والتهم.

٢- الفكرة المنتقاة:

يخطأ من يعتقد أنَّ المبلغ يستطيع أن يحقق النجاح في مهمته بمجرد أن يحشد ذهنه بالأفكار المختلفة، والآراء المتنوعة، والمعلومات الكثيرة، وإن كانت هذه الأمور ضرورية للمبلغ؛ إذ يجب عليه أن يسعى بجِدٍّ واجتهاد ليتسلَّحَ بأكبر قدر من المعلومات المتنوعة، وفي مختلف العلوم.

إنَّ الفكرة التي يتناولها المبلغ في حديثه لا بدَّ أن تتوفر عناصر القوة وهي عبارة عن أمور أهمها:

أ- نوع الفكرة المطروحة للجمهور:

فكلما كانت الفكرة المطروحة تعالج مرضاً اجتماعياً سائداً، أو سلوكاً مذموماً، أو عرفاً مخالفاً للشريعة، كان الأثر أكبر والفائدة أعم، وليس من الصَّحيح طرح أيِّ موضوع يخطر ببال المبلغ؛ لأنَّ هذا يمثل ترفاً فكرياً، وليس منهجاً تبليغياً هادفاً. فالمنهج الهادف ما تبناه الأنبياء والأئمة، فهو يحارب مظاهر الشرك، وكفران النعمة، والاستخفاف بالله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ ذاك هو المرض الشائع ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (٢٧).

فإبراهيم عليه السلام حارب عبادة الأصنام؛ لأنَّها العبادة المنحرفة السائدة، ولوط عليه السلام حارب السلوك الاجتماعي الشاذ، وشعيب عليه السلام حارب الظواهر التجارية الفاسدة، وموسى عليه السلام حرَّك إرادة التحدي الميته، وعيسى عليه السلام واجه الانكباب على المادة، وهكذا بقية الأنبياء، ولو تغير هذا المنهج، وعرض كل نبي فكرة لا تمس الواقع، ولا تعالج أمراضه، لما أنتج ذلك الجهد شيئاً؛ لأنَّ دواء السَّقِيم لا ينفع غذاءً للسَّليم.

وفي مجتمعاتنا اليوم أمراضٌ مختلفةٌ، وتحدياتٌ حضاريةٌ متنوعة، ولا بد أن

تكون الأفكار المطروحة مناسبة للأمراض والتحديات السائدة، ففي فلسطين والعراق - مثلاً - لا بدّ من طرح ثقافة الاستشهاد، وإثارة الحمية، وتحريك روح الجهاد للدفاع عن الكرامة، وبخصوص العراق - مثلاً - لا بدّ من تفعيل الشعور بالمسؤولية، وحفظ النّظم العام، وغير ذلك مما يحتاجه المجتمع العراقي. وفي البلدان التي يسود فيها تعاطي المخدرات لا بدّ من عرض ما يناسبها من العلاج، وهكذا في كل موقع من مواقع العمل المختلفة ينبغي أن تُعرّض الأفكار التي تناسب المشاكل والتحديات الموجودة فيه.

ولا يعني ذلك وجود حدود فاصلة بين الأفكار، ولكنّ المراد هنا ملاحظة الأهم والمهم من المواضيع التي ينبغي أن يراعيها المبلغ، وحينذاك سيكون طبيباً ماهراً يعالج أمراضاً مستعصية، وسيحقق نجاحاً باهرًا؛ لأنّه لاءم بين ما عرضه من أفكار وما كان يحتاجه مجتمعه لدفع الأضرار، ويتطابق عمله مع ما نطق به القرآن الكريم من تصوير عمل الأنبياء والمرسلين في مجتمعاتهم الغابرة، وأهمهم السالفة.

ب - وضوح الفكرة وخلوها من التعقيد:

إنّ مخاطبة الجمهور بفكرة معينة لا يتحقق وصولها إلى أذهانهم وعقولهم عن طريق البحث العلمي الدقيق والمعقد، ولا عن طريق الخوض في التفاصيل والتفريعات المملة؛ لأنّ ذلك إنّما يعتني به المتخصصون، بينما عامة الناس تكتفي بتصوير الفكرة ببساطة وسهولة، ولقد تمكن الكثير من القادة الكبار من تحريك الجماهير بألفاظ سهلة بسيطة، وتمكن الكثير من المصلحين من بناء الفكرة لدى الجماهير بعبارات مختصرة موجزة، فالسيد الإمام الخميني رحمته الله عندما أراد تفعيل قضية عاشوراء، وإحياء المراسم في محرم وصفر قال: «كل ما عندنا من عاشوراء»، وقال في موضع آخر: «إنّ محرم وصفر هما اللذان أبقيا الإسلام حيًّا»، وهذه النصوص لا كلفة فيها ولا تعقيد، يستطيع أن يفهمها أدنى

المستويات العلمية، كما يفهمها أعلاها.

فلا بدّ للمبلِّغ أن يحاول توضيح الفكرة بالتبسيط دون أن يفقدها متانتها وقوتها، ولعلّ هذا هو المراد من قول موسى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(٢٨)، أو قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾^(٢٩).

٣- وسائل الدعم والإسناد:

إن الإنسان الرسالي يحمل همّاً كبيراً، ويشعر بمسؤولية باهظة وهو يتوقّع كثرة العقبات التي تواجه الدعاة المخلصين، عقبات يصنعها المترفون والطغاة مرةً، ويصنعها الانتهازيون والتفعيون والمنافقون أخرى، ويصنعها الجهل وتدني المستوى الفكري للأمة الثالثة، وقد تأتي بسبب الموروثات الخرافية التي يقدسها الناس أحياناً.

وإذا أضفنا لذلك وساوس الشياطين والثفوس الأمارة بالسوء وغير ذلك، فإننا سنجد ضخامة العقبات التي تحتاج إلى الكثير من التّضحيات، وسوف نقف على حجم المشروع الذي يريد أن ينجزه المبلِّغ الرسالي، ولهذا فهو يحتاج إلى عناصر دعم وإسناد لشخصه وأفكاره أهمها:

الاعتماد على المولى تعالى ليسهلّ له مهمته، ويسرّ له أمره، فإنّه بدون التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه، والإخلاص له ستكون الشخصية ضعيفة مهما أوتيت من قوة، وسوف تنهار عند عروض أول محنة، وستكون الفكرة خاوية لا قيمة لها؛ لأنّ الفكرة التبليغية إنما يراد بها وجه الله فكيف لا يعتمد صاحبها على الله، وهذا هو المطلب الذي عرضه موسى ﷺ على ربه عندما أمره بالذهاب إلى فرعون، فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾^(٣٠)، وليس لموسى أمر سوى الفكرة والموعظة التي سيلقيها على فرعون الطاغوت، إذأ فالاعتماد على الله يشكل القضية المهمة في عمل المبلِّغين الإسلاميين.

والفكرة دائماً تحتاج إلى المعجزة، والمبلغ يقوم - كما ألحنا - بمهمة نبوية، لكنه لا يملك المعجزة التي تدعم فكرته وتثبت صحتها، غير أنه بإخلاصه سيحصل على اللطف الإلهي، الذي يسدده في أداء مهمته، كما يلين قلوب مستمعيه لقبول فكرته، والإصغاء له بأذان البصيرة. إن المعجزة التي تدعم رسالات الأنبياء ليست أمراً اعتبارياً، بل هي انتصار لصالح الرسالات لتكون كلمة الله هي العليا، ولترتفع راية الحق وتبقى خفاقة دائماً.

ونحن نحتاج إلى عصا موسى في كل وقت، وبتعبير أدق نحن نحتاج إلى المدد الإلهي لتحقيق المشروع الرسالي التبليغي، ونجاحه في الوصول إلى أهدافه. هذا من ناحية المدد الغيبي والدعم الإلهي، ومن ناحية أخرى فإن المبلغ يحتاج إلى الدعم المادي لإسناده، وإسناد فكرته ويتمثل هذا الدعم في جوانب متعددة: منها: أن يتوفر له الأخ الناصح الذي يلفت نظره إلى الأخطاء ليقومها ويصححها، حتى يواصل حركته في مسارها الصحيح، ويحتاج إلى المشير الذي يبنه ويقويه ويشد على عضده، ولعل هذا المطلب هو المقصود من قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أُمْرِي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣١)، فكان موسى يريد شد أزره بأخيه؛ ليقوى على تسبيح ربه، وتقديسه، وتنزيهه.

ومنها: أن المبلغ يحتاج إلى المناصرين لفكرته وحركته، والذين يدعمون موقفه في حضرته وغيبته، وقد أشار القرآن إلى هذه النكته في مواضع متعددة، منها قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (٣٢)، وهذا القائل قد دفع عن موسى ما عزموا عليه من القتل، وأفسد مشروعاتهم الإجرامية الباطل. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٣) فأيد بقوله هذه الفكرة التي حملها المرسلون، فهناك انتصر المتحدث للشخصية الذاتية، وأفلتها من جريمة الاغتيال، وهنا أيد

المتحدث الفكرة وناصر قائلها، فإسناد الفكرة بالمشورة، وتأييد الشخصية، ودعم الرأي من الأشياء المهمة في حياة المبلِّغ، وعليه دائماً أن يحصل على هذه النماذج ليدخرها لمشروعه، ويحتفظ بها للشدة، ويستعين بها في المحنة.

ومنها: يحتاج المبلِّغ إلى الإمكانيات الفنية والتقنية، وهي جميعها تعتمد على توفير المال؛ لأنه يشكل عنصراً مهماً في دعم الأفكار والآراء والمعتقدات، وكلنا يعرف المقولة القائلة: «ما قام الإسلام إلا بال خديجة وسيف علي».

فالمال عنصر مؤثر في تحقيق الكثير من المشاريع، والمبلِّغ اليوم يحتاج إلى المال؛ لأنه يستميل به القلوب، ويستقطب به الزوار، ويجذب بواسطته الجمهور، ويوفر له المسجد الواسع التنظيف المريح، والمكتبة الغنية التي تستقطب المطالعين، ويمكنه من إعانة الأيتام والمعوذين من الفقراء، كما يوفر له الأجهزة المتطورة التي تسهل عليه أداء مهمته، كأجهزة الصوت والتصوير وما شابهها.

٤- طريقة الأداء:

إن الأداء الخطابي والتبليغ اليوم قد أصبح فناً قائماً بذاته، وقد أشرنا في مقدمة الحديث إلى وجود جامعات متخصصة في العمل الإعلامي، ومنها العمل الخطابي، والمبلِّغ الذي يريد التأثير على مستمعيه لا بد أن يسلك الطرق العلمية، ويتقن الحكمة في الطرح، وانتقاء المواضيع، وحسن التعبير، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٣٤) وأهم الأمور في الأداء الجيد:

أ - أن يتفاعل مع حديثه، وينسجم مع فكرته؛ لأنه كلما حدث التفاعل والإنسجام مع الفكرة من قبل المتحدث أوحى ذلك للمشاهد والمستمع صدق الفكرة وصحتها؛ لأنها أثرت في ناقلها، وستكون النتيجة انفعال الجمهور وتفاعله مع الحديث والمتحدث، والتأثر بذلك، والاندماج معه، إلى الحد الذي

يحوّل هذا التفاعل إلى سلوك يومي دائم.

وهذا التفاعل لا نقصد به التفاعل المصطنع، بل هو التفاعل الحقيقي، لأنّ المبلّغ يجب أن يكون مقتنعاً هو أولاً بفكرته، ليقنع بها غيره، فإذا كان كذلك، فإنّ حركات يديه، وتعبير وجهه، ونظرات عينيه، كلها ستكون منسجمة مع ما تقتضيه الأفكار التي يتناولها من فوق منبره.

ب - إشعار الآخرين بأن الأمور التي يطرحها تتعلق بهم أولاً وآخرًا، وهو حريصٌ على تحقيق سعادتهم، ولذلك فهو مهتم بشؤونهم، وأنّ شعوره بالمسؤولية تجاههم هو الذي يدعوه لتناول هذه الأمور، وشرحها، وتوضيحها لهم.

ومن هنا يلزم على المبلّغ أن يتقصّى المواضيع التي تهّم الناس، والتي لها أثر حقيقي في حياتهم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣٥). فالمبلّغ يعزّ عليه أن يرى أبناء جلدته في العنت والضيق، فكيف لا يفكر في هذه المسؤولية ليحاول إخراجهم من محنتهم.

ج - إشعارهم بمحبته لهم، وعطفه عليهم، وكونه أحدهم، وشريكهم في همومهم، ومصائبهم، ومشاكلهم، وعدم إشعارهم بالتعالى عليهم، وأنّه أفضلهم وأعلمهم؛ لأن هذا سينفرهم منه، ولو رأى المبلّغ شيئاً من اللطف من قبل الجمهور رغم تعاليه عليهم، فإنّ ذلك إنما يكون للمداهنة والمجاملة، إذ ليس مع التعالي محبة، فلا بدّ من التواضع ليصنع المحبة في قلوبهم، فإذا استطاع ذلك صنع المعجزة، وتمكن من تحريكهم؛ لأنّ من يتمكن من القلوب يتمكن من الأجسام، لقد كان الحسين عليه السلام يبكي على أعدائه ليشعرهم بمحبته لهم، وقد أوصى الله تعالى موسى عليه السلام حينما ذهب إلى فرعون قائلاً: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٣٦)، وبهذه الطريقة سيصل المبلّغ إلى هدفه، ويصلح ما فسد في

مجمتمعہ عندما یشعر الجميع بمحبتہ لهم، وعطفہ علیہم.
وفي الختام، نسال اللہ تعالیٰ أن یمنّ علی المشرفين والمبلغين بالتوفيق للخدمة
دينہ، وأن یمن علی أمتنا بالصلاحي، والخلاص إنَّہ نعم المولى ونعم النصير.

* * *

الهوامش:

- (١) الأعراف: ٦٨.
- (٢) النحل: ٣٥.
- (٣) الشورى: ٤٨.
- (٤) النحل: ١٢٥.
- (٥) التوبة: ١٢٢.
- (٦) هود: ٥١.
- (٧) الشورى: ٢٣.
- (٨) يس: ٢١.
- (٩) الطور: ٤٠.
- (١٠) آل عمران: ١٩٩.
- (١١) هود: ٥١.
- (١٢) الشعراء: ١٠٩.
- (١٣) المزمل: ٢٠.
- (١٤) المزمل: ٢٠.
- (١٥) الإسراء: ١٠٦.
- (١٦) الأعراف: ٢٠٤.
- (١٧) محمد: ٢٤.
- (١٨) الزمر: ١٨.

- (١٩) البقرة: ٢٥٩.
- (٢٠) البقرة: ٢٦٤-٢٦٥.
- (٢١) إبراهيم: ٢٤-٢٦.
- (٢٢) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٣٣، الحديث: ٦٤٢١.
- (٢٣) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٩٦، الحديث: ٥٨٤٢.
- (٢٤) البقرة: ١٠٤.
- (٢٥) طه: ٢٥.
- (٢٦) البقرة: ٤٤.
- (٢٧) نوح: ١٣.
- (٢٨) طه: ٢٧-٢٨.
- (٢٩) القصص: ٣٤.
- (٣٠) طه: ٢٦.
- (٣١) طه: ٢٩-٣٣.
- (٣٢) غافر: ٢٨.
- (٣٣) يس: ٢٠.
- (٣٤) النحل: ١٢٥.
- (٣٥) التوبة: ١٢٨.
- (٣٦) طه: ٤٤.

فكرة المهدوية تحت المجهر

دراسة في نظرية أحمد أمين

□ معين حسن دقيق العاملي (*)

تمهيد:

قد يتساءل القارئ العزيز عن السَّبب في اختيار موقف الأستاذ أحمد أمين من المهدويّة، والحال أنّه ليس هو أوّل من شكَّك فيها أو أنكرها، ولا آخر من فعل ذلك. فكان الحرّيُّ بنا إمّا أن نتعرّض لأصل منكر هذه الفكرة؛ لتقدّمه، وإمّا للمتأخّر عنه؛ لكونه - عادة - يأتي بشيءٍ إضافيٍّ على من تقدّم عليه.

والجواب: أن أحمد أمين وإنّ توسّط بين طائفتين من المشكّكين في فكرة المهدويّة: طائفة تقدّمت عليه، وكان الأبرز من أعلامها ابنا كثير وخلدون، وأخرى تأخّرت عنه، أبرزها الرّئيس السّابق للمحاكم الشّرعيّة في دولة قطر^(١)، إلّا أنّ أحمد أمين اختلف عنهم في متعلّق الإنكار والتّشكيك تارة، وفي المنهجية والأسلوب تارة أخرى.

أمّا ابن كثير فلم يكن إنكاره لنفس الفكرة بإطلاقها، وإنّما لبعض تفصيلاتها، قال:

(*) أستاذ في الحوزة العلمية.

«وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه في آخر الزمان الذي يخرج في زعمهم من سرداب سامراء، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وتوهماتهم»^(٢).

فإن إنكاره ظاهر في أنه منصب على تطبيق الإمامية لفكرة المهديّة على الشخص المعين بالظروف المعينة.

وأما ابن خلدون فإنه وإن كان يظهر منه المناقشة في أصل الاعتقاد بظهور الفاطمي الذي يظهر في آخر الزمان مع قطع النظر عن تفصيلات حركته وجزئياتها، إلا أنه سلك في تشكيكه هذا منهج المناقشة السنّدية، حيث استعرض - بزعمه - جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وضعّفها سنداً بالتشكيك في بعض رواياتها من ناحية الوضع تارة، والتشيع أخرى، وعدم الحفظ ثالثة، وكثرة الأوهام رابعة، ونحو ذلك. ومع كل ذلك لم يوفق لتضعيف جميع الأحاديث التي نقلها، كما اعترف هو نفسه بذلك، حيث قال بعد تبّعه لأسانيد الأحاديث التي نقلها:

«وهي كما رأيت لم يخلص منها من النّقد إلا القليل، والأقل منه»^(٣).

مضافاً إلى أنه لم ينقل جميع الأحاديث التي تعرّضت لفكرة المهدي المنتظر، مع كون المناقشة في أسانيد ما هو فوق حدّ التواتر إننا هو حرفة العاجز، كيف! وهو نفسه في بداية الفصل الرابع قد قال:

«اعلم أنّ في المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار أنّه لا بدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيّد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون»^(٤).

هذا، وقد اعترف بعض المحقّقين من أبناء العامة باشتباه ابن خلدون في تطبيق قواعد نقد الحديث، حيث قال:

«وجاء بعد هؤلاء كلّهم ابن خلدون المؤرّخ الشهير، فقد حاول إنكار هذه

الأحاديث على منهج النقد لدى المحدثين، وإن كان قد أخطأ في تطبيق قواعدهم^(٥).

وعليه فلا تكون المناقشة مع أمثال ابن خلدون بحاجة إلى مزيد بحث، وكتابة مقال.

وأما من تأخر عن أحمد أمين، فهو تابع له، متأثر به، كما لا يخفى على المراجع لرسالة القطري الآنف الذكر.

وأما الأستاذ أحمد أمين فهو مضافاً إلى إنكاره بشدة لأصل فكرة المهدي المنتظر، جعلها من الأفكار التي «لا تتفق وسنة الله في خلقه، ولا تتفق والعقل الصحيح»^(٦). ورتب على ذلك بأن حديث المهدوية «حديث خرافة، وقد ترتب عليه نتائج خطيرة في حياة المسلمين»^(٧).

وقد كان كل ذلك بأسلوب مغرٍ لمن ليس له باع في التحقيق واستقلالية التفكير، وستطلع على ذلك بأمر عينك فلا تتعجل.

كل ذلك جعل موقف أحمد أمين من فكرة المهدوية موقفاً مختلفاً عن أقرانه في المنهج، مع شموله لما عندهم وزيادة من ناحية المضمون.

ولذا كان من اللازم على أصحاب الأقلام أن يضعوا موقف هذا الأديب من فكرة المهدوية تحت مجهر البحث والتحقيق، كي يكون من يأتي بعده على بينة من أمره، فلا يتبعه أتباع تقليد وتأسي، ولا ينكر عليه إنكار تعصب وحقيد.

فمن هنا جاءت فكرة هذه المقالة، غايتي فيها الحق، وأسلوبها البرهان، علني بذلك أكون قد قدمت خدمة ولو يسيرة في مجال التحقيق، فيقع أجلي عند صاحب الطلعة البهية، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

ولست ادعي أنني أول من تعرض لنقد هذا الموقف، فإن جملة من السلف الصالح قد تعرض إلى تفنيد كثير مما جاء في كتب أحمد أمين الثلاثة^(٨)، ولكنني لم

أجد رسالةً مستقلةً في ردِّ فكرته حول المهديَّة.

نعم، الظَّاهر أنَّ لأحمد أمين مقالةً مستقلةً بعنوان المهدي والمهديَّة، كتب ردًّا عليها الشَّيخ محمَّد علي الزُّهيري، وقَدَّم له الشَّيخ محمَّد حسين كاشف الغطاء^(٩)، إلَّا أنَّ كُلاً من المقالة والردِّ عليها لم اُطلع عليه؛ لعدم تجدُّد طبعهما. وعليه فمصدرِي الأساسِي في نقل فكرته هو كتابه المشهور ضحى الإسلام. وقد ذكر الدُّكتور عبد العليم البستوي أنَّ لأحمد أمين كتاب المهدي والمهديَّة مطبوعٌ في القاهرة سنة ١٩٥١ م، ولم يتمكَّن من الحصول عليه، ولكنَّه لخصَّ أفكاره في كتاب آخر له، وهو ضحى الإسلام^(١٠)، ولعلَّه هو نفس تلك المقالة الآنفة الذِّكر.

بيان إجمالي لموقفه، ومنهجه فيه:

اختار الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام في وريقات معدوداتٍ بأنَّ فكرة المهديَّة فكرةٌ حادثةٌ لم تكن في زمن النَّبي ﷺ وصحابته، وإنَّما هي نتيجة لمخطَّطات حاكها الثَّالوث الشَّيعي والأموي والعبَّاسي، وذلك لأسباب سياسيَّة واجتماعيَّة ودينيَّة.

وقد كان الشَّيعةُ هم السَّابِقين في ابتكارها بعد خروج الخلافة من أيديهم بِسَمِّ الحسن، وقتل الحسين، وانتقالها إلى البيت الأموي. وإنَّما فعل ذلك زعماء الشَّيعة لكي لا يستقرَّ اليأس في نفوس أتباعهم، فمُنُّوهم بأنَّ الحكم سيرجع إليهم عند خروج المهدي المنتظر.

وقلَّدهم خالد بن يزيد الأموي في هذا الابتكار عندما خرج الحكم من بيته إلى بيت مروان بن الحكم؛ وذلك لِيُمنِّي أتباعه بعود الحكم إليه، ويثَّ فيهم الرِّجاء ونَبذ اليأس. غاية الأمر أنَّه خالف الشَّيعة في المصادق لهذا الموعود المنتظر؛ حيث اعتقد بأنَّه السُّفْياني من البيت الأموي، بخلاف الشَّيعة الذين

يعتقدون أنه من البيت الهاشمي.

ثم قلدهم العباسيون بشكلٍ آخر، فسلموا بالمهدي، واستغلُّوا فكرته،
وادَّعوا أنه منهم لا من شيعة عليٍّ.

فاليأس عند الشيعة وعند البيت السفيفاني هو السبب النفسي لقيام فكرة
المهدي، وحرب القوم من جنس سلاحهم هو السبب النفسي للمهدي
العباسي.

واستغلَّ قادة هذا الثالوث أفكار الجمهور الساذجة المتحمسة، فوضعوا لهم
أحاديث يروونها عن النبي ﷺ، كُلٌّ بحسب مصالحه ومنافعه الخاصة.

وهذه النظرية التي اخترعها قادة هذا الثالوث لها جذورٌ تاريخية يرجع
أصلها إلى الفلسفة الرواقية التي شاعت عند اليونان؛ فإنهم لما فشلوا في
حكمهم، وغلبهم الرومانيون على أمرهم حولوا الفلسفة العملية إلى فلسفة
رواقية تتطلب اللذة في الحياة العقلية، وتحمل آلام الحياة في صبرٍ وثبات.

وقد كان لهذه الخرافة نتائج خطيرة في حياة المسلمين:

منها: امتلاء عقول الناس بأحاديث تروى وقصص تقصُّ، وهي خيالٌ
وافتراء لا واقع لها.

ومنها: كثرة الثورات التي قامت باسم المهدي الموعود، وتسبب عنها كثرة
القتل والفتن.

ومنها: أدت هذه الفكرة إلى اتصال الصوفية بالتشيع اتصالاً وثيقاً، وعلى
أساس فكرة المهدي صيغت عندهم فكرة القطب.

ومنها: أنها تؤدِّي إلى تحييط العزم عن العمل، ويبقى صاحبها يعيش في
الخيال.

ومما يستأصل جذور هذه النظرية - باعتقاده - هو تقدُّم الناس في عقولهم
ومعارفهم، ونظرتهم إلى الحكم ونظامه. فإن هذا كُلُّه يجعل الناس ينشدون

العدل، ويعملون بأيديهم لإيجاد الحكم الصالح، فيتحقق المطلوب في دنيا الحسن والعقل، لا في دنيا الوهم والخيال^(١١).

هذا تصويرٌ موجزٌ ووافٍ لأصل الموقف الذي تبناه أحمد أمين من نظرية المهدوية، والملاحظ لكل من يطالع الورقات الست التي بلور فيها موقفه في كتابه ضحى الإسلام من تلك النظرية أن هناك موقفاً سلبياً من تلك النظرية قد اتخذها سابقاً، إمّا عن قناعة واعتقاد، وإمّا لأسباب أخرى لا نريد أن نخوض في التخرّص عنها، بل ليس من المهمّ التعرّض لها في هذه المقالة حتّى وإن كنّا على علم بها؛ إذ الذي يهّمنا هنا هو المنهج والأسلوب الذي اتّبعه في بلورة موقفه المتقدّم.

وهذا الموقف السابق المتّخذ من قبله لم يمش في عرضه للقارئ مشي البرهان والتّحقيق، وإنّما الاستنتاج والتّحليل الذي لا يبتني على تقديم المقدمات الموصلة إلى تلك النتائج التي اتخذها في موقفه.

بل نجده في بعض الأحيان يتبنّى خلاف ما قامت عليه الحجّة والدليل باعترافه. فمثلاً: بعد أن يذكر أن لبعض البيت الأموي مهدياً آخر لا يُسمّى بالمهدي، ولكنّه يلقّب بالسّفياني، ينقل كلاماً عن أبي الفرج الأصبهاني، وإليك نصّه:

«قال في الأغاني عن مصعب: كان خالد بن يزيد بن معاوية يوصف بالعلم، ويقول الشعر، وزعموا أنّه هو الذي وضع خبر السّفياني وكبره، وأراد أن يكون للنّاس فيه طمّغ حين غلبه مروان بن الحكم على الملك، وتزوّج أمّه أم هاشم. قال صاحب الأغاني: وهذا وهم من مصعب؛ فإنّ السّفياني قد رواه غير واحد، وتتابعت فيه رواية الخاصّة والعامة»^(١٢).

وعلق أحمد أمين على هذا الكلام بعد نقله:

«وأنا أميل إلى قول مصعب رغماً من حجّة أبي الفرج التي ذكرها، من أنّ

بعض أهل البيت روى حديث السُّفَيَّاني؛ فبعض أهل البيت كان يسرُّه كُـلُّ الأخبار التي تضعُّف من شأن البيت الأموي وانقسامه» (١٣).

فأنت ترى أنَّه على الرَّغم من اعترافه بوجود حجةٍ لأبي الفرج، وهي عدم اختصاص رواية حديث السُّفَيَّاني بالبيت الأموي، بل تتابعت روايته من الخاصَّة والعامة، مع ذلك تراه يميل إلى مقولة مصعب، من دون إبطال حجة الطَّرف المقابل، ومن دون أن يأتي بدليلٍ معتبر على مدَّعاه؛ فإنَّ صرف كون بعض أهل البيت يسرُّه كُـلُّ الأخبار التي تضعُّف من شأن البيت الأموي، لا يصلح رداً على الرواية التي تتابع على نقلها العامة والخاصَّة، ومن ليس له ربطٌ بأهل البيت.

كُلُّ ذلك من دون استعراضٍ لأدلة الخصم ومناقشتها كما هو ديدن أهل التَّحقيق، ولذا نجد ابن خلدون على الرَّغم من موقفه السَّلبي من فكرة المهدويَّة، يستعرض كُـلاً من أدلة الموافقين والمخالفين، وكما يُضعِّف أخبار من يعتقد بالفكرة بزعمه، كذلك يناقش في سند تلك الروايات التي جاء بها المشكِّك لنسف فكرة المهدويَّة، وهذا هو مقتضى الإنصاف قديماً وحديثاً.

فأيُّ محقِّقٍ في التَّاريخ يرضى لنفسه أن ينسف فكرةً يعتقد بها المسلمون قاطبةً إلا الشَّاذ النَّادر، ويصوِّر الاعتقاد بها أنَّها مؤامرةٌ حاكها الثَّالوث المتقدِّم الذَّكر، من دون أن يعتمد في هذا التَّصوير والحكاية لهذه المهزلة على نصٍّ تاريخيٍّ معتبر. وهذا المنهج هو الغالب في كتبه الثَّلاثة، ومع ذلك يأتي زميله في المهنة ويقول في حقِّه:

«وليس ذنبي أنَّ أحمد أمين قد استقصى فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوقَّ إلى الصَّواب. (...) لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل، غامضةٌ مضطربة، يتحدَّث عنها مؤرِّخو الأدب بالتَّقريب لا بالتَّحقيق، ويقولون فيها بالظَّنِّ لا باليقين. ذلك عصرٌ قد

انقضى، وألقي بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستارٌ صفيقٌ، ألقاه أحمد أمين^(١٤).

وأنا بدوري سوف أترك الحكم للقارئ على مقولة طه حسين هذه، بعد أن ينظر إلى محاكمتي لما جاء فيها سطره أحمد أمين حول فكرة المهدويّة، وذلك بعد التأمّل في النقاط التالية:

النقطة الأولى: إنّ المطالب الحقّة على مرّ العصور تكون عرضةً للاستغلال من قبل أصحاب المطامع الدنيويّة، بحيث يُجَيَّر ونها لصالحهم. وكلّما ازداد المطلب الحقّ وضوحاً ورسوخاً في أذهان الأُمّة وضامير الشعوب، كلّما وضعت السلطات الجائرة مخطّطاتها للاستفادة منه بما يعود بالنفع عليها، أو إفراغه من مضمونه، أو إيجاد نوع من التشويه والالتواء فيه.

وهذه الحقيقة تعتبر من السُّنن الثابتة في تاريخ الأُمم، بحيث لا تختصّ بشعبٍ من الشعوب، أو مذهبٍ من المذاهب، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى.

فهذه ظاهرة النبوة التي تُعتبر من الطّواهر الثابتة عند أصحاب الديانات السماويّة قد كانت عرضةً للاستغلال على مرّ العصور، ولم تكن الأُمّة الإسلاميّة ببعيدة عن هذا الاستغلال، حيث نجد أنّ التاريخ يحدّثنا عن نماذج كثيرة للذين ادّعوا هذا المنصب الجليل؛ لأجل الاستفادة منه في مصالح شخصيّة.

وفكرة يوم الحساب من الأفكار التي استفاد منها السياسيون الحاكمون بغير حقٍّ ليصرفوا الناس عن الثّورة عليهم، وجعلوها وسيلةً لتخدير شعوبهم عن القيام بواجبهم من تقويم العوج في هذه الدّنيا. بدعوى أنّ هناك يوماً للحساب يُجازى فيه كلّ ظالم.

ولمحةً سريعةً إلى الخلافات الكلاميّة التي كانت السّلطة الحاكمة هي المحرّك الأساسي لها أكبر شاهد على ما نرمي إليه، فلا حاجة للإطناب في هذه النقطة

بعد وضوحها ورسوخها.

النقطة الثانية: إن الآثار السلبيّة التي تترتب على الشّيء نتيجة لاستغلاله وسوء الاستفادة منه لا يعني بطلان حقيّته، بل إنّما يزيد من مسؤوليّة علماء الدّين لكي يضعوا هذا الحقّ في مساره الصّحيح، ويدفعوا عنه شبهات المشكّكين.

فلو تترتب على الالتزام بمبدأ المعاد أو النّبوة بعض السّلبات نتيجة لاستغلال هذين المبدئين من قبل أصحاب المصالح والمنافع الشّخصيّة، فسوف لن يؤدّي هذا الاستغلال إلى رفع اليد عن هذين المبدئين، وإنّما سيزيد ذلك من مسؤوليّة حماة الدّين والشريعة في توجيه هذين المبدئين في وجهتهما الصّحيحة. فإنّ هذا الاستغلال غير الصّحيح للمبادئ الحقّة نوعٌ من الابتداع الذي ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه:

«إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله» (١٥).

وعنه أيضاً:

«إذا ظهرت البدع، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها، فمن كان عنده علم فليشره، فإنّ كاتم العلم - يومئذٍ - ككاتم ما أنزل الله على محمّده» (١٦).

النقطة الثالثة: إنّ عدم وجود ذكرٍ لحادثة أو خبرٍ في صحيح البخاري ومسلم لا يعني بالضرورة عدم صدق تلك الحادثة وذلك الخبر، وذلك عن طريق التأمّل فيما يلي:

إنّ كلّاً من البخاري ومسلم لم يلتزما بالاستقصاء التامّ لكلّ ما كان صحيحاً، فهذا النّووي ينقل - في ذيل رواية لأبي هريرة أخرجها أبو داود والترمذي والنسائي - ما لفظه:

«ف قيل لمسلم بن الحجاج في صحيحه عن حديث أبي هريرة هذا؟ فقال: هو

عندي صحيح. فقليل: لم لم تضعه ههنا؟ فقال: ليس كُلُّ شيءٍ عندي صحيح وضعته ههنا» (١٧).

والله درّ مسعد عبد الحميد السَّعْدَنِي فيما أورده في مقدّمته على كتاب الحارث بن أبي أسامة المتوفى سنة (٢٨٢) للهجرة من قوله:

«ولكنّهما - رحمهما الله - لم يستوعبا الصَّحيح بما جمعا، ولا التزما بذلك، وقد رويانا عن البخاري أنّه قال: ما أدخلت في كتابي الجامع إلّا ما صحَّ، وتركت من الصَّحاح لِمَالِ الطُّول. ورويانا عن مسلم أنّه قال: ليس كُلُّ شيءٍ عندي صحيح وضعته ههنا - يعني في صحيحه - وإنّما وضعتُ هنا ما أجمَعُوا على صحّته. وروى الحازمي والإسماعيلي عن البخاري قوله: وما تركت من الصَّحاح أكثر. وهذه النُّقول اعترافٌ صريحٌ منهما بأنّهما لم يذكرا في كتابيهما كُلَّ الصَّحيح، فالجمال إذاً واسعٌ، والميدان فسيحٌ أمام من تتحقّق فيه العزيمة، وصدق القصد، وسعة الاطلاع، ودقّة النّقد، ليتّم ما بدأ به هذان الإمامان العظيمان» (١٨).

هذا، وقد نُقل عن القاضي الكتّاني اعتراضه على الدّارقطني وأمثاله بمنّ ألزما البخاري ومسلم بأحاديث صحيحة على شرطيهما ولم يخرجاها، بأنّ هذا الإلزام غير لازم؛ لعدم التزامهما باستيعاب الصَّحيح (١٩).

ومع قطع النّظر عن جميع هذه التّصريحات، فإنّ على ما ذكرنا اتّفاق جميع من صنّف بعدهما من أكابر الحفّاظ وغيرهما، وإلّا لفقدت جميع هذا التّصانيف حدّ الاعتبار، كما لا يخفى.

النّقطة الرَّابعة: إنّ الكثير ممّا ذكره أرباب الملل والنّحل ليس صحيحاً من أساسه، أو ليس صحيحاً على إطلاقه. وعليه فلا يستطيع من كان غرضه الصّدق والإخلاص للحقّ أن يعتمد على ما ذكره هؤلاء، ويرسله إرسال المسلمات، من دون تحقيق ونظر.

وإليك نموذجاً على ذلك ممّا يرتبط ببحثنا:

ذكر بعض أرباب الملل والنحل أنَّ الكيسانيَّة فرقةٌ تعتقد بمهدويَّة ابن الحنفية ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنَّ صاحبها هو كيسان مولى أمير المؤمنين عليه السلام، كان يدعو لابن الحنفية، وادَّعى أنَّه حيٌّ يرزق، وأنَّه مقيم في جبل رضوى (٢٠)(٢١).

مع أنَّ هذه النسبة بعيدةٌ كُلُّ البعد عن التَّحقيق، كيف! وكيسان هذا قد استشهد قبل موت محمَّد بن الحنفية بزمانٍ، حيث إنَّه قد سقط صريعاً في صفين تحت راية مولاة أمير المؤمنين عليه السلام، نقل الطُّبري وغيره، عن أبي مخنف، عن مالك بن أعين الجهني، عن زيد بن وهب الجهني، قال:

«مَرَّ عَلَيَّ مَعَهُ بَنُوهُ نَحْوَ الْمَسِيرَةِ، وَإِنِّي لَأَرَى النَّبْلَ يَمُرُّ بَيْنَ عَاتِقِهِ وَمَنْكَبِهِ، وَمَا مِنْ بَنِيهِ أَحَدٌ إِلَّا يَقِيهِ بِنَفْسِهِ، فَيَتَقَدَّمُ فِيحُولُ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامَ وَبَيْنِهِ، فَيَأْخُذُهُ بِيَدِهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَيُلْقِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَوْ مِنْ وَرَائِهِ. فَبَصُرْتُ بِهِ أَحْمَرَ مَوْلَى أَبِي سَفْيَانَ، أَوْ عُثْمَانَ، أَوْ بَعْضَ بَنِي أُمَيَّةٍ، فَقَالَ: وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ أَوْ تَقْتُلْنِي. فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَقَتَلَهُ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةٍ» (٢٢).

فالذي يُقتل بين يدي عليٍّ عليه السلام في صفين سنة (٣٧) للهجرة كيف يكون داعياً إلى إمامة ابن الحنفية بعد موته الذي كان سنة (٨١هـ) على أشهر القولين (٢٣).

النقطة الخامسة: إنَّ التَّحليل التاريخي وإن كان أمراً مسموحاً به، إلا أنَّ نتائجه تكون مضمونة إذا اعتمدت على قرائن موثوقة. أمَّا لو فُقدت هذه القرائن فلا يكون التَّحليل مهما صيغ في قالبٍ أدبيٍّ مقبولاً، فضلاً عما لو كانت القرائن قائمةً على خلافه. وهذا واضحٌ لا يحتاج إلى استدلال.

بعد وضوح هذه النُّقاط التي مهَّدناها، والتي كان أكثرها واضحاً إلى حدِّ البداهة، والقليل منها أقمنا عليه الدَّلِيل والبرهان، نأتي إلى محاكمة موقف الأستاذ أحمد أمين من فكرة المهدويَّة، ويتمُّ ذلك في ضمن التَّعرُّض لمقاطع من

كلماته:

المقطع الأول: أنه في بداية كلامه نفى علمه عن إطلاق لفظة المهدي - بمعنى الإمام المنتظر الذي يأتي فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً - قبل كيسان مولى علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي أطلق هذه الكلمة على محمد بن الحنفية، مدّعياً أنه لم يمت، وأنه مقيمٌ في جبل رضوى ^(٢٤).

ويمكن المناقشة معه في هذا المقطع من وجوه ثلاثة:

الأول: أن عدم العلم لا يُثبت عدم وجود هذا الإطلاق قبل ذلك، إلا إذا أصبح التَّخَرُّص والتَّظَنُّي هو المعتمد عليه عند أهل التحقيق، إلا أنه - حيثُ - يبطل قوله في مقدّمة ضحى الإسلام:

«سُرْتُ في ضحى الإسلام سيري في فجر الإسلام، رائدي الصّدق والإخلاص للحق» ^(٢٥).

الثاني: إننا نعلم بوجود هذا الإطلاق قبل كيسان المذكور حتى على فرض صحّة نسبة عقيدة الكيسانية إليه. وذلك عن طريق الأحاديث الصحيحة التي تناقلها الحفاظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله والصّحابة، وإليك بعض النماذج:

١- ما أورده الحاكم بإسناده إلى محمد بن الحنفية، واصفاً له بأنّه حديث صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وهو:

«قال: كنّا عند علي رضي الله عنه، فسأله رجلٌ عن المهدي؟ فقال علي رضي الله عنه: هيهات! ثم عقد بيده سبعاً، فقال: ذاك يخرج في آخر الزمان. إذا قال الرجل: الله الله قُتِل، فيجمع الله تعالى له قوماً قزح كقزح السحاب، يؤلف الله بين قلوبهم، لا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحدٍ يدخل فيهم، على عدة أصحاب بدر، لم يسبقهم الأولون، ولا يدرّكهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. قال أبو الطفيل: قال ابن الحنفية: أتریده؟ قلت: نعم. قال: إنّه يخرج من بين هذين الخشبين. قلت: لا جرم والله، لا أريها

حتى أموت، فمات بها - يعني مكة - حرسها الله تعالى» (٢٦).

٢- في سنن ابن ماجه بإسناده إلى ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منكم، ثم تطلع الرايات السود من قيل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه، فقال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي» (٢٧).

وعلق عليه محقق الكتاب بقوله:

«في الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. ورواه الحاكم في المستدرک، وقال: صحيح على شرط الشيخين» (٢٨).

والأحاديث الصحيحة في المهدي وأحواله فوق حد الإحصاء، فإدراج أكثر مما ذكرنا يُخرج البحث عن كونه مقالة مختصرة.

الثالث: أنك قد عرفت في النقطة الرابعة المتقدمة أن نسبة ما ذُكر إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب عليه السلام بعيد عن التحقيق، وسير خلف أرباب الملل والنحل عن تقليد.

ونزيد هنا أن أصحاب الملل والنحل - أيضاً - لم يجزموا بنسبة الكيسانية إلى كيسان المذكور؛ إذ تارة ينسبونها إليه، وأخرى إلى المختار الثقفي الذي يُقال له كيسان بزعيمهم على وجه التردد (٢٩).

المقطع الثاني: ما ذكره بقوله:

«وزاد القول بالمهدي وانتشر خاصة بين الشيعة، ووضعت فيه الأحاديث المختلفة، ولم يرو البخاري ومسلم شيئاً عن أحاديث المهدي، مما يدل على عدم صحتها عندهما، وإنما ذكرها الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم» (٣٠).

أما انتشار القول بالمهدي بين الشيعة خاصة، فهو افتراء بعيد عن جو التحقيق؛ إذ مضافاً إلى عدم ذكره لدليل على هذا المدعى، فإن الدليل قائم على

خلافه. ويكفي تدليلاً على ذلك كثرة الروايات من طرق العامة حول المهدي وأحواله، وأحوال آخر الزمان، والتي تبلغ حدَّ التواتر بلا إشكال. وقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ الصَّحيح منها في غاية الكثرة، وعليه فدعواه الوضع مكذَّبٌ حتَّى عند السُّنَّة أنفسهم.

وأما عدم رواية البخاري ومسلم لشيءٍ من أحاديث المهدي، فهو على فرض تسليمه لا يدلُّ على عدم صِحَّتْها عندهما، وقد عرفت تحقيق ذلك بما لا مزيد عليه في النقطة الثالثة.

هذا، مضافاً إلى أنَّ دعوى عدم روايتهما لشيءٍ من أحاديث المهدي يحتاج إلى شيءٍ من التأمُّل؛ إذ لو كان المراد من ذلك الأحاديث التي يوجد فيها لفظ المهدي، فهو وإن كان مسلماً إلاَّ أنَّه غير مفيد. وإن كان المراد مطلق ما يرتبط بفكرة المهدي ولو من دون تسمية، فهو خلاف الواقع؛ إذ يُوجد طائفة من الأحاديث فيها ترتبط بفكرة المهدي المنتظر بلا ريب، وإليك بعض النماذج على ذلك:

الحديث الأوَّل: ما رواه البخاري ومسلم بإسنادهما عن أبي هريرة، قال: «قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم» (٣١).

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث:

«قال أبو الحسن الحسن بن عليّ الأبيدي في مناقب الشافعي: تواترت الأخبار بأنَّ المهدي من هذه الأُمَّة، وأنَّ عيسى يُصَلِّي خلفه» (٣٢).

وقال في آخر كلامه في شرح هذا الحديث:

«وفي صلاة عيسى خلف رجلٍ من هذه الأُمَّة، مع كونه في آخر الزَّمان، وقرب قيام الساعة دلالةٌ للصَّحيح من الأقوال: إنَّ الأرض لا تخلو عن قائمٍ لله بحُجَّةٍ، والله أعلم» (٣٣).

وعن المناوي قوله:

«وصحَّح المولى التفتازاني أَنَّهُ يُؤْمِنُهُمْ، وَيَقْتَنِدِي بِهِ الْمَهْدِي؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ، فإِمَامَتُهُ أَوَّلِي» (٣٤).

فانظر - أَيَّدَكَ اللهُ كَيْفَ تَلَقَّى الْعُلَمَاءُ لِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ مُرْتَبِطٌ بِالْمَهْدِيِّ الْمَوْعُودِ، وَكَيْفَ ادَّعَى الْخُسْعِيُّ تَوَاتُرَ الْأَخْبَارِ بِأَنَّ الْمَهْدِيَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ عَيْسَى يُصَلِّي خَلْفَهُ، وَالتَّفْتَازَانِي خَالَفَ فِي الشُّقِّ الثَّانِي مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ، فَلَا ضَرَرَ فِي خِلَافِهِ. وَالَّذِي صَحَّحَهُ ابْنُ حَبَرٍ فِي كَلَامِهِ الثَّانِي دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى صِحَّةِ مَا يَعْتَقِدُ بِهِ الْإِمَامِيَّةُ مِنْ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَحْلُو عَنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ.

الحديث الثاني: ما رواه مسلم بإسناده إلى ابن جريج، قال: أخبرني أبو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ أَمِيرَهُمْ: تَعَالَى صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءُ تَكْرَمُهُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ» (٣٥).

وهذا الحديث - كسابقه - ظاهرٌ في ارتباطه بأحداث آخر الزَّمان التي تكون في ظلِّ حكومة الموعود المنتظر.

الحديث الثالث: ما رواه مسلم بإسناده إلى رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ، يَحْشِي الْمَالَ حَشْيًا، لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا. قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي نُضْرَةَ وَأَبِي الْعَلَاءِ: أَتُرِيَانِ أَنَّهُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؟ فَقَالَا: لَا» (٣٦).

ويُوضَّحُ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ:

«خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْدَ فِينَا حَدَثٌ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَخْرُجُ الْمَهْدِيُّ فِي أُمَّتِي خَمْسًا، أَوْ سَبْعًا، أَوْ تِسْعًا - زَيْدٌ شَاكٌ - . قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ؟ قَالَ: سَنِينَ. ثُمَّ قَالَ: يَرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا، وَلَا تَنْدُخِرُ الْأَرْضُ

من نباتها شيئاً، ويكون المال كدوساً. قال يحيى الرجل إليه، فيقول: يا مهدي، أعطني، فيحشي له في ثوبه ما استطاع أن يحمل» (٣٧).

وقريبٌ منه ما في سنن ابن ماجة (٣٨) والترمذي (٣٩)، وقال عنه الأخير: هذا حديثٌ حسن.

المقطع الثالث: ما أفاده حول فكرة السُفياني الذي تعرّضنا لشيء منه سابقاً، وإليك نصّ كلامه في ذلك:

«وأنا أميل إلى قول مصعب رغماً عن حجة أبي الفرج التي ذكرناها من أن بعض أهل البيت روى حديث السُفياني؛ فبعض أهل البيت كان يسُره كسل الأخبار التي تضعف من شأن البيت الأموي وانقسامه. فالظاهر أنه كان لخالد بن يزيد شيعته وأعدائه، نَقَص عليهم غلبة مروان بن الحكم على الحكم، وكان خالد طموحاً، اشتغل بالكيمياء ليغني أصحابه بالذهب إذا نجح، كما تقدّم. ثم وضع أحاديث المهدي، ولكنه اختار اسماً أمويّاً، وهو السُفياني إشارةً إلى جدّه أبي سفيان. قال في النجوم الزاهرة: وكان خالد المذكور موصوفاً بالعلم والعقل والشجاعة، وكان مولعاً بالكيمياء، وقيل: أنه هو الذي وضع أحاديث السُفياني (أنه يأتي في آخر الزمان) لما سمع بحديث المهدي» (٤٠).

أقول: قد عرفت سابقاً تعليقنا على هذا المقطع بما لا مزيد عليه، ونزيد الأمر هنا وضوحاً أنه قد تقدّم - أيضاً - في النقطة الخامسة أن التحليل إنما يكون مقبولاً فيما لو كان عليه قرائن مؤيدة، وفيما نحن فيه نرى أن الأمر بالعكس؛ حيث إنه قد يُقال بأن الروايات التي تعرّضت لذكر السُفياني عند العامة والخاصة بأجمعها تبرزه كشخصية ظالمة توجب افتتان المؤمنين، ووقوعهم في البلاء، وحتى من جهة أوصافه الخلقية فإنه إنسان مشوّه الوجه (٤١)، وهذا بما يُبعد جداً أن يكون خالد بن يزيد حاول أن يجعل هذا السُفياني بهذه المواصفات مصداقاً للموعود المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وله صفات خُلُقِيّة

وأخلاقية حميدة.

مضافاً إلى أن ذلك مما يحطُّ من شأن البيت السُفْياني، فلا يكون أمرهم أمام البيت المرواني مقبولاً، فيؤدِّي ذلك إلى خلاف المقصود، والمفروض أن خالد هذا كان موصوفاً بالعلم والعقل والشجاعة.

المقطع الرابع: قال في جملة رسمه لسيناريو المهدوية:

«وكما كان في التاريخ أن اليونان لما فشلوا في حكمهم، وغلبهم الثمانيون على أمرهم حولوا الفلسفة العملية إلى فلسفة رواقية تتطلَّب الأذنة في الحياة العقلية، وتحتمل آلام الحياة في صبر وثبات، كذلك الشيعة خرج الأمر من أيديهم فدعوا إلى تحمُّل آلام الحياة في صبر وثبات، وزادوا على ذلك إجادة تصوير فكرة الأمل، وجسّدوها في المهدي. ولما كان الشيعة هم الأساتذة الأوّلون في هذا الموضوع قلّدهم خالد بن يزيد الأموي لما فشل، وخرج الحكم من بيته إلى بيت مروان بن الحكم. ثم قلّدهم العباسيون بشكلٍ آخر، فسلموا بالمهدي، واستغلوا فكرته، وأدّعوا أن المهدي فيهم لا في شيعة علي» (٤٢).

إن أقل ما يمكن أن يوصف به هذا التصوير بأنه مهزلة، كيف لا! ولم يبرز عليه دليل من الأدلة. وقد بينّا لك في النقطة الأولى أن المطالب الحقّة على مرّ العصور تكون عرضة للاستغلال من قبل أصحاب المطامع، لكن ذلك لا ينعكس إلى أن كل من يؤمن بفكرة هو مستغل وصاحب مطامع. كما لا يثبت ذلك بطلان أصل الفكرة المستغلة، بل الاستغلال يكون أقرب إلى إثبات الفكرة المستغلة من نفيها، لأن الطامع والطموح إنما يستغل ما هو حق، ويجيِّره لصالحه.

ونفس ما قيل عن الشيعة في فكرة الأمل في خروج الموعود المنقذ، يُقال ذلك في فكرة المعاد؛ فإن الأمل من خلال الاعتقاد بوجود يوم للحساب، يُجْازى فيه الظالم، ويُتنصر للمظلوم ربما يكون أشد من الأمل في خروج المنكر، فهل لنا أن

نقول - حينئذٍ - بأن فكرة المعاد من مخترعات الشيعة؟!

وأما حديث تقليد خالد بن يزيد الأموي للشيعة، فقد عرفت أنه تخرُّصٌ ورجمٌ بالغيب، بل الشواهد والقرائن تقتضي خلافه.

ولا نريد بذلك أن نبرئ السُّلطة الحاكمة من استغلال فكرة المهدويّة لصالحها، بل نوّكد بأن ذلك قد حصل، كاستغلالهم لبعض الأفكار العقائديّة الأخرى. وإنّما نريد أن نقول إنّ الاستغلال لا يكون دليلاً على بطلان الفكرة المستغلّة.

وهنا تبرز وظيفة علماء الأئمة في توضيح الفكرة على حقيقتها، لكي يُسَدَّ الطريق أمام المستغلّين والنفعيين، وقد أشرتُ إلى ذلك في النقطة الثانية، فراجع. المقطع الخامس: وفي نفس السياق المتقدّم قال:

«واستغلّ هؤلاء القادة المهرة أفكار الجمهور الساذجة المتحمّسة للدين والدعوة الإسلاميّة، فأتوهم من هذه الناحية الطّيبة الطّاهرة، ووضعوا الأحاديث يروونها عن رسول الله ﷺ في ذلك، وأحكموا أسانيدها، وأذاعوها من طرق مختلفة، فصدّقها الجمهور الطّيب؛ لبساطته، وسكت رجال الشيعة؛ لأنّها في مصلحتهم، وسكت الأمويون لأنّهم قلّدوها في سفيانهم، وسكت العبّاسيون؛ لأنّهم حوّلوها إلى منفعتهم» (٤٣).

ما زال الأستاذ أحمد أمين في هذه الفقرة يتابع في رؤياه وتصوّراته، من دون دليل يستند إليه، أو برهانٍ يُعوّل عليه. ونحن نتساءل هنا: من هم هؤلاء القادة المهرة الذين استغلّوا أفكار الجمهور الساذجة؟

الذي يظهر من عبارته أنّهم ليسوا من رجال الشيعة، ولا من الأمويّين، ولا من العبّاسيّين؛ لما ربّبه بعد ذلك من سكوت هؤلاء على استغلال أولئك القادة المهرة. فلم يبقَ إلّا أن يكون مراده منهم أصحاب المسانيد والمجاميع الحديثية، كمسند أحمد، وسنن ابني ماجه وداود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم ممّن

أوردوا في كتبهم أحاديث المهدي عن الثقات والتابعين والصَّحابة. وذلك لأنَّه بعد استثناء الجمهور السَّاذج، ورجال الشَّيعة، والأمويِّين، والعباسيِّين، لا يبقى غير أولئك المشار إليهم.

وهذا وإن كان غير مرادٍ له قطعاً، إلَّا أنَّ عبارته تعطيه. وإنَّ أراد من القادة المهرة هم قادة الثَّالث، فتساءل: أين علماء الأُمَّة كي يقفوا في وجه هذه المؤامرة؟! ومجرَّد خوفهم من السُّلطة الحاكمة لا يُبرِّر ذلك، خصوصاً بعد الالتفات إلى أنَّ البادئ بهذه المؤامرة - بزعمه - هم الشَّيعة بعد سَمِّ الحسن وشهادة الحسين عليه السلام، فكان من الممكن لعلماء الأُمَّة المساندون للسُّلطة الغاصبة لحقِّ الشَّيعة أنَّ يكذبوهم قبل استغلال السُّلطة الجائرة لهذه الفكرة، مع أنَّه ليس في التَّاريخ من ذلك عينٌ ولا أثر.

ثمَّ إنَّ الوضع والدَّس في الأحاديث لا بدَّ أن ينتهي إلى رجلٍ كذاب ومدلِّس ووضَّاع، فإنَّ كان ابن داود الذي هو من أكابر الحفَّاظ الثقات عندهم قد روى أحاديث المهدي عن رجل ثقة، وآخر كذلك، إلى أن يصل إلى النَّبيِّ ﷺ، فأين هو الوضَّاع، والمفروض أنَّ المتعارف في تناقل الأحاديث في ذلك الزَّمان إنَّما هو بالسَّماع المباشر.

المقطع السَّادس: وفي سياق الكلام المتقدِّم يتابع، فيقول:

«وهكذا كانت مؤامرة شنيعة، أفسدوا بها عقول النَّاس. وكنتُ أنتظر من المعتزلة كشف النَّقاب عن هذا الضَّلال، إلَّا أنَّي للأسف لم أعثر لهم على شيءٍ كثيرٍ في هذا الباب، ولكنِّي أعرف أنَّ الزَّيدية - وهم فرعٌ آخر من فروع الشَّيعة الذين تأثروا أثراً كبيراً بتعاليم المعتزلة؛ لأنَّ زياداً رئيسهم تتلمذ لواصل بن عطاء زعيم المعتزلة - كانوا ينكرون المهدي والرجعة إنكاراً شديداً، وقد رُدُّوا في كتبهم الأحاديث والأخبار المتعلِّقة بذلك، ورووا عن أئمَّة أهل البيت روايات تعارض روايات الأئمَّة الاثني عشر» (٤٤).

ومن باب الاختصار لا أريد أن أتعرض في مناقشة هذه الفقرة لكل ما جاء فيها من أباطيل، التي منها تتلمذ زيد بن علي عليه السلام على واصل بن عطاء، بل أكتفي في الرد على ما نسبته إلى الزيدية؛ حيث إنه افتراء محض، وكتبهم تنطق بتكذيبه، وإليك نموذجين على ذلك من كتب أئمة الزيدية:

النموذج الأول: جاء في كتاب الأحكام للإمام يحيى بن الحسين المتوفى سنة (٢٩٨ للهجرة)، وهو من أعظم أئمة الزيدية:

«باب القول فيما ذكر عن المهدي عليه السلام: قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه: نرجو أن يكون الله قد قرب ذلك وأدناه؛ وذلك أننا نرى المنكر قد ظهر، والحق قد درس وغير، وقد قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، إلخ...» (٤٥).

النموذج الثاني: قال الإمام يحيى بن الحسين في موضع آخر من كتابه المتقدم: «بلغنا عن زيد بن علي عليه السلام أنه قال: نحن الموتورون، ونحن طلبة الدم، والنفس الزكية من ولد الحسن، والمنصور من ولد الحسن. كآتي بشيبة النفس الزكية وهو خارج من المدينة يريد مكة، فإذا قتله القوم لم يبق لهم في الأرض ناصر، ولا في السماء عاذر، وعند ذلك يقوم قائم آل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ملجئاً ظهره إلى الكعبة، بين عينيه نور ساطع، لا يعمى عنه إلا أعمى القلب في الدنيا والآخرة، فقال له أبو هاشم بائع الثرمان: يا أبا الحسين، وما ذلك النور؟ قال: عدله فيكم، وحجته على الخلائق» (٤٦).

أليس هذا نصاً صريحاً على ما يعتقد به الشيعة الإمامية، وإن كان أحمد أمين يعتقد اعتقاداً كبيراً في المعتزلة، ويستكشف آراءهم من الزيدية، فعليه أن يؤمن بفكرة المهدي تبعاً لهذين النصين وغيرهما بما هو مبثوث في كتب الزيدية، إلا إذا تجاهل ذلك النور الساطع الذي أشار إليه زيد عليه السلام، فيكون ممن عمي قلبه في الدنيا والآخرة.

وأعتقد أنه قد آن الأوان للقارئ الكريم أن يتخذ موقفاً من تحقیقات هذا الأديب، ومن قول زميله طه حسين فيه:

«ولیس ذنبی أن أحمد أمين قد استقصی فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوفق إلى الصواب. (...). لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل، غامضة مضطربة، يتحدث عنها مؤرخو الأدب بالتقريب لا بالتحقیق، ويقولون فيها بالظن لا بالیقین. ذلك عصر قد انقضى، وألقي بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق، ألقاه أحمد أمين» (٤٧).

فأي استقصاء هذا الذي يُجرّف الكلم عن مواضعه، وأي جودة للقراءة وإتقان للفهم، وكتب الزيدية مليئة بخلاف ما ذكره.

المقطع السابع: قد عرفت سابقاً أن أحمد أمين رتب على هذه الخرافة - بزعمه - نتائج خطيرة في حياة المسلمين، وقد آن الأوان للرد عليها.

أمّا النتيجة الأولى، وهي امتلاء عقول الناس بأحاديث تُروى وقصص تقص، وهي خيال وافتراء لا واقع لها. فهي وإن كنا نسلّم بها إلا أنها لا تنتج بطلان فكرة المهدوية، فكم من حادثة وقعت في التاريخ قطعاً، وصيغت حولها الأقاصيص الخيالية^(٤٨)، فلم يؤدي ذلك إلى بطلان تلك الحادثة. ونحن نرى أن ما ذكر كان من نتائج استغلال فكرة المهدوية من جهة، وعدم قيام العلماء والمفكرين بوظيفتهم تجاه هذه الفكرة من جهة أخرى.

وأمّا النتيجة الثانية، أعني: كثرة الثورات التي قامت باسم المهدي الموعود، فقد عرفت أن هذا - أيضاً - لا يستلزم بطلان الفكرة، لأنه ناشئ من سوء الاستغلال، لا من بطلان الفكرة، وإلا لأشكل الأمر في مسألة النبوة أيضاً؛ فإن مدعي النبوة أكثر من مدعي المهدوية.

ومنه يظهر الحال في النتيجة الثالثة، أعني: اتصال الصوفية بالتشيع اتصالاً

وثيقاً، وعلى أساس فكرة المهدي صيغت عندهم فكرة القطب. مضافاً إلى ما عرفته من عدم اختصاص فكرة المهدي بالشيعة.

وأما تأدية هذه الفكرة إلى تحبيط العزائم، وشلّ النفوس عن العمل والإبداع، فهو إنّما يَتِمُّ بناءً على الفهم السّليبي للانتظار، الذي كتب علماءنا في التحذير منه كتابات متعددة.

هذا، وتُشير النُّصوص الكثيرة الواردة حول حركة الظُّهور وما يتقدّم عليها أنّ ظهور المهدي الموعود حلقةٌ من حلقات النُّضال بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وأنّ هذا النُّضال يُتَوَجَّح بظهور الإمام وتحقُّق الانتصار على يديه، فظهوره ^{عَلَيْهِ السَّلَام} تجسيدٌ لآمال المؤمنين العاملين، ومظهرٌ لحتميّة انتصار فريق الإيوان على فريق الكفر والعصيان، قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (٤٩). وهذا الذي أشرنا إليه يُصدِّقه الواقع المعاصر عند أتباع مدرسة أهل البيت الذين فهموا معنى الانتظار على حقيقته، وكان نتيجة هذا الأمل والانتظار الإيجابي انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، واندحار الصّهاينة عن لبنان.

وفي ختام هذه المقالة أريد أن أجري مقارنةً بين فكرة المهديّة والاعتقاد بيوم الجزاء، فإنّهما يلتقيان من جهات، بعد الالتفات إليها يتّضح النقص على جميع النتائج التي ذكرها أحمد أمين، ويمكن تلخيص هذا الجهات في ضمن نقاط أربع:

الأولى: نلاحظ أنّ يوم القيامة عند المسلم متيقّن الوقوع، ولكنّه مجهولٌ على التّعين، وظهور الإمام الحجة المنتقد للبشريّة متيقّن الحصول مجهول التّعين.

الثّانية: يوم القيامة هو يوم المجازاة، ويوم تجلّي العدالة الإلهيّة في الآخرة. ويوم الظُّهور هو يوم المجازاة الدُّنيويّة، ويوم نشر العدالة الإلهيّة فيها.

الثالثة: كما أنَّ الموقف السَّلبي من انتظار يوم القيامة غير مقبولٍ إسلامياً، كذلك هو غير مقبولٍ من انتظار ظهور المنقذ.

الرابعة: كما أنَّ الإنسان يتعلَّق رجاءه وأمله بمجيء ذلك اليوم الأخروي عندما يتعرَّض في هذه الدُّنيا لظلم، كذلك في مسألة الظُّهور.

وبهذا يكون قد تمَّ ما أردت تعليقه على موقف الأستاذ أحمد أمين، ويبقى الحكم النهائي للقارئ المنصف، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

* * *

الهوامش:

- (١) له رسالة أسأها: لا مهدي يُنتظر بعد الرّسول سيّد البشر.
- (٢) البداية والنهاية: ٩ / ٤٩، للمحافظ إسماعيل بن كثير الدّمشقي، تحقيق على شيري، الطّبعة الأولى ١٤٠٨، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.
- (٣) مقدّمة ابن خلدون / ٣٢٢، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.
- (٤) المصدر السّابق / ٣١١.
- (٥) المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصّحيحة للبتوي / ٣٢، الطّبعة الأولى ١٤٢٠، نشر المكتبة المكيّة، مكّة المكرّمة، السّعودية.
- (٦) ضحى الإسلام / ٦٦٩، دار الكتاب العربي، الطّبعة الأولى: ١٤٢٥، بيروت.
- (٧) المصدر السّابق.
- (٨) وهي: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام.
- (٩) راجع الدّريّة إلى تصانيف الشّيعة: ٢٣ / ٢٩٠، لآقا بزرگ التّهراني، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٣، دار الأضواء، بيروت.
- (١٠) المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصّحيحة / ١٣٦.
- (١١) راجع: ضحى الإسلام / ٦٦٤ - ٦٦٩.
- (١٢) ضحى الإسلام / ٦٦٥.

- (١٣) المصدر السابق.
- (١٤) ضحى الإسلام / ٨، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: ١٤٢٥، بيروت.
- (١٥) أصول الكافي للكليني: ١ / ٥٤، تصحيح وتعليق على أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة، سنة ١٣٦٣ هـ، ش، نشر دار الكتب الإسلامية، تهران.
- (١٦) الجامع الصغير للسيوطي: ١ / ١١٥، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، بيروت.
- (١٧) المجموع لمحيي الدين النّووي: ٣ / ٣٦٧، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (١٨) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (مقدمة التحقيق) / ٨، دار الطلائع، القاهرة، مصر.
- (١٩) نفحات الأزهار للميلاني: ٦ / ١٣٦، الطبعة الأولى ١٤١٤، قم، إيران. نقلاً عن كتاب المنهل الرّوي في علم أصول حديث النبي.
- (٢٠) وهو جبلٌ على سبع مراحل من المدينة.
- (٢١) راجع: الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٤٧، تحقيق محمد سيّد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (٢٢) تاريخ الطبري: ٤ / ١٣، تحقيق نخبة من العلماء، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان. وانظر: وقعة صفين لنصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ للهجرة.
- (٢٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير: ٩ / ٤٨، تحقيق على شيري، الطبعة الأولى ١٤٠٨، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٤ / ١٢٨، تحقيق مأمون الصّاغري، الطبعة التاسعة ١٤١٣، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (٢٤) ضحى الإسلام / ٦٦٤.
- (٢٥) ضحى الإسلام / ٥.
- (٢٦) المستدرک على الصّحیحین: ٤ / ٥٥٤، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦.
- (٢٧) سنن ابن ماجة: ٢ / ١٣٦٧، حديث: (٤٠٨٤)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٢٨) المصدر السابق.
- (٢٩) راجع: الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٤٧. وقاموس الرجال للتستري: ١٠ / ٨، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٣.
- (٣٠) ضحى الإسلام / ٦٦٥.

- (٣١) صحيح البخاري: ٤ / ١٤٣، نشر دار الفكر، بيروت. صحيح مسلم: ١ / ٩٤، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٣٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٦ / ٣٥٨، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- (٣٣) المصدر السابق.
- (٣٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٥ / ٧٤، تحقيق أحمد عبد السلام، الطبعة الأولى ١٤١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٣٥) صحيح مسلم: ١ / ٩٥.
- (٣٦) المصدر السابق.
- (٣٧) مسند أحمد: ٣ / ٢١، نشر دار صادر، بيروت.
- (٣٨) سنن ابن ماجه: ٢ / ١٣٦٧، حديث (٤٠٨٣).
- (٣٩) سنن الترمذي: ٣ / ٣٤٣، حديث (٢٣٣٣).
- (٤٠) ضحى الإسلام / ٦٦٥.
- (٤١) راجع في جميع ذلك كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي، المتوفى سنة ٢٢٩ للهجرة.
- (٤٢) راجع كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي، المتوفى سنة ٢٢٩ للهجرة.
- (٤٣) ضحى الإسلام / ٦٦٨.
- (٤٤) المصدر السابق.
- (٤٥) الأحكام في الحلال والحرام: ٢ / ٤٦٨،
- (٤٦) المصدر السابق / ٤٧٠. ونقله أيضاً القاضي الصّعدي في درر الأحاديث النبوية بالأسانيد البيهقيّة / ١٤٠، الحديث: (٣٨٩)، تحقيق عبد الله بن حمود العزي، نشر مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء.
- (٤٧) ضحى الإسلام / ٨.
- (٤٨) كما هو الحال في قضايا عنترة بن شدّاد، وحرب البسوس.
- (٤٩) الثور: ٥٥.

إشكالية السجود على التربة الحسينية

والجواب عنها

□ الشيخ محمد منقور (*)

المقدمة:

على التربة الحسينية؟ ولماذا لا يجوزون

السجود على السجاد وغيره من
الأجسام كما يفعله الكثير من
المسلمين؟

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة
والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله
الطيبين الطاهرين.

وقد أثبتنا في هذه المقالة مجموعة
من النتائج، نُشير إليها في ضمن
النقاط التالية:

الأولى: إنَّ الشيعة بسجودهم على
التربة الحسينية يكونون قد اعتمدوا
أحوط الأقوال والاجتهادات؛ إذ أن
التربة الحسينية من الأرض،

أما بعد، فالمقالة التي بين يديك
جوابٌ عن سؤالٍ أوردته بعض
الإخوة يرتبط البحث عنه حول
مسألة من المسائل التي كثيراً ما
توجب سوء الفهم عند البعض تجاه
أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

أما السؤال: لماذا يسجد الشيعة

(*) باحث ومحقق إسلامي، المشرف العام على مركز الهدى للدراسات الإسلامية، مملكة البحرين.

ومشروعية السجود على الأرض إجماعي بين فقهاء المسلمين قاطبة، ووثقنا ذلك بنقل بعض كلمات علماء السنة.

الثانية: إِنَّ الشَّيْعَةَ لَا يَذْهَبُونَ إِلَى لزوم السجود على خصوص التربة الحسينية، وَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْجُدُونَ عَلَى التربة الحسينية باعتبارها من الأرض، واختيارهم للتربة الحسينية باعتبارها — بنظرهم — من أفضل مواضع الأرض، ووثقنا ذلك بكلمات أساطين فقهاء الشيعة، وبالروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

الثالثة: الشَّيْعَةُ لَا يَتَّخِذُونَ مِنْ تربة الإمام الحسين عليه السلام وثناً يعبدونه من دون الله، وهناك فرقٌ بيِّنٌ بين السُّجُودِ عَلَى الشَّيْءِ وَالسُّجُودِ لَهُ. وأكدنا أَنَّ منشأ هذه الفرية ليس هو الغفلة عن واقع حال الشيعة؛ إذ هو أظهر من أن يخفى على أحد، إلا أَنَّ النفوس إذا ما تلبَّدت، واحتقنت بالأضغان نفَّست عنها بمثل هذه العظائم.

الرابعة: الشَّيْعَةُ بَذَاهِبِهِمْ إِلَى عدم جواز السُّجُودِ عَلَى غير الأرض وما أنبتته لهم في ذلك مبرراته الموضوعية. وأما الجواب: التربة الحسينية التي يجعل منها الشيعة موضعاً للسُّجُود في صلواتهم لله عزَّ وجل ليست سوى طينٍ مَّتَّخِذٍ مِنْ جَوَانِبِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وقد تُتَّخَذُ مِنْ عَمُومِ أَرْضِ كَرْبَلَاءَ، فَهُمْ إِذَنْ يَسْجُدُونَ عَلَى الْأَرْضِ، أَيْ أَنَّ الشَّيْعَةَ بِسُجُودِهِمْ عَلَى التربة الحسينية يكونون قد اعتمدوا أحْوَطَ الْأَقْوَالِ والاجتهادات، إذ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ اختلفوا فيها بِصُحِّ السُّجُودِ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ وَمَشْرُوعِيَةِ السُّجُودِ عَلَى الْأَرْضِ.

وحتى يَتَبَيَّنَ السَّائِلُ الْكَرِيمُ مِنْ صَدَقَ دَعْوَانَا، وَأَنَّ مَشْرُوعِيَةَ السُّجُودِ عَلَى الْأَرْضِ مُورَدٌ لِاتِّفَاقِ عَمُومِ الْمُسْلِمِينَ، نَقْلُ لَهُ مِنْ بَعْضِ الْأَقْوَالِ الصَّادِرَةِ عَنْ عُلَمَاءِ السَّنَةِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا بِالرَّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ مِنْ طَرَفِهِمْ.

السجود هو الأصل؛ لأنه عُلّق بسط الثوب بعدم الاستطاعة»^(٣).

بمعنى أنه كلّ ما صحَّ السجود عليه من غير الأرض إنّما هو للرخصة، وإلا فالسجود بحسب الأصل لا يكون إلا على الأرض.

هذا بعض ما ورد من كلمات فقهاء السنة، ولولا أن المسألة من الوضوح بنحو ترقى لمستوى الضرورة الفقهية لأسهبنا في نقل أقوال العلماء المعبرة عن الاتفاق على مشروعية السجود على الأرض. وأمّا الروايات:

روايات السنة في مشروعية السجود على الأرض:

فمنها: ما ورد في صحيح البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله: أنَّ النبي ﷺ قال:

«أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا»^(٤).

ومعنى الرواية أن مطلق وجه

١- ذكر ابن رشد القرطبي تحت عنوان حكم الصلاة على غير الأرض ما لفظه: «اتفقوا على الصلاة على الأرض، واختلفوا في الصلاة على الطنافس وغير ذلك مما يُقعد عليه على الأرض..»^(١).

٢- ذكر ابن قدامة في كتابه المغني تحت عنوان ولا تجب مباشرة المصلي بشيء من الأعضاء: «والمستحب مباشرة المصلي بالجهة واليدين ليخرج من الخلاف، ويأخذ بالعزيمة»^(٢).

فوضع الحائل بين الجهة وبين الأرض لما كان مورد خلاف، لذلك كان الاستحباب هو أن يباشر بجهته وجه الأرض ليخرج بذلك عن الخلاف.

٣- قال ابن حجر العسقلاني في مقام الشرح لرواية أنس بن مالك: قال كنا نصلي مع النبي ﷺ، فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر في مكان السجود، قال ابن حجر: «وفيه إشارة إلى أن مباشرة الأرض عند

الأرض تجعل موضعاً للسجود، وهي كذلك موضعاً للطهور.

ومنها: ما ورد - أيضًا - في صحيح البخاري بسنده إلى أبي سلمة، قال: «انطلقت إلى أبي سعيد الخدري فقلت: ألا تخرج بنا إلى النخل نتحدث، فخرج، فقال: حدثني ما سمعت من النبي ﷺ في ليلة القدر. قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشر الأول من شهر رمضان، واعتكفنا معه وكان سقف المسجد جريد النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فأمطرنا، فصلّى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته...» (٥).

ومنها: ما رواه مسلم في صحيحه في باب كراهة مسح الحصى وتسوية التراب في الصلاة، روى عن معيقب، قال: «ذكر النبي ﷺ المسح في المسجد، يعني الحصى قال ﷺ: إن كنت فاعلاً فواحدة» (٦).

والرواية صريحة في أن السجود

إنما كان على الحصى والتراب، وأنه لا ينبغي مسح التراب أو الغبار عن الحصى إلا مرة واحدة، وهكذا لا ينبغي تسوية التراب الذي يراد السجود عليه إلا مرة واحدة.

ومنها: ما ورد في مسند أحمد بإسناده عن وائل بن حجر، قال: «رأيت النبي ﷺ إذا سجد وضع جبهته وأنفه على الأرض» (٧).

ومنها: ما رواه البيهقي في سننه عن ابن عباس، أن النبي ﷺ سجد على الحجر (٨).

ومنها: ما ورد من أن عائشة قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ متقياً وجهه بشيء» (٩).

ومنها: ما ورد عن أبي هريرة، قال: «سجد رسول الله ﷺ في يوم مطير، حتى أني لأنظر إلى أثر ذلك في جبهته وأرنبته» (١٠).

ومنها: ما ورد في السنن الكبرى أن أنس قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في شدة الحر، فيأخذ أحدنا الحصاء في يده، فإذا برد وضعه وسجد

عليه» (١١).

ومنها: ما ورد فيه - أيضاً - أنَّ خباب بن الارت قال: «شكونا إلى رسول الله شدة الرمضاء في جباهنا وأكفنا فلم يشكنا» (١٢).

ومنها: ما روي عن خالد الجهنى، قال: رأى النبي ﷺ صهيياً يسجد كأنه يتقي التراب، فقال له: «تَرَبَّ وجهك يا صهيب» (١٣).

ونقل عن أم سلمة أنها قالت: رأى النبي غلاماً لنا - يقال له: أفلح - يسنفخ إذا سجد، فقال: «يا أفلح تَرَبَّ» (١٤).

هذا بعض ما تيسر لنا نقله من الروايات الواردة من طرق السنة، والمعبرة عن أنَّ رسول الله ﷺ كان يسجد على الأرض، ويأمر بذلك رغم أنَّ السجود على غيرها كان متاحاً له ﷺ وهم.

ونرى من المناسب استكمالاً للفائدة نقل بعض ما ورد من عمل الصحابة والتابعين في هذا الشأن.

١- ورد في المصنّف لعبد الرزاق،

عن أبي أمية أنَّ أبا بكر كان يسجد أو يصلّي على الأرض مفضياً إليها» (١٥).

٢- أورد البيهقي في سننه عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال كنت أصلي مع النبي ﷺ الظهر، فأخذ قبضة من الحصى فأجعلها في كفي، ثم أحولها إلى الكف الأخرى حتى تبرد، ثم أضعها لجيني حتى أسجد عليها من شدة الحر» (١٦).

٣- ذكر ابن حجر في كتابه في شرحه على البخاري أن عروة بن الزبير يكره الصلاة على شيء دون الأرض» (١٧).

وبما نقلناه لك يتبيّن أنَّ ما عليه الشيعة من السجود على التربة الحسينية هو المناسب لمقتضى الاحتياط؛ إذ هو القدر المتيقن مما يصح السجود عليه، وما عداه موردٌ للخلاف كما ذكر ذلك ابن رشد (١٨) وغيره، وهو مقتضى الأصل، إذ أنَّ ما عداه لو صحَّ السجود عليه لكان من باب الرخصة كما أفاد ذلك ابن حجر العسقلاني (١٩).

لماذا يسجد الشيعة على التربة الحسينية؟

وأما لماذا يسجد الشيعة على تربة الحسين عليه السلام دون سواها؟ فجوابه أن الشيعة لا يرون لزوم السجود على التربة الحسينية، وإنما يستحبون ذلك تيمناً وتبركاً بسبط رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلا فهم يسجدون على كل تراب أو حجر أو طين طاهر.

ولتوثيق ما ندّعيه من أن الشيعة يسجدون على مطلق الأرض، ولا يرون لزوم السجود على تربة الحسين عليه السلام ننقل لك بعض أقوال علمائهم في هذا الشأن، ثم نردفه بنقل بعض الروايات المعتمدة عندهم، والواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

١- ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي في كتاب الخلاف مسألة: «وضع الجبهة على الأرض في حال السجود فرض، ووضع الأنف سنة، ثم قال: دليلنا إجماع الفرق» ^(٢٠).

٢- ذكر الشيخ محمد بن حسن النجفي في كتابه جواهر الكلام: «لا

يجوز السجود اختياراً على ما ليس بأرض»، ثم قال: «إجماعاً محصلاً ومنقولاً مستفيضاً بل متواتراً... بل يمكن دعوى ضرورة المذهب عليه» ^(٢١).

٣- ذكر الشيخ أحمد النراقي في كتابه مستند الشيعة في بحث السجود: «ولكن هاهنا أصلاً آخر، هو عدم جواز السجود إلا على الأرض، أو ما أنبتته شرعاً، حصل ذلك الأصل بالإجماع المحقق والمحكي في المعتبر والتذكرة والمدارك وغيرها والأخبار» ^(٢٢).

وهذه النصوص صريحة في أن السجود يكون على مطلق الأرض، فلا اختصاص بنظر الإمامية لبقعة على أخرى في أصل جواز السجود، فكما يصحّ بنظرهم السجود على تربة الحسين عليه السلام يصحّ السجود عندهم على غيرها.

٤- ذكر صاحب الحقائق: «إنَّ أفضل أفراد الأرض في السجود التربة الحسينية على مشرفها أفضل

الصلاة والسلام والتحية» (٢٣).

وقريبٌ منه ما عن الشيخ
النراقي (٢٤).

وبمجموع هذه النصوص يتبيّن
لك أنّ السجود على التربة الحسينية
ليس لازماً، نعم هو أفضل أفراد ما
يُسجد عليه من الأرض، والمستند
المعتمد عندهم لدعوى استحباب
السجود على تربة الحسين (عليه السلام) هو ما
ورد من روايات عن أهل البيت
(عليهم السلام).

منها: ما أورده الطبرسي في
الاحتجاج، عن محمد بن عبد الله بن
جعفر الحميري، عن صاحب الزمان
(عليه السلام) أنه كتب إليه يسأله عن السجدة
على لوح من طين القبر - يعني قبر
الحسين - هل فيه فضل؟ فأجاب (عليه السلام):
«يجوز ذلك، وفيه الفضل» (٢٥).

ومنها: ما عن الشيخ الطوسي في
المصباح بإسناده عن معاوية بن عمار،
قال: «كان لأبي عبد الله (عليه السلام) خريطة
ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله
(عليه السلام)، فكان إذا حضرته الصلاة صبّه

على سجّادته وسجد عليه» (٢٦).

ومنها: ما أورده الحسن بن محمد
الدلمي في الإرشاد قال: «كان
الصادق (عليه السلام) لا يسجد إلا على تربة
الحسين (عليه السلام) تذلاًّ لله، واستكانةً
إليه» (٢٧).

وبهذه الروايات وبما نقلناه من
أقوال فقهاء الشيعة يتأكد للسائل
الكريم أن السجود على التربة
الحسينية إنّما هو لكونها من أفراد
الأرض، وأنّه لا فرق بينها وبين
غيرها من جهة مشروعية السجود
عليها، نعم السجود على التربة
الحسينية فيه فضل.

ولعلّ واحداً من مناشئ الفضل
هو أنّ اتخاذ تربة الحسين (عليه السلام)
والسجود عليها يساهم في توثيق
علاقة الحبّ والولاء لسيد الشهداء
الذي قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أحبّ
الله من أحبّ حسيناً» (٢٨).

محض اقتراء:

إنّ ما هو مستغرب بل ومستبشع
ما يدّعيه البعض من أنّ الشيعة

يَتَّخِذُونَ مِنْ تَرَبَةِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَثَنًا
يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ
مَحْضُ افْتِرَاءٍ، وَسَوْفَ نَقَاضِيهِمْ عِنْدَ
اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ.

فَالشَّيْعَةُ لَا يَسْجُدُونَ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ
وَعَلَا، وَهُمْ إِنَّمَا يَسْجُدُونَ عَلَى تَرَبَةِ
الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَلَا يَسْجُدُونَ لَهَا، وَفَرَقُ
بَيْنَ السَّجُودِ لِلشَّيْءِ وَالسَّجُودِ عَلَيْهِ،
وَلِعَمْرِي هَذَا وَاضِحٌ بَيِّنٌ، إِلَّا أَنَّ
النَّفُوسَ إِذَا مَا تَلَبَّدَتْ وَاحْتَقَنْتْ
بِالْأَضْغَانِ نَفَسَتْ عَنْهَا بِمَا تَتَوَهَّمُ أَنَّهُ
يُخَفِّفُ مِنْ غُلُوثِهَا، إِلَّا أَنَّهَا سَتَظَلُّ
تَحْتَقِنُ كُلَّمَا تَنَفَّسَتْ.

وَالَّذِي لَا يَنْقُضِي مِنْهُ الْعَجَبُ
(وَإِنْ عَشْتَ أَرَاكَ الدَّهْرُ عَجِبًا) أَنَّ
يُرْمَى الشَّيْعَةَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعِظَائِمِ،
وَكَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي جِزْرِ نَائِيَةٍ!! أَوْ
يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَةٍ لَا يَفْهَمُهَا أَحَدٌ، أَوْ
لَيْسَ لَهُمْ حُضُورٌ ظَاهِرٌ فِي كُلِّ بَقَاعِ
الْأَرْضِ، وَكَأَنَّهُمْ لَا مَسَاجِدَ لَهُمْ، وَلَا
مُحَافِلَ، أَوْ لَيْسَ لَهُمْ كُتُبٌ تَمَلَأُ الْآفَاقَ،
وَتَضِجُ مِنْهَا الْمَكْتَبَاتُ بِصَنُوفِ
اللُّغَاتِ. نَعَمْ، يُدْرِكُ الْآخَرُونَ أَنَّ

لِلشَّيْعَةِ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ مَا يُبَرِّرُ الْفِرْيَةَ
عَلَيْهِمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ
لِلتَّرْوِيحِ عَمَّا يَعْتَلِجُ فِي النَّفْسِ الْمُثْقَلَةِ
بِالْأَضْغَانِ.

وَكَيْفَ كَانَ، فَإِنَّ مَا قَدَمْنَاهُ وَإِنْ
كَانَ يَصْلَحُ لِدَفْعِ هَذِهِ الْفِرْيَةِ، إِلَّا أَنَّهُ
وَاسْتِكْمَالٌ لِفَائِدَةٍ نَرَى مَنَاسِبًا أَنْ
نَنْقُلَ لَكُمْ مَا يَجِبُ قَوْلُهُ، وَمَا يُسْتَحَبُّ
فِي سَجُودِ الصَّلَاةِ، وَسَجُودِ الشُّكْرِ،
وَسَجُودِ التَّلَاوَةِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ؛ لِيَتَبَيَّنَ
لِلسَّائِلِ الْكَرِيمِ مَسْتَوَى الْجَنَاحَةِ الَّتِي
اقْتَرَفَهَا مِثِيرُ الشُّبْهَةِ.

الذكر في سجود الصلاة:

١- محمد بن الحسن الطوسي،
بِسند متصل إلى هشام بن سالم، قال:
«سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنِ التَّسْبِيحِ
فِي الرُّكُوعِ وَالسَّجُودِ؟ فَقَالَ: تَقُولُ فِي
الرُّكُوعِ: سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ، وَفِي
السَّجُودِ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى، الْفَرِيضَةُ
مِنْ ذَلِكَ تَسْبِيحَةٌ، وَالسَّنَةُ ثَلَاثُ،
وَالْفَضْلُ سَبْعٌ» (٢٩).

٢- محمد بن الحسن الطوسي،
بِسند متصل إلى أَبِي بَكْرٍ الْخَضْرَمِيِّ،

قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام أي شيء حدُّ الركوع والسجود؟ قال: تقول: سبحان ربِّي العظيم وبحمده ثلاثاً في الركوع، وسبحان ربِّي الأعلى وبحمده ثلاثاً في السجود، فمن نقص واحدة نقص ثلثُ صلاته، ومن نقص اثنتين نقص ثلثي صلاته، ومن لم يسبِّح فلا صلاة له» (٣٠).

هذه بعض الروايات الكثيرة الواردة في ذكر الركوع والسجود، وقد أفتى بمضمونها فقهاء الشيعة، وإن شئت فراجع ما يقع في يديك من كتب الشيعة المتصدية لبيان أحكام الصلاة تحت عنوان وجوب الذكر في الركوع والسجود.

الذكر في سجود الشكر:

وردت روايات عن أهل البيت عليه السلام تبلغ أو تفوق حدَّ التواتر، مفادها استحباب أن يسجد المكلَّف بعد الصلاة شكراً لله تعالى، وورد عنهم عليه السلام مجموعة من الأدعية والأذكار أفادوا أنَّه يستحب للمكلَّف أن يأتي بها تيسر منها في سجوده.

منها: ما ورد في العلل بسنده إلى الإمام الرضا عليه السلام، قال: «السجدة بعد الفريضة شكراً لله عزَّ وجل على ما وفق له العبد من أداء فرضه، وأدنى ما يُجزِّي فيها من القول أن يقال: شكراً لله، شكراً لله ثلاث مرات، قلت فما معنى قوله: شكراً لله؟ قال: يقول: هذه السجدة مني شكراً لله على ما وفقني له في خدمته وأداء فرضه، والشكر موجب للزيادة، فإن كان في الصلاة تقصير ولم يتم بالنوافل تمَّ بهذه السجدة» (٣١).

ومنها: ما ورد في المصباح عن علي بن الحسين عليه السلام أنَّه كان يقول في سجدة الشكر مائة مرة الحمد لله شكراً، وكلَّمَا قاله عشر مرات، قال: شكراً للمجيب، ثم يقول: يا ذا المنِّ الذي لا ينقطع أبداً، ولا يُحصيه غيره عدداً، ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، يا كريم، يا كريم، يا كريم، ثم يدعو ويتضرَّع ويذكر حاجته (٣٢).

الذكر في سجود التلاوة:

المراد من سجود التلاوة هو: السجود الذي يجب على المكلف إيقاعه عند تلاوته، أو استماعه لآيات السجدة، وفقهاء الإمامية يُفتون بعدم وجوب قراءة ذكر خاص، إلا أنه يستحب الإتيان أثناء السجود بالأذكار الماثورة، والتي منها ما رواه الكليني بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا قرأ أحدكم السجدة من العزائم فليقل في سجوده: سجدت لك تعبدًا ورقًا، لا مستكبرًا عن عبادتك ولا مستنكفًا ولا مستعظمًا، بل أنا عبد ذليل خائف مستجير» (٣٣).

وبما تقدّم يتبين لكُلٌّ من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد واقعٌ ما نحن عليه من عبودية خالصة لله عزّ وجل، كما يتبين به مستوى الظلم والتجني الذي يمارسه البعض في حقنا، متوهّمًا أنه بذلك يُدخل الوهن علينا، وكأنّه لم يسمع قوله تعالى: ﴿رَفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (٣٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ (٣٥).

عدم مشروعية السجود على غير الأرض وما أنبتت:

وأما لماذا لا يُجيز الشيعة السجود على غير الأرض وما أنبتت؟ فذلك لأن الروايات المعتمدة عندهم والواردة عن أهل البيت عليهم السلام نهت عن السجود على غير الأرض وما أنبتت، من غير المأكول والملبوس، فما يجوز السجود عليه عندهم - تبعًا لأئمة أهل البيت عليهم السلام - هو مطلق وجه الأرض من ترابٍ وحجرٍ والنباتات إذا لم تكن من جنس المأكول والملبوس، وعليه فلا يجوز عندهم السجود على مثل الصوف والشعر والجلود والمعادن، وكذلك القطن والكتان؛ لأنها وإن كانتا مما أنبتته الأرض إلا أنهما لما كانا من جنس الملبوس كان السجود عليهما منهيًا عنه.

واستكمالاً للفائدة ننقل روايةً واحدةً من الروايات الكثيرة المتصديّة لبيان هذا الحكم:

١- روى الشيخ الصدوق بإسناده عن هشام بن الحكم، أنه قال لأبي عبد الله عليه السلام: «أخبرني عما يجوز السجود عليه وعما لا يجوز، قال عليه السلام: السجود لا يجوز إلا على الأرض، أو على ما أنبتت الأرض إلا ما أُكِل أو لبس. فقال له: جعلت فداك، ما العلة في ذلك؟ قال: لأن السجود خضوعٌ لله عزّ وجل فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل ويلبس، لأنّ أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عزّ وجل، فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغترّوا بغرورها» (٣٦).

على أنّ جواز السجود على غير الأرض ليس موردَ وفاقٍ بين علماء السنة، فهم مختلفون فيما يصح

السجود عليه من غير الأرض، كما ذكر ذلك ابن رشد القرطبي في كتابه بداية المجتهد، حيث قال:

«واتفقوا على الصلاة على الأرض، واختلفوا في الصلاة على الطنافس وغير ذلك مما يقعد عليه على الأرض، والجمهور على إباحة السجود على الحصير وما يشبهه مما تنبت الأرض، والكرهية فيما بعد ذلك، وهو مذهب مالك بن أنس» (٣٧).

فالمسألة إذن من المسائل الفرعية التي اختلف فيها الاجتهاد، وليس لأحد أن يفرض اجتهاده على غيره. والحمد لله رب العالمين

* * *

الهوامش:

- (١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي: ١ / ٦٣.
- (٢) المغني لابن قدامة الحنبلي: ١ / ٢٢٣.
- (٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١ / ٤٩٣.
- (٤) صحيح البخاري: ١ / ٨٦، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١.
- (٥) صحيح البخاري: ١ / ١٩٨، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١.
- (٦) صحيح مسلم: ٧٥، دار الفكر، بيروت لبنان.
- (٧) راجع: مسند أحمد بن حنبل: ٣١٥، دار صادر، بيروت لبنان.
- (٨) راجع: السنن الكبرى: ٥ / ٧٤، دار الفكر.
- (٩) المصنّف لعبد الرزاق: ١ / ٣٩٧، تحقيق الشّيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
- (١٠) مجمع الزوائد للهيثمى: ٢ / ١٢٦، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨، بيروت لبنان.
- (١١) السنن الكبرى: ٢ / ١٠٦.
- (١٢) المصدر السابق: ١٠٥.
- (١٣) كنز العمال: ٧ / ٤٦٥، نشر مؤسسة الرسالة: ١٤٠٩، بيروت لبنان.
- (١٤) المصدر السابق، حديث: ١٩٧٧٧.
- (١٦) السنن الكبرى: ١ / ٤٣٩.
- (١٧) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١ / ٤١٠، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- (١٨) راجع بداية المجتهد: ١ / ٩٨، تحقيق خالد العطار، نشر دار الفكر، بيروت.
- (١٩) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١ / ٤٩٣.
- (٢٠) الخلاف: ١ / ٣٥٥، نشر مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧، قم.
- (٢١) جواهر الكلام: ٨ / ٤١١، تحقيق الشّيخ عباس القوجاني، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، نشر دار الكتب الإسلامية تهران.
- (٢٢) مستند الشيعة: ٥ / ٢٤٤، تحقيق مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى ١٤١٥، قم.
- (٢٣) الحقائق الناضرة: ٧ / ٢٦٠، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، قم إيران.
- (٢٤) مستند الشيعة: ٥ / ٢٦٦.
- (٢٥) الاحتجاج: ٢ / ٣١٢، تحقيق السيّد محمد باقر الخراسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.
- (٢٦) مصباح المنهجد: ٧٣٣، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر مؤسسة فقه الشيعة، بيروت لبنان.
- (٢٧) وسائل الشيعة: ٥ / ٣٦٦، الحديث: (٦٨٠٩)، تحقيق مؤسسة آل البيت، قم.

- (٢٨) راجع: مسند أحمد: ٤ / ١٧٢، سنن ابن ماجة: ١ / ٥١، سنن الترمذي: ٥ / ٣٢٤، وغيرها الكثير.
- (٢٩) وسائل الشيعة: ٦ / ٢٩٩، الحديث: (٨٠١٨).
- (٣٠) المصدر السابق: ٦ / ٣٠٠، الحديث: (٨٠٢٢).
- (٣١) علل الشرائع: ٢ / ٣٩٠، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٨٦ هـ.
- (٣٢) مصباح المتعبد / ٧٨.
- (٣٣) الكافي: ٣ / ٣٢٨، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، نشر دار الكتب الإسلامية تهران.
- (٣٤) المجادلة: ١١.
- (٣٥) الحج: ٣٨.
- (٣٦) من لا يحضره الفقيه: ١ / ٢٧٢، الحديث: (٨٤٣)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، نشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
- (٣٧) بداية المجتهد: ١ / ٩٨.

عرض مقارن وموجز لتفسيري العلامة

الطباطبائي رحمته الله

الميزان والبيان

□ إعداد: قسم المنشورات في هيئة التحرير

بالرغم من تمتعه بمراتب علمية عالية في تلك المجالات المختلفة، تحقيقاً وتدریساً وتالیفاً.

والحق يُقال: إنَّ تفسير الميزان نال بذلك ما يستحقّه، سواء لجهة أهمّيّته كمؤلّف، وعمقه وتميّزه من بين سائر كتب التّفسير إلى اليوم، أم لجهة درجة حكايته عن فكر صاحبه، وتمثيله رؤاه ونظرياته في المجالات المختلفة للفكر الإسلامي. وقد وضع فيه العلامة رحمته الله زبدة آرائه، وخلاصة تحقيقاته وأبحاثه في المعارف الإسلاميّة، وما

بالرغم من كثرة مؤلّفات العلامة الطّباطبائي رحمته الله وغزارتها، وأهمّيّة الموضوعات التي تناولتها، ودرجة العمق والدّقة التي توفّرت عليها، فقد كان لتفسير الميزان محلّه الخاص، ومكانه المميّز من بينها. بل لقد استأثّر هذا الكتاب بصاحبه، حتّى صار يُعرف به، وينسب إليه، أكثر ممّا يُعرف وينسب إلى اسمه الشّخصي. بل لعلّ هذا التّفسير حجب إلى حدّ ما الجوانب العلميّة الأخرى في شخصيّة مؤلّفه، كالفقه والأصول والفلسفة، ليغلب عليه صفة المفسّر، كلّ ذلك

توصّل إليه وبناء طيلة جهاده العلمي الطويل.

وقد كانت مفاجأة أن تمّ رُفد المكتبة القرآنيّة مؤخراً بصُور كتاب آخر للعلامة الطّباطبائيّ في التّفسير، لم يكن معروفاً من بين مؤلّفاته، وعنوانه: «تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن».

والكتاب كما ذكر محققه في المقدمة لم يطبع في حياة العلامة، بل ظلّ مخطوطاً إلى أن قامت مؤسسة تنظيم ونشر آثار العلامة الطّباطبائيّ بطباعته ونشره في ستة أجزاء، بعد أن أدّى المحقق الفاضل أصغر إرادتي مهمة تحقيقه وتصحيحه.

وهو - كتفسير - لم يكتمل، بل شرع فيه المؤلّف من أوّل الفاتحة ليتوقف عند الآية (٥٧) من سورة يوسف.

وقد شرع في تأليف تفسيره هذا أثناء إقامته في تبريز بعد رجوعه من النّجف الأشرف، وقبل أن يتجه للإقامة في قم المقدسة التي شرع فيها

بكتابة تفسير الميزان على ما أفاده محقّقه في مقدمة التحقيق، ولما يتضح مما ذكره نفس المؤلّف من تاريخ الانتهاء من بعض مراحل. فقد ذكر أنّه انتهى من تفسير سورة البقرة ليلة عيد الأضحى في سنة ١٣٦٤ هـ. ق، وفرغ من تفسير سورة التوبة في منتصف شهر رمضان سنة ١٣٦٩، بعد أن كان قد أنهى ما بين هاتين السورتين في الفترات الواقعة بين هذين التاريخين.

وعلى أية حال لن نقف طويلاً عن ظروف تأليفه، وأسباب عدم إكماله؛ إذ الذي يهمنا بدرجة أكبر هو التّعرّف إلى خصائصه في المضمون والأسلوب والمنهج، وقيّمته كمؤلّف، مع مقارنته بالتّفسير الآخر المعروف لمؤلّفه «الميزان في تفسير القرآن». وهذا ما سنحاوله بشكلٍ موجزٍ في السّطور القليلة التالية:

رسالة الكتاب في المضمون والمنهج:

الرّسالة التي يحملها عنوان تفسير

«البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن» ومضمونه هي التوفيق بين القرآن الكريم والروايات المأثورة في تفسيره، وهذا يستلزم - بطبيعة الحال - حضور الروايات في بدرجة كبيرة، ولكن مع هذا لا يصحُّ اعتباره تفسيراً روائياً بالدقة، وبحسب ما هو المعروف عن التفاسير الروائية، من حيث اقتصارها غالباً على إيراد الروايات المأثورة المفسرة للآيات القرآنية، أو التي لها علاقة في توضيح المراد منها، ويحرص مؤلفوها بشكل عام على حشد ما تيسر من الروايات الواردة في تفسير الآية، أو التي ترتبط بمضمونها بنحو ما، دون بذل جهد في تمحيصها والتدقيق فيها سنداً ودلالة، وملاحظة مدى انسجامها مع ظواهر القرآن، بل ولا في حلّ التعارض بين نفس الروايات التي يوردها في المقام.

وغالباً ما ينطلق أصحاب التفاسير الروائية من مبانٍ أخبارية في عدم الأخذ بحجية ظواهر القرآن من

دون رواية مفسرة، أو تقديم الرواية حين التعارض بين مؤداها وظاهر الآية القرآنية، ونحو ذلك من المباني التي تتفاوت تطرفاً واعتدالاً، وإطلاقاً وتقييداً.

والعلامة الطباطبائي في تفسير البيان لم يتخلّ عن مبانيه الأصولية والفلسفية، ومنطلقاته الفكرية. فهو لم يقم بتفسير الآية بالرواية متنازلاً عن حجية ظواهر القرآن التي تبناها في الأصول والتفسير، كما أنّه لم يتنازل عن حجية النص الوارد عن المعصوم عليه السلام إذا اجتمعت فيه شرائط الحجية والقبول التي أسسها في علمي الأصول والحديث. بل انطلق من قواعده التي تبناها في المجالين في مهمةٍ عسيرةٍ تهرب منها - عادةً - غيره من المفسرين، وهي التوفيق بين النصين: النص القرآني، والنص المأثور الوارد في تفسير الآية.

وبعبارة أخرى: بين ما يستفيدة المفسر من النص القرآني عملاً بحجية الظواهر وغيرها من القواعد، وبين

ما يؤدبه النص الروائي. وذلك -
 بالطبع - انطلاقاً من كون النص
 الصحيح - أي: الصادر عن المعصوم
 واقعاً - لا ينافي القرآن، وأن ما يتوهم
 من تعارض بينهما بدواً يمكن أن يحلّ
 بالالتفات إلى بعض المقدمات
 والنُّكات والقرائن.

وربما اقتضى التوفيق بينهما
 التصرف في ظاهر أحدهما أحياناً
 لمصلحة الآخر، وهذا ليس إشكالاً
 في حدّ نفسه؛ فمخالفة الظاهر ليست
 عزيزة في الكلام العربي، ما دام ذلك
 يتمّ ضمن قواعده السليمة، والقرائن
 التي تسمح بذلك.

ولا شك أن مطالعة المنهج
 المتكامل للعلامة عليه السلام في التفسير،
 ودراسة مبانيه التي اعتمد عليها في
 ذلك يحتاج إلى مراجعة متأنية، لا
 تتسع له هذه الإمامة العجولة.

وفي تفسير الميزان لم يصرّح المؤلف
 عن مدى وقوفه عند الروايات
 واستعانتها بها في تأسيسه لما استنتجه
 من معانٍ والتفاتات، بل لقد ادّعى

العكس، وأنه يقتصر في ما يستفيدة
 من معاني الآيات على ما يفيد القرآن
 نفسه، وما تؤدبه القرائن الداخلية من
 إضاءات، وأنّ منهجه في الميزان يبتني
 على أن القرآن لا يحتاج في تفسير
 نفسه إلى شيءٍ إضافي؛ لأنّه ﴿تبياناً لكل
 شيءٍ﴾، و﴿هدى للناس وبيّنات من
 الهدى والفرقان﴾، وحاشا أن يكون
 القرآن تبياناً لكل شيءٍ ولا يكون
 تبياناً لنفسه، على حسب تعبير
 العلامة في مقدمة الميزان.

لكنّ المطالعة الدقيقة لما ذكره في
 بيانه التّفسيري هناك، ومقارنته
 بالأبحاث الروائية التي أوردها ذيل
 تلك الأبحاث التفسيرية - معلناً
 تمامية البحث التّفسيري من دونها،
 ولذا لم يدعجها فيه - يوضح بشكلٍ
 حاسم أن العلامة عليه السلام في تفسيره
 القرآن، وبحثه عن القرائن القرآنية
 المتفرقة في تفسيره للآيات، كان ذهنه
 مشرباً بدرجة كبيرة بمضامين
 الروايات الواردة عن أهل
 البيت عليهم السلام، وما تحمله من بيان

وتفسير وقرائن والتفاتات حول معنى الآية، أو تقدمه من تطبيق ومصاديق وجري لتلك المعاني. ساعياً ما أمكن للجمع بين ما يفيد القرآن نفسه من مراده، وبين ما دلت عليه الرواية.

ولا ضير في ذلك ما دام - كما قدمنا - يتحرك ضمن منهج مؤسسي وقواعد مشيئة، بل لقد وفق ﷺ في ذلك إلى درجة كبيرة، وقدّم نموذجاً متميزاً في التفسير لعلّه بدرجة من الكمال لم تسبق.

وبالمقابل فإنّ منهج تفسير القرآن بالقرآن الذي رفع العلامة شعاره في تفسير الميزان، وبنى منهجه في التفسير عليه، وقد رشح من بعض كلماته أنّه استفاده من روايات أهل البيت  ومنهجهم حسب ما تفيد بعض رواياتهم التي تفسّر آيات القرآن بالاستعانة والاستشهاد بآيات أخرى منه.

هذا المنهج تجده حاضراً في تفسير البيان؛ حيث تجده يستعين أحياناً

بآيات وشواهد من القرآن في تفسير الآية التي تكون محلاً للكلام، ويتسلّح بالإضافة إلى اللّغة بالقرائن التي تستفاد من القرآن نفسه لتحديد المراد من الآية في مجال التوفيق بينها وبين رواية واردة في تفسيرها.

فالعلامة ﷺ إذن لم يتعد في تفسير البيان عن المنهج الذي اتبعه في تفسير الميزان، في تفسيره القرآن بالقرآن، بل لقد استفاد منه في إغناء النكات التي استفادها من الآيات، وفتح آفاقاً جديدة على المألوف في تحديد المراد منها.

كما أنّ رسالة التوافق بين القرآن والحديث المروي عن أهل البيت  التي أعلنها في تفسير البيان، وجعلها شعار تفسيره قد أضمرها في تفسير الميزان واتخذها أساساً انطلق منه في فهمه للقرآن.

نعم، لقد أضاف العلامة إلى ذلك في تفسير الميزان - ومن خلال ما ذكره من أبحاث فلسفية وعقلية وقرآنية وعرفانية - نجاحاً في التوفيق بين

الحقائق القرآنية وبين ما تفيده وتستلزمه القواعد العقلية. وقيمة ذلك النجاح - بالطبع - هو في كونه لم يكن على حساب التنازل عن شيء من قواعد المنهجين وأسسهم. فقدّم تفسيرات مقنعة ومنسجمة مع قواعد الفلسفة والمنطق ونتائج الأبحاث العلمية لما حكاه القرآن والحديث من معجزات وخوارق للعادة، أو لمسائل عقائدية تستبعد عنها الثقافة المستأنسة بالعادة والمألوف، كالرجعة والغيبة ونحوهما.

وكان من خلال ذلك أحرص ما يكون وأدق ما يكون في المحافظة على الأمرين: التمسك بظاهر النص القرآني، وعدم الفرار إلى تأويله والتلاعب بمؤداه لصالح القواعد العقلية والعلمية المفترضة، وفي نفس الوقت الحرص على كرامة العقل، وعدم التذرع بالتسليم للنص في رفض معطياته.

بينما انقسم كثير من المفسرين حول هذين الأمرين، وتفرقوا فيهما

مذاهب ومناهج توحى بالطلاق والافتراق. فهم إذ عجزوا عن إيجاد التوافق بينهما لجأوا إلى التخلي عن أحدهما لصالح الآخر.

فبين من تنازل عن ظواهر القرآن حول المعجزات والأمور الخارقة مثلاً، ذاهباً إلى حملها على الكناية والمجاز، وتأويلها بمعاني لا تتعارض مع نتائج الأبحاث أو المراكز العلمية بحسب نظره.

وبين من تساهل في شطب نتائج العقل والعلم الحديث جهوداً على ظاهر نص قرآني أو حديثي، وناقض في ذلك ليس عقله فحسب، بل القرآن نفسه، مع أنه لو التفت إلى بعض النكبات والقرائن لاختلف المعنى المراد لديه، واتضح التطابق والتوافق.

والحقيقة أن المشكلة ليست في وجود تباين بين مؤدى النص الثابت وأحكام العقل ونتائج العلم، وإنما في الإنسان والباحث الذي يتعصّب لمألوفاته، ويركن إلى مرتكزاته، ولا

يبدل الجهد الموضوعي المطلوب لاستكشاف المنهج الصحيح توصلاً لإدراك الحقيقة التي يتوافق عليها العقل والنص الصحيح.

ولعلنا نستطيع القول بأن تفسير الميزان - وبسبب ما تميّز به مؤلفه من ثقافة واسعة ومتنوعة، فلسفة وتفسيراً وعرفاناً وحديثاً وفقهاً وأصولاً - قد تمّ له أن يحوي أفضل موسوعة تفسيرية في التوافق بين القرآن والحديث والعقل والعرفان جميعاً، بل أن يقدم نتائج غنية وأفكاراً بكرة، وأبحاثاً قرآنية متميزة مادة ونوعاً، كلّ ذلك نتيجة لهذه الجامعة والتلاقح بين المعطيات الثقافية المتنوعة التي توفرت في شخص مؤلفه.

والنتيجة حول رسالة التوفيق بين الحديث والقرآن التي حملها تفسير البيان، ومقارنتها بما تضمنه وحواه تفسير الميزان، يمكن القول إنّها مثّلت الشّعار المعلن، والغاية الأساسية لتفسير البيان، لكنّها لم تكن على

حساب منهج الاستفادة من القرآن في تفسير القرآن المعلن كشعار وغاية في تفسير الميزان، بل كانت في طوله ومبتنية عليه. كما أنّها كانت إحدى الغايات في تفسير الميزان، لكن أريد لها أن تؤدّي بشكل غير مباشر، وتقدّم كنتيجة طبيعية لتفسير القرآن بالقرآن.

وفي كلا التفسيرين - مع قطع النظر عن العناوين والشعار والأسلوب - فقد كان الحضور لشخصية المؤلف ﷺ العلمية الواحدة، التي تؤمن بترابط الثقلين، وأنّهما لن يفترقا، بل يفسر أحدهما الآخر، ويصدق، ويهدي إليه، واضح المعالم والتأثير.

ثمّ إنّ من الواضح أنّ تفسير الميزان يتميّز على تفسير البيان في كونه أكثر تفصيلاً وغنى، فهو - بالإضافة إلى كونه يشتمل على جوانب لم يتعرّض لها المؤلف في البيان أصلاً - يفوقه سعة وتفصيلاً حتى في معظم الجوانب المشتركة. فعلى صعيد

التفسير التجزيئي للآيات يتفوق الميزان بشكل واضح في درجة التفصيل والتدقيق في كل مفردة، والتعرض لمضمون سائر الآيات وأجزائها والدلالات التي تنطوي عليها صدرأً وذيلأً، بينما لا يكاد في البيان يقف عند الكثير من هذه النكاب، مركزاً بصورة خاصة على المواضع التي وردت فيها أحاديث، وخاصة الموارد التي تحتاج إلى التوفيق بين النصين: القرآني والحديثي.

وفي الميزان تعرض المؤلف في مجال البحث الموضوعي إلى أبحاث فكرية وعلمية مختلفة ذيل تفسيره للآيات، منها الفلسفي والعلمي والأخلاقي والعقائدي وغير ذلك، مما يؤهله لأن يكون دائرة معارف شبه كاملة.

بينما اقتصر في البيان على بعض الفوائد التي تستفاد من الآيات في المجالات المعرفية المختلفة، دون أن يرتقي ما يذكره حول ذلك الموضوع إلى درجة البحث المتكامل. ولكن على الرغم من اختصار البيان في هذا

الجانب قد نجد أحياناً بعض الالتفاتات والفوائد مما لم يذكره في الميزان.

في الجانب اللغوي:

ويشارك التفسيران في تناول معاني المفردات من الناحية اللغوية، والإشارة إلى معنى الآية الإجمالي، بالطبع بالإضافة إلى الأحاديث المرتبطة بتفسير الآيات.

لكن الميزان على صعيد اللغة وتفسير المفردات كان أكثر شمولاً وحرصاً على تناول عدد أكبر من المفردات والتفصيل في شرحها، والإفاضة في اشتقاقاتها، والاستشهاد بأقوال اللغويين في تفسيرها، وصولاً إلى تحديد المراد منها في الآية، ولكنه في البيان يقتصر على الإشارة إلى المعنى المراد من اللفظ، وقليلأً ما يتعرض إلى الاشتقاق، ونادراً ما يستشهد بقول لغوي في هذا المجال. وأحياناً يكتبني بإيراد رواية تبين المراد من الكلمة المراد تفسيرها وحسب.

في الجانب الروائي:

وفي الجانب الروائي قد تجد في
البيان حرصاً على إيراد الروايات في
ذيل الآية المفسرة، وربما كان أكثر
اهتماماً في تغطية تفسير كل آية بذلك؛
ولذا قد تجده أحياناً يتعرض لتفسير
الآية برواية لم يذكرها في الميزان
أصلاً. ولكن مع كل ذلك تظل
الأبحاث الروائية التي أوردها في
الميزان آخر البحث التفسيري أكثر
سعة وتفصيلاً. بل يتعرض فيها
لمناقشة آراء المفسرين ومواقفهم
حولها، وللروايات المخالفة مع
تفنيدها. وغالباً ما يتعرض للروايات
من طريق الفريقين - معتمداً في
روايات العامة على تفسير الدر المنثور
للسيوطي غالباً - ليقدم بحثاً روائياً
تاريخياً كلامياً حول الآية المبحوث
عنها، وما يتفرع عليها من مسائل
تاريخية وعقائدية وفقهية. بينما لم نثر
بالمقدار الذي تصفحنا به تفسير البيان
على تعرض لروايات من طريق
العامة. وعلى فرض حصول ذلك فيما
لم نطالعه يكون نادراً، ويمثل استثناء.

ولعل الوجه في ذلك واضح؛ لأن
العلامة رحمته الله يسعى في تفسير الميزان إلى
تقديم موسوعة علمية أكثر تكاملاً،
وهذا يفرض عليه جامعية أكبر، من
ناحية تناول الرأي والرأي الآخر.
بنها رسالته الأساسية من خلال تفسير
البيان هي الكشف عن التوافق بين
القرآن والروايات الواردة عن أهل
البيت عليهم السلام في تفسيره بشكل عام.

بل حتى في مجال التوفيق بين
مضمون الآيات وظواهرها، وبين
الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام
في تفسيرها تجد بعض أبحاث الميزان
أكثر نضجاً وتفصيلاً.

وكمثال على ذلك يلاحظ
التفسيرين في ذيل الآية (١٠٥) من
سورة التوبة، وكذا ذيل الآية (١٢٤)
من سورة البقرة.

جوانب إضافية: السِّيَاق،
الغرض، وجوه بلاغية، التعرُّض
للأقوال

ليس هناك توافق بالضرورة في ما
يستفيدة العلامة رحمته الله من التفاتات،

ويركّز عليه من بيانات بين التفسيرين، فقد تجد فوائد ونكات في البيان رغم اختصاره لم يذكرها في الميزان.

ويختلف التفسيران أحياناً فيما يعرضانه حول السياق وارتباط الآيات؛ إذ العلامة رحمته في تقطيعه للسورة أثناء تفسيره لها إلى مقاطع تحتوي على مجموعة من الآيات، يراعي فيها عادة وجود ترابط سياقي بين المقطع المختار، لكننا نجد تفاوتاً واختلافاً بين التفسيرين في هذا الجانب.

كمثال على ذلك جعل في سورة التوبة الآيات (٢٩ إلى ٣٥) مقطعاً واحداً في تفسير الميزان، بينما قسّمها إلى مقطعين في البيان: (٢٩ إلى ٣١) و (٣٢ إلى ٣٥).

وكذا جعل الميزان الآيات (٣٨ إلى ٤٨) مقطعاً واحداً، بينما قسّمها في البيان إلى مقطعين: (٣٨ إلى ٤٢) و (٤٣ إلى ٤٨).

والأمثلة على هذا التفاوت أكثر

من أن تحصى.

وتجد المؤلف في الميزان أكثر حرصاً على ذكر الغرض الخاص لكل سورة، وتلخيص مضامينها، وإفادة مكّيتها أو مدنيّتها، كلاً أو بعضاً، قبل الشروع في تفسيرها. وفي البيان يتعرّض للغرض أحياناً، ومع هذا تجد اختلافاً فيما استفاده من غرض السورة بين التفسيرين، وسورة التوبة تصلح شاهداً على ذلك.

ويتعرّض المؤلف رحمته في كلا التفسيرين إلى وجوه الالتفات في الخطاب القرآني، ويحاول الكشف عن النكات التي يستبطنها تبديل السياق - أحياناً - بين التكلّم والخطاب والغيبة، أو سائر أنحاء الالتفاتات من الجمع والمفرد وغيرهما. لكنّه في الميزان أشد حرصاً على بيان هذه الفوائد، وأكثر نصيحاً وعمقاً وتفصيلاً.

ومن مختصات الميزان مقارنة بالبيان تعرض الأول لأراء المفسرين، ونقل أقوالهم ونظرياتهم في تفسير

الآية، مستشهداً بها أو مفنداً لها، بينما لا نجد في تفسير البيان ذكراً للرأي مفسراً إلا نادراً.

في البيان وأسلوب الكتابة:

في أسلوب الكتابة قد لا نجد تفاوتاً يذكر في كلا التفسيرين، فلغة العلامة رحمته الله في الكتابة بالعربية لم تختلف فيها أصلاً، سواء بإيجازها التي تكمن في محاولة جعل القالب اللفظي طيعاً ومرناً في أداء المعاني، وإن كانت عميقة، أم في سليتها التي تنحصر في كون القارئ العربي يستطيع وبسهولة أن يستنتج أن لغة الكاتب ليست عربية بالأصالة، وذلك عن طريق ملاحظة الضمائر، وبعض المفردات التي تأثرت بلغة الأم للعلامة رحمته الله، من قبيل الاستعمال المتكرر لكلمة الإزدواج بدل الزواج، والمغاربة بدل الغريين، ونحو ذلك.

والذي يسهّل الخطب أن عمق المعنى واندفاعه الفكرة قد غطياً كثيراً على ما يمكن أن يُسجل على هذا

الأسلوب.

خاتمة المطاف:

إنّ مكانة تفسير الميزان لا تتزعزع، سواء لجهة قيمته ككتاب وتفسير وموسوعة معرفية واسعة، أم لجهة تمثيله شخصية مؤلفه العلمية؛ حيث يكاد يكون تفسير البيان بمثابة نسخة تجريبية له، لكن هذا لا يلغي اختصاص البيان بمزايا خاصة، وفوائد إضافية:

منها: كون اهتمامه الأساسي بالروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في التفسير، فهو أكثر وضوحاً في بيان هذا الجانب وإبرازه، خاصة وقد اعتمد إيراد الروايات في ذيل الآيات المفسرة مباشرة، خلافاً للميزان الذي أرجأ البحث الروائي إلى الفراغ من تفسير المقطع القرآني المختار بتمامه. فالبيان كتفسير روائي تحليلي أسهل تناولاً.

كما أنّه غطّى كمياً عدداً أكبر من الآيات التي استوعبها من ناحية إيراد روايات لها علاقة في تفسيرها، بينما في

الميزان رَكَّز على إتيان الروايات
وبحثها في نقاط معينة ومساحات
أقل.

ومنها: أنَّ البيان لا يخلو من نكاتٍ
إضافية، والتفتات لم تذكر في الميزان،
على الأقل في ضمن الموضوع الخاص،
وإن كان ربما تكون قد ذكرت في
ضمن مواقع أخرى منه.

وكيف كان فإنَّ البيان يمثِّل بياناً
إضافياً حتى للمضامين المشتركة،
ويوفِّر للقارئ صياغة ثانية للمفاهيم
المطروحة بشكلٍ مختلفٍ تفصيلاً
وإجمالاً، مما يعين الباحث على التَّعامل
مع لغة العلامة وأسلوبه الخاص في
الكتابة بالعربية.

* * *

ردود فعل العالم الإسلامي

تجاه تصريحات البابا الأخيرة

□ إعداد: علي أحمد الحسن

هو مخططٌ أمريكي صهيوني، دخل في مشروعه رأس الفاتيكان، سواء كان قصيدٍ وسوء نيّة، أم عن جهلٍ بالواقع.

ورسالة الثقلين إذ تنقل لقرائها تقريراً موجزاً عن ردود الفعل الصّادرة في العالم الإسلامي تجاه هذه التّصريحات المغرضة وغير المسؤولة، مع التّأكيد على أنّه ربما تكون هناك ردود فعل قد صدرت أو ستصدر لن نوجزها في هذا التقرير؛ لعدم المكنة الزمنية بعدما تقدّم آنفاً من أنّ العدد في طريقه إلى الصّدور؛ لعلّها بذلك

عندما كان هذا العدد من مجلّة «رسالة الثقلين» في طريقه إلى الإخراج طالعنا رأس الكاثوليك في العالم المسيحي: (بنديكت السادس عشر) بمحاضرة في ختام زيارته إلى مسقط رأسه ألمانيا، توجّها بافتراء كاذب عن طريق اقتباسه لمقتطفاتٍ من كلامٍ لإمبراطور بيزنطي، يتعرّض فيه للإساءة إلى شخص النّبيّ الأكرم ﷺ. مؤكّداً بذلك أنّ الحملات السّابقة على الإسلام ونبيّه لم تكن محض صدفة وعملاً فردياً، بل

تكون قد ساهمت بنصيبها - وإن كان على سبيل العجالة - في خدمة الدِّفاع عن حريم الرِّسالة ونبيِّها.

بعض ردود الفعل في الجمهورية الإسلامية:

فمن جهته قد وصف قائد الثَّورة الإسلامية ولي أمر المسلمين الإمام الخامني دامتْ تصرّيات البابا بأنَّها أحدث حلقةً من سلسلة الحروب الصَّليبيَّة التي أعلن عنها الرِّئيس الأمريكي عقب أحداث أيلول، وهي تندرج في إطار المؤامرة الأمريكيَّة الصَّهيونيَّة لافتنال التَّراعات بين الدِّيانات.

وغير خفيٍّ على أحدٍ يتابع في السِّياسة ما لهذا الوصف المختصر من دقَّة وقراءة واقعيَّة لهذه الحملة المسيئة. وفي هذا السِّياق قال إمام جمعة طهران المؤقت، السَّيِّد أحمد خاتمي: إنَّه من المؤسف أن يكون زعيم المسيحيين بهذا الجهل، وقلة الأدب، واصفاً تصرّياته بالسَّخيفة، والتي أظهرت أنَّه لا يعلم الكثير عن

الإسلام.

كما أذان مجلس صيانة الدِّستور في الجمهورية الإسلامية في بيانه الصَّادر في هذا الخصوص تلك التَّصرّيات المسيئة ضد الإسلام، معتبراً لها أنَّها ناجمة عن الجهل، وعدم العقلائيَّة التي تؤدي إلى مزيد من الانحراف والسُّقوط للمسيحيَّة.

وجاء في البيان: أنَّه وفي الوقت الذي يعتبر فيه البابا دين الإسلام دين العنف؛ فإنَّه يثير التَّساؤل حول قضية الجهاد المقدسة، ويغض النُّظر عن جرائم الاستكبار الذي يمارس القتل ضد المسلمين الأبرياء والعزل تحت لواء المسيحية واليهودية.

وحذّر مجلس صيانة الدِّستور في بيانه من المؤامرات المتسلسلة للعالم الغربي ضد الإسلام، وما يستلزم ذلك من جرح مشاعر أكثر من مليار مسلم. مؤكِّداً أنَّ الإسلام هو دين السلام والرحمة والعفو، ولكنَّه في نفس الوقت لا يتحمَّل الإساءة والابتزاز.

وأضاف أنَّ تصريحات البابا المسيئة مؤشِّر لنفوذ الاستكبار في جهاز القيادة الدينية عند المسيحيين.

وفي الختام اعتبر تصريحات البابا بأنها ضربة موجهة إلى المسيحية قبل أن تكون موجهة للإسلام، وأوصاه بأن يزيد مطالعته ووعيه حول الإسلام، وأن لا يتكرر منه هذا الخطأ الفادح.

ومن جهتها استدعت وزارة الخارجية في الجمهورية الإسلامية سفير الفاتيكان الأسقف متولا، وأبلغته قلق طهران واحتجاجها الشديد إزاء تصريحات البابا المسيئة للإسلام.

هذا، وقد أصدر المراجع في قم بيانات متعددة أدانت تصريحات البابا المسيئة للإسلام.

فمن جهته أشار المرجع الديني الشَّيخ ناصر مكارم الشيرازي في بيان أصدره إلى أنَّ هذه الإساءة والهجمة ضد الإسلام، والتي جاءت بعد الانتصار البطولي الذي حققه حزب

الله ضد الكيان الصَّهيو، لم تكن بعيدة عن التوقعات، وتساءل عن السَّبب في انخداع زعيم الكاثوليك في العالم بالأعيب السَّاسة الظَّالمين والمتغترسين.

وأضاف أنَّ البابا أثبت عملياً أنَّه لا اطلاع له على أحكام الإسلام، وأبدى تعجُّبه من أن يكون زعيم الكاثوليك في العالم عديم المعرفة إلى هذا الحدّ بديانة كبيرة يعتنقها أكثر من مليار وأربعمائة مليون شخص.

وأضاف سماحته أنَّه هل يتوقَّع البابا أن يسكت الفلسطينيين على الصَّهاينة الذين جاءوا من أقاصي الأرض واحتلوا ديارهم وشردوهم، أو أن يسكت حزب الله في ظلّ تعرُّض الشَّعب اللُّبْناني للعدوان الصَّهيو الذي ارتكب المجازر الفظيعة بحقِّ الأطفال والنِّساء والشيوخ.

وقال مخاطباً البابا: إنَّ عليك بدلاً من الهجوم على المسلمين أن تنصح ساستكم القساسة مصاصي الدماء

ليدركوا أَنَّ عهد الاستعمار قد ولى،
وأنَّه عليهم احترام استقلال الدُّول
الإسلامية ومسلمي العالم.

وتابع: أنكم ومن خلال تحقيقكم
للمآرب ساسة الاستكبار العالمي قد
ارتكبتم خطأ فادحاً، عليكم المسارعة
إلى تصحيحه، وكونوا على ثقة بأنَّ
هجومكم غير المنطقي على الإسلام
والمسلمين لن يؤدِّي سوى إلى المزيد
من تعزيز صفوفهم.

ومن جانبه أصدر المرجع الديني
الشيخ مُحَمَّد فاضل اللكراني بياناً
اعتبر فيه أنَّ تصريحات البابا لا تتواءم
إطلاقاً مع منطق وروح الدين
الإسلامي.

وأكد أنَّ هذه التصريحات إمَّا أن
تكون ناشئة عن التلقين من الغير،
وإمَّا ناشئة عن الجهل بالدين
الإسلامي، وفي كلتا الحالتين علينا أن
نأسف لمن يتبعه. وفي نفس الوقت لا
ينبغي أن يقع زعماء الأديان
التوحيدية في فخ المستعمرين،
وطلاب الحروب وسفك الدماء.

وتابع قائلاً: إنَّ كلام البابا عن
الجهاد ينم عن عدم معرفته بحقيقة
الجهاد في الإسلام، وأنَّ الأمور قد
التبست عليه، وخلط بين جهاد
الإسلام، وما يسمونه إرهاباً في
أمريكا.

وأضاف: إننا ننصحه في أواخر
عمره أن يقلع عن هذا الانحراف
والتأمر، وأن يتخذ نهجاً صحيحاً له
والمسيحيين.

كما وأعلنت إدارة الحوزة العلمية
في مدينة قم التَّعطيل العام لجميع
الدُّروس الحوزوية في جميع أنحاء
البلاد ليوم الأحد الواقع في ٢٣
شعبان، احتجاجاً على التصريحات
غير المسؤولة للبابا.

إلى غير ذلك من التَّصريحات
والاحتجاجات التي نظَّمتها
المؤسسات الدينية والجامعية في جميع
أنحاء البلاد.

ردود الفعل في سائر أنحاء العالم
الإسلامي:

ففي سوريا وجَّه المفتي الشيخ

أحمد الحسون رسالة إلى البابا طالبه فيها باستيضاح ما تُنسب إليه.

وفي القاهرة قال شيخ الأزهر الدكتور مُحَمَّد سيد طنطاوي: إِنَّ تصرّجات البابا تنم عن جهل واضح بالإسلام، وطالبه بالرجوع عن تلك التصرّجات.

وقد خرج الشارع الأزهري بعد صلاة الجمعة احتجاجاً على تلك التصرّجات، مطالبين كافة الدول الإسلامية والعربية بطرد سفير الفاتيكان، ومنع البابا من زيارة أي بلد عربي، ما لم يقدم اعتذاراً صريحاً عن إساءاته إلى الإسلام ونبِيِّهِ ﷺ.

وقد كان انتقاد البابا أمراً مشتركاً بين أئمة الجُمُعات في جميع الأقطار الإسلامية، فقد جاء في خطبة الجمعة للعلامة السيّد فضل الله أَنَّ اتِّهام الإسلام بعد إعمال العقل في شؤون الدين والحياة صادراً إمّا عن جهل بالإسلام، وإمّا عن قصد لتشويهه.

وقد أصدر حزب الله بياناً وصف في تصرّجات البابا الأخيرة من

المخطّطات التي تصبُّ في حيز الفتنة بين الأديان والمذاهب.

كما أَنَّ حملة الاستنكار لم تقتصر على العلماء وأهل الفكر والأحزاب السياسية والدينية، بل شهد الشارع العربي والإسلامي ردود فعل متعددة في أكثر الدول الإسلامية.

خلاصة البيان الصادر عن المجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام):

يمكن تلخيص ما ورد فيه في النقاط التالية:

١- إنَّ سلسلة الأحداث التي جرت ضدَّ المسلمين ابتداء من قضية سلمان رشدي المشؤومة، ومروراً بأحداث ١١ أيلول المدبرة، التي أُريد بها تبرير الهجوم العدواني على أفغانستان والعراق، ومنه الضَّغط على سائر الدول والشعوب الإسلامية، ومروراً بالرُّسوم المسيئة، وانتهاء بتصرّجات البابا الأخيرة، كلّها تصب في إطار المؤامرة الشَّيطانية والخطيرة على الإسلام والمسلمين.

٢- إنَّ التَّصريحَات التي صدرت عن بابا الفاتيكان أقل ما يمكن أن توصف بها أنَّها تنطلق من الجهل والتَّعصُّب، فإنَّه بدل من أن يجعل من عيسى المسيح النبي العظيم منطلقاً لنصرة المظلومين، قد جعل من مكانته الرُّوحية وعقيد المسيحية عاملاً مساعداً لخدمة قوى الظلم والتسلط.

٣- إنَّ حَواثِث القرن الماضي، والاستعمار القديم والحديد، هما خير شاهدٍ على ما قام به مدَّعو المسيحية من الإغارة على بلاد المسلمين، وأتباع الأديان الأخرى، وكذلك قيامهم بقتل النساء والأطفال في لبنان وفلسطين، وتدمير البيوت، وكل ذلك لم يكن ليحدث لولا الصمت المطبق من قبل أرباب المسيحية.

٤- إنَّ المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام يدعو مسيحيي العالم إلى معرفة ذلك، وأن لا يسمحوا باستخدام دينهم واسم نبيهم للإعتداء على مليار ونصف مليار مسلم؛ وذلك لخدمة أهداف أتباع

الرأسمالية والسياسيين الذين لا يعرفون الله، وأن لا يسمحوا باستمداد الإرهاب الدولي لقوته من الكلمات غير المسؤول.

٥- إن المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام يهيب بجميع المسلمين من سياسيين ودول وعلماء ومفكرين لتوحيد صفوفهم، وأن يطلعوا على حقيقة هذا الهجوم الاستعماري.

إن المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام إذ يدين هذه المؤامرة التي هي ضد الإنسان وضد الإسلام، يدعو البابا إلى تصحيح ما ذكره، إذا كان فعلاً قد تراجع عما ذكره من كلام خاطئ. وأن يقوم بخطوات عملية تمنع من استخدام اسم المسيح عليه السلام بشكل سيء. وأن يثبت وقوفه إلى جانب المحرومين والمستضعفين، وضحايا اعتداءات عباد السلطة، وأن لا يسمح باستبدال طاولة الحوار بين الأديان الإبراهيمية بمنازعة قتالية.

*

*

*

من منشورات
المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام



تعريف ببعض منشورات
المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام:

- (١) الأصول العامّة للفقّه المقارن
تأليف: العلامة السيّد محمد تقي الحكيم رحمته الله.
مجلّد واحد يشتمل بحوثاً ألقاها المؤلف على طلبة السنتين الثالثة والرابعة في كليّة الفقه بالنجف الأشرف، تعالج المسائل الأصوليّة التي تشكّل مدخلاً لدراسة الفقه المقارن، والمباني العامّة التي كان يركز عليها المجتهدون من الفريقين في استنباطهم للأحكام على أساس من المقارنة، مراعيّاً الموضوعيّة اللازمة والحساسة جدّاً في بحث
- كهذا، ومتحرّياً مهماً أمكن عن أسباب الاختلاف بين الفقهاء...
طُبِعَ مَرَّتَيْنِ: الأولى سنة ١٩٧٩م بنشر مؤسسة آل البيت عليه السلام؛ ثمّ قامت المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام بتحقيقه، وتخرّيج مصادره وطباعته مرّةً أولى عام: ١٤١٨هـ، وحديثاً في هذا العام، أي: ١٤٢٧هـ.
- (٢) كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام
تأليف: أبي الحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي رحمته الله، (٦٢٥ - ٦٩٢هـ).

من أشهر الكتب في تاريخ أئمة الدين عليه السلام، وتراجهم، وسرد فضائلهم، والدفاع عنهم، والدعوى إليهم، في فصول عديدة مشحونة بالتحقيقات والتدقيقات، وبالألفاظ وعبارات واضحة بيّنة تلّهج بالفصاحة والبلاغة، مع أمانة في النّقل، واعتماد على المصادر الموثوقة بين الفريقين.

طُبِعَ مرّاتٍ عديدة، كان آخرها: طبعة في أربع مجلدات، نشرتها المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، بتحقيق الشيخ علي آل كوثر، سنة: ١٤٢٦هـ.

٣) تذكرة الخواص من الأئمة بذكر خصائص الأئمة

تأليف: العلامة شمس الدين يوسف بن قزغلي البغدادي الحنفي، المعروف بسبط ابن الجوزي؛ (٥٨١ - ٦٥٤هـ). ضمّنه المؤلف فضائل الأئمة عليهم السلام، وأسماءهم وأنسابهم وآثارهم ومُنْتَهَى أعمارهم و.. في أربعة عشر باباً كعدد المعصومين، مُستَفِيداً من المصادر الشّفوية

الواصلة إليه عن طريق الرواة، والمصادر المكتوبة والمصنّفة الموثوقة المعتمدة لدى الفريقين.

طبعاته كثيرة، آخرها: طبعة مؤسسة آل البيت عليه السلام بيروت سنة ١٤٠١هـ، وطبعة دار الأضواء بيروت أيضاً، وأخيراً: ارتأى المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام إعادة طبعه، فجاءت طباعته في مجلدين، بتحقيق: الشيخ حسين تقي زادة، سنة ١٤٢٦هـ.

٤) الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام

تأليف: الشيخ الإمام العلامة علي بن محمد بن أحمد المالكي الشهير بابن الصّبّاغ، ت ٨٥٥هـ.

يُعَدُّ هذا الكتاب مضدراً تاريخياً مهماً للمؤلفين والباحثين في فضائل آل البيت عليهم السلام؛ لما لمؤلفه من شهرة في العلم والأدب والفقه بين الأعلام على اختلاف مذاهبهم؛ ولذا روى عنه جمّع غفير من أهل الحديث والرواية، فقد كان جلّ اعتماده على المصادر الموثوقة المعتمدة لدى

الفريقين، يتميز ببلاغته، وخلوّه من الإطناب والحشو المملّ، مع إيجاز غير مخلّ بالمقصود.

طُبِعَ هذا الكتاب مرتين: الأولى: نشر دار الحديث سنة ١٤٢٢هـ بتحقيق سامي الغريبي في مجلدين؛ والثانية: سنة ١٤٢٧هـ نشر المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام بتحقيق السيّد جعفر الحسيني في مجلّد واحد.

٥) الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية

هذا الكتاب مُختَصَرٌ للموسوعة الأدبية التاريخية والاجتماعية والفكرية والفنية الرائعة، التي ألفها الأديب والكاتب المسيحيّ اللبناني الكبير المعاصر جورج جرداق، وقد اختصره الباحث: حسن حميد السّنيّد، في مجلّد واحد، رغبةً في انتشاره وانتشار مضامينه أكثر بين القراء، وسهولة تداوله، ولِيُؤثّر ثماره في كلّ حين وزمان، مُلتزماً بأن لا يُضيف شيئاً على كلمات الكاتب إذعاناً بقيمة الكاتب والكتاب...

تولّت طبعه للمرّة الأولى:

المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام عام ١٤٢٤هـ.

٦) الأسطورة السبئية

درّة أخرى من سلسلة من اللّثالي، يُتَحَفَنّا بها العلامة المحقّق السيّد مُرتضى العسكريّ، المعاصر، لتنضمّ إلى بقية كتبه المُشَبَّعة بالبحث والتدقيق، والخطاب الموضوعي، والنّقاش الهادئ، الهادف إلى الحقّ والحقيقة وُحْدَها والمحامي عنهما، المُعْتَمِد على المصادر الموثوقة لدى الفريقين؛ يُحاول المؤلّف في هذا الكتاب أن يُؤكّد على أنّ نسبة الشيعة إلى عبد الله بن سبأ ليس له أساس من الصّحة ..

تولّى طباعته ونشره: المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام في مجلدين سنة ١٤٢٧هـ.

٧) فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

تأليف: الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ)؛ كتابٌ قيّم جدّاً في بابهِ، لخصوصيّة مؤلّفه، ومكانته الدّينية والمذهبية، وزمان تدوينه له،

وهذا الكتاب جزءٌ من كتاب فضائل
الصحابة للإمام أحمد، إلّا أنّه قد أعاد
تصنيفه على حدة، وأضاف إليه
زيادة.

حقّق هذا الكتاب الأستاذ حسن
حميد السّيد، وطبعه في مجلّد واحد
المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام
سنة ١٤٢٥هـ.

٨) في رحاب الإمام الحسين عليه السلام
يوم عاشوراء

تأليف: آية الله الشّيخ محمّد مهدي
الأصفيّ (معاصر)، كتابٌ رائعٌ،
سعى فيه الكاتب إلى استخراج
التّحليلات والمفاهيم والأفكار
والمشاهد الجماليّة والقيم التي تحفل
بها الثّورة الحُسينيّة الكربلائيّة، في
خدمةٍ للمنبر والخطابة الحُسينيّين،
بتحليل كلمات الإمام الحسين عليه السلام
ومواقفه، وكلمات أهل بيته
وأصحابه عليهم السلام ومواقفهم وتضحياتهم
النّادرة في التاريخ.

قامت المعاونة الثقافية للمجمع
العالمي لأهل البيت عليه السلام بطباعته
فيما يقرب من ٣٥٠ صفحة

سنة ١٤٢٧هـ.

٩) العتب الجميل على أهل الجرح
والتّعديل

تأليف محمّد بن عقيل العلويّ،
(١٢٧٩ - ١٣٥٠هـ)، واحدٌ من
الكتب التي تنتمي إلى مدرسة أهل
البيت عليهم السلام يرّد فيه المؤلّف بأسلوب
المعاتب - والعتاب من موجبات
ثبوت المحبّة بين الأحباب كما يقول -
يرّد فيه على جرح البعض من أهل
الجرح والتّعديل لبعض الأئمّة
الطّاهرين، ويبيّن تعصّب بعضهم
المفضوح، الذي يتجلّى في الإطناب
والإطالة والمبالغة عندما يتعلّق الأمر
بترجمة النّاصبيّ، وفي الإيجاز الشّديد
والاختزال عندما يتعلّق الأمر
بالترجمة لأضدادهم، مضافاً إلى
توثيقهم النّاصبيّ غالباً، وتوهينهم
الشّيعيّ مطلقاً.

أعدّه وعلّق عليه الأخ صالح
الورداني، وتولّى أمر طباعته المجمع
العالمي لأهل البيت عليه السلام في ١٩٠
صفحةً من القطع المتوسّط
سنة ١٤٢٧هـ.

١٠) الإمامة والولاية في القرآن الكريم

يمثل هذا الكتاب محاولة قام بها عددٌ من الأعلام والباحثين لإثبات أسس وخصوصيات نظرية الإمامة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام طبقاً لآيات القرآن الكريم، وهؤلاء الأعلام هم: السيّد علي أكبر الموسوي اليزدي، محمّد المحمّديّ الجيلاني، محمّد اليزدي، حسين المظاهري، ومحمّد تقي مصباح اليزدي، وبقلم وتحرير الشيخ محمّد علي التسخيري رحمته الله.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، وحاجة المثقّف المسلم، سنياً كان أم شيعياً، إلى مطالعته، قامت المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام بتكليف الشيخ عهد الكريم آل نجف بأن يقوم بتيسير عبارته، ونقله إلى الصياغة الحديثة التي يأنس بها المستوى العام من المثقّفين؛ وتولّت المعاونة الثقافية في المجمع لطباعته سنة ١٤٢٧هـ في ٢٦٥ صفحة من القطع

العادي.

١١) نظرة عابرة إلى نظرية ولاية الفقيه

تأليف: آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزديّ (معاصر)؛ تهدف بحوث هذا الكتاب إلى بيان نظرية ولاية الفقيه التي هي القاعدة الأكثر محورية في عصر الغيبة، إذ هي تشكّل عمود الخيمة بالنسبة إلى النظام السياسيّ الإسلاميّ، وبالتالي: ففي حفظها والدفاع عنها، علماً ومنطقياً، حفظٌ لتألق الإسلام وأحكامه وقيمه في المجتمع.. هذه البحوث في الأصل مأخوذة من محاضرات ومقالات ومؤلفات كان ألّفها المؤلف في مناسبات متعدّدة؛ قرّرها الشيخ محمّد مهدي النادري القمي بالفارسيّة، وترجمه إلى العربيّة السيّد علي الهاشمي.

طباعة ونشر: المعاونة الثقافية في المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطّبعة الأولى: ١٤٢٦هـ فيما يقرب من ٢٠٠ صفحة من القطع الصغير.

١٢) اختلاف الفقهاء في تركة سيّد الأنبياء عليه السلام

تأليف: الأستاذ محمد الصغير الطيّب السّندي (معاصر)، يَستعرض هذا الكتاب ما تركه النّبي ﷺ بعد وفاته من إرث، مبيّناً مصادر الحقوق الشرعيّة التي تكوّنت منها التركة، وما صار إليه حالها بعد وفاته ﷺ، وكيف صمّم البعض الاستيلاء عليها وحرمان العترة الطاهرة ﷺ حقّهم فيها، وما دار بين المتنازعين آنذاك من حديث ومواقف، مناقشاً فيها استدلال الخليفة أبو بكر من رواية، وما تعلّل به من أعذار، كلّ ذلك بأسلوب علمي هادئ وموضوعي.

طباعة ونشر: المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، الطّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

(١٣) شيعة أهل البيت ﷺ

تأليف: آية الله الشيخ محمد مهدي الأصفي (معاصر)، يُحاول هذا الكتاب الإجابة عن الأسئلة التالية: مَنْ هم شيعة أهل البيت ﷺ؟ وما هي قيمة الولاء والانتماء لأهل البيت ﷺ؟ وما هي المفردات والشروط العامّة لذلك؟ وفي نهاية المطاف: ما هي مكاسب الانتماء إلى

أهل البيت ﷺ؟

طباعة ونشر: المعاونة الثقافية في المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، الطّبعة الأولى، سنة ١٤٢٧هـ، فيما يقرب من ١٥٠ صفحة من الحجم الصغير.

(١٤) الدّولة الإسلاميّة وصراع الإرادات

تأليف: سماحة الشيخ ظاهر جبار عبيد، كتابٌ في الفكر السياسيّ الإسلاميّ يتناول البحث عن مسيرة النّظام الإسلاميّ بشكلٍ تكامليّ تدريجيّ غير توسّعيّ، يُبَيِّنُ السبيل لظهور إمام الزّمان ﷺ، ويركّز البحث الفكريّ لوليّ أمر المسلمين ﷺ حول التحدّيات الكبيرة التي تواجهها الدّولة الإسلاميّة في خطابها الفكريّ والتطبيقيّ، مُعَرِّجاً على أفكار الإمام الخامنّي ﷺ حول الحوزة العلميّة ومكانتها ومسؤوليّتها في مواجهة الأزمات الفكرية التي تعصف بالمجتمع والدّولة، وأبحاثٍ أُخرى قيّمة غير ذلك..

طباعة ونشر: المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، الطّبعة الأولى: سنة ١٤٢٧هـ.

قسمة الاشتراك

الاسم :
 العنوان :

 المدينة :
 البلد :
 المهنة :
 مدة الاشتراك :
 ابتداءً من :

 عدد النسخ :

رسالة الثقلين مجلة اسلامية جامعة

البلد
 الاشتراك
 الإرسال
 السنوي / لمدة ٦ أشهر
 الجمهورية الإسلامية في إيران
 (بالريال) ٢٠٠٠ ١٠٠٠
 باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
 ٣٠ ١٥ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية
 أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
 الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

الاشتراكات:

داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٢٠٠٠٠ ريال)

ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:

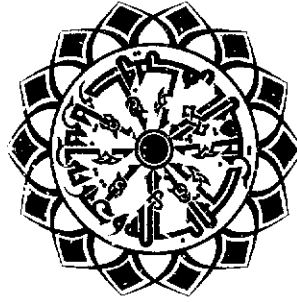
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - باتفك تجارت / شعبفة سمفة، شارع سمفة - رقم
 الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي
 لأهل البيت (عليه السلام).

خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - باتفك ملى (شعبه مركزي قم) رقم
 الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

الجمهورية الإسلامية في إيران ٥٠٠٠ ريال.

وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - 'THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . ١٤, No . ٥٢, August – November. ٢٠٠٦